خمسون عاماً في فلسطين

مذكرات

صديقة العرب

فرنسس إميلي نيوتن

SPC
DS
102.95
.N912
1947
RBK

95.94
N561R

عضو الجمعية الجغرافية الملكية

سيدة العدل في أخوية القديس يوحنا المقدسية

مؤسسة جمعية الصداقة البريطانية العربية

نقله

وديع البستاني

كلية بير زيت
١١٩٣
BEERZEIT COLLEGE

يهودية ١٩٤٧

Digitized by Birzeit University Library

كلمات للمؤلفة

مثل الجرّة في إبريق مُحال به يشبّه ما يدعيه الصهيونيون من اتساع فلسطين لاستيعاب اهل الوطن القومي، فضلًا عن اهلها العرب، بعد ضيقها عن هؤلاء لوحدهم (ص ١٥٥)

نفى تصريح بلفور كل وجود لعرب فلسطين، فأنكروه، وانكروا الانتداب الذي قام عليه؛ وأثبتوا وجودهم

وما زالت الصهيونية تتحجب وتتستر، حتى ظهر الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩، فآلت الوكالة اليهودية ان تمزقه وتحرقه؛ وقامت تطالب علناً، بحكومة يهودية (ص ١٧٦)

هذه المشكلة المستعصية على الحل، نحن اوجدناها، ونحن بها الاشقياء المتعبون. فبدلا من الاهتداء بنجم القطب، الساطع نوره في « العهد الجديد » نظرنا الى الوراء، وعلى ابصارنا غشاوة، وفي قلوبنا مرض، ورحنا نستر دفة سفينتنا على مقتضى تصريح بلفور والانتداب القائم عليه، وكلاهما من صنعنا نحن، في وجه مقاومة العرب الحقة الصادقة. وما زالت السفينة ترتطم بالصخور، ولسياسة الشرق الادنى عواصف زعازع، تكاد تنذر بحرب اخرى (ص ١٧٧)

فسد السلام في « دار السلام »، ومُسخ أمنُ البلاد اضطراباً، وعمرانها خراباً. وصدق الكتاب حيث قال ان قليلًا من الخميرة يخمّر العجين كله. ابتُدع عهدُ جامعة الامم، وانطوى على بدعة الانتداب. وأُدخلت هذه البدعة على فلسطين مخمرة بالعجب العجاب من احداث وطن لقوم بلا وطن في وطن ملؤه اهله. ورفض عرب فلسطين انتداباً هذا شأنه، فأُنزل بهم حكمه إنزالاً، لا تنزيلاً؛ وهم كمواطنيهم من حولهم، يطلبون الاستقلال ولا يرضون دونه بديلًا . . . . ولمَ يُحرم العرب في غربيّ الاردن ما حلّ لابناء قومهم في شرقيه، وفي لبنان وسورية، بعد العراق ومصر ؟ (ص ١٥٨)

علة العالل اخراج فلسطين عن نطاق الاستقلال العربي

ومبعث الفتنة النزاع بين « حق وحق » وشقاق بين قوميتين، عربية قائمة موجودة، ويهودية

مطابع صادر ريحاني ، بيروت ، تلفون : ٦٢ – ٦٨

Digitized by Birzeit University Library

بائدة، عائدة الى الوجود من جديد
فلتُقسَم فلسطين ! !

كذلك قال سليمان الحكيم لمّا ادّعى الطفل امرأتان عسى ان ترضى إحداهما فيثبت الطفل للاخرى، ولو ملك الطِفلُ القول لسفّه سليمان وحكمته (ص ١٦٩)

وللمسألة وجه ثالث، انصرفت عنه انظار المسيحية في الغرب، وفي العالم الجديد، ولم تتحول عنه الكرامة النصرانية العربية في وطنها الاكرم. فقد عرف المسيحي العربي ما مصير المسيحية في مهدها على ايدي الصهيونيين السياسيين. وقد حق على العالم المسيحي بأسره ان ينظر بهلع الى مغبة تسليم البلاد المقدسة الى قوم ليسوا بمنكرين لمسيحية المسيح فحسب، بل لالوهيته، ولرسالته ونبوته جميعاً، في حين ان المسلمين يولون اسم سيدنا الكريم كل تشريف وتكريم (ص ١٨٧)

واولاً وآخراً، وقول الحق : الى العرب، نعود عند النظر الى مستقبل هذه البلاد الحبيبة. عشتُ بينهم طويلاً، فتعلمت الاحترام والتقدير لسجاياهم الفطرية من إباء، وعزة، ووفاء، وحب الاوطان. وما اردتُ بهذا الكتاب الا ان أقدّمهم للعالم كما عرفتهم (ص ١٧٨)

وحسبنا من صلاحهم لما ندبوا انفسهم له من مكانة في عالم العصر، تألفهم دولاً عربية مستقلة متجاورة في جامعةٍ هي جامعتهم هم، يكفل لها دستورها تبادل كل ما هو الرقي والعمران مع ارقى الدول وأعمر البلدان

لقد خطا العرب خطوة جديرة باعجابنا وعطفنا وتأييدنا

فليكن نصيبنا من السير بالانسانية الى الامام ان نصدُقَ العربيَّ العون لاستعادة عظمتـه، بولايته هو لشؤونه، واستيلائه على مرافقه وموارده واستقلاله في وطنه (ص ١٧٩)

ف ١٠ نيوتن

كلمة الناقل

« صديقة العرب » لقب كاد يغلب على اسم المؤلفة. عرفت به منذ نحو ربع قرن، لموافقتها للوفد العربي الفلسطيني الاول برياسة المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني، في سنة ١٩٢٢. وشدّ ما صدقت شهرتها به، يوم رفعت صوتها البريطاني صـادقاً عالياً، بشكواها الصارخة الداوية في العدد الانكليزي الخاص الذي اصدرته جريدة « فلسطين » ليوم ٢٥ آذار، ١٩٢٥، لمناسبة قدوم اللورد بلفور، مميّ التصريح المشؤوم المشهور، لشهود تدشين الجامعة العبرية على الطور (ص ١٢٠) :

اشكو : الحكومة البريطانية : اذ رضيت ان تصبح آلةً في يد اليهود مسخرة لمآربهم القومية في فلسطين

جامعة الامم : اذ انها عاملة عـلى تنفيذ انتداب في فلسطين مخالف للبند ٢٢ من عهدها الذي ابتدع الانتدابات

حكومة فلسطين : اذ انها بعيون مفتوحة تتبع سياسة هي بتفضيل الاقلية اليهودية وتمييزها سياسة ظالمة للاكثرية العربية في فلسطين

وثارت فلسطين ثورتها الصغرى في ربيع ١٩٣٦، والصديقة آنذاك في وطنها الاول، وهي البريطانية العريقة النسب، الكريمة الحسب، فنصرت مواطنيها العرب، ابناء وطنها الثاني، بتأليف جمعية تبث الدعوة لقضيتهم العادلة. وهي المؤسسة التي عرفت اولا بالمركز الفلسطيني، ثم بالمركز العربي؛ وخلفها في ادارته، السيد اميل الغوري، ثم الدكتور عزت طنوس، من اعلام الوطنية الفلسطينية، تبديلاً حسناً كانت هي نفسها مَن عرضه لصاحب السماحة المفتي الحاج امين الحسيني «رئيس اللجنة العربية العليا» وهو بعد في عرينه — المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى — بساحة الحرم الشريف (ص ١٦١)

Digitized by Birzeit University Library

وفي سنة ١٩٣٨، وثورة فلسطين الكبرى في ابانها، والسلطة العسكرية البريطانية ممعنة في ارهاق شعب ثار لحقه على باطل غيره، سلطت الصديقة « الكشاف » على مظالم موهت تمويهاً باسم القانون والنظام . وكان الكشاف (The Searchlight on Palestine) كراساً كتبته، ونشرته عن يد « المركز العربي ». وسرعان ما صدر الامر الرسمي القانوني النظامي بمنع « ف . إ . نيوتن » من دخول فلسطين » (ص ١٦٤)

وما رفع عنها هذا الكابوس، في اواخر سنة ١٩٤٣، والحرب بعد سجال، والسَّفر اشبه بالمحال، الا وهي منصرفة الى تدوين هذه المذكرات؛ شأن المشوق المبعد، نوراً بعيد المدى، ينير اقومها البريطان سبيل الحق والكرامة، ان احبوا الهدى

ووقفت بالتدوين حيث عهدت قضية فلسطين في آخر ١٩٤٥ . وما ان تغيرت، مذ ذاك، الا قليلاً قالته فلسطين العربية بصمتها الرهيب، وقد رفعت فيها للوطن القومي اليهودي عقيرة دامية، ارهاباً صارخاً، ما له من كابت ولا هو يخافت. ووافق ذلك الوقوف تمام « خمسين » من سبعينها، عاشتها في « وطنها الثاني » الا فترات سفرات قصيرات، فجاء العنوان الجليل : خمسون عاماً في فلسطين : وما نصف القرن من العمر بقليل

وفي سنة ١٩٤٦، طرحت الحرب أوزارها، فعادت المجاهدة الى جهادها، عملاً يُعمَل، فضلاً عن قول يُرسَل، فأسست « جمعية الصداقة البريطانية العربية »
(The Anglo - Arab Friendship Society)
وعقد اللواء للورد نوربري رئيساً انضوى حوله نخبة من كرام الانكليز وشجعانهم لا تأخذهم في الحق لومة لائم . وعن هذه الجمعية، وبإمضاء النصيرة القديمة الى جانب إمضاء هذا النصير النبيل الجديد صدرت رسالة « قول الحق عن المفتي » (The Truth about the Mufti) وذو السماحة، بعد، بعيد عن عرينه، والصيحة في اثره، حيثما حلّ، ساخطة صاخبة . ولا غرو فان هذه الصديقة الكريمة كانت قد دونت رأيها الاعلى في هذا الزعيم الاوحد، وهو بعد ذلك اللاجىء الملجأ عند عدو بلادها، وصبت اللوم على ملجئه ذلك الالجاء تفانياً في حبه لبلاده والذود عن قدسيتها (ص ١٦٥)

وجمعية الصديقة، هذه، هي بالمرة غير الجمعية التي احدثها، بعد حين، الجنرال سبيرس باسم هو بالعربية نفس الاسم : (The Anglo - Arab Friendship Association)
وان يقل حبذا لو تمثل الجنرال بقول الشاعر :

ولكن بكت قبلي فهيج بي البكا بكاها وكان الفضل للمتقدم

فرب قائل : « وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون » وها انهما، اليوم، مكتبان عربيان،

في لندن، باسم واحد

اطلعت على هذه المذكرات، منذ اشهر قلائل وأنا ضيف الصديقة بمسكنها اللندني، وقد أباحته داراً لجمعية الصداقة هذه، فاذا السفر سفو نفيس، على قسمين. تضمن الاول ما عرفته المؤلفة محبباً لفلسطين العربية الى قلوب المتمسكين بالمسيحية القائمة على التوراة والانجيل، عن طريق التمثيل على آيات من اسفار العهدين بلطائف ترويها، ووصف شيق تدبجه، في الكلام على العرب في البلاد المقدسة . وتضمن الثاني ما يفتح عيون بني قومها البريطان على مصير هذه البلاد المكرمة، قلب اقطار العروبة، ان تمادت ضلالة الوطن القومي اليهودي حتى تقوم في فلسطين دولة يهودية تعبث بمعالم المسيحية في عقر دارها، وبمكانة بريطانيا في هذه الدار، وفي جوارها، من ديار الشرق الادنى، قلب عالم ما بعد الحرب الجديد؛ وما الآتي ببعيد

واعجب المؤلفة اعجابي بكتابها، بكل من قسميه، اذ وصفتُه بشهادة شاهد عدل لعرب فلسطين، في غيابهم، في محكمة الرأي العام، وتمنيت لو يظهر بالعربية تنشيطاً للمشهود لهم في جهادهم المستديم . فاغتنمتها، فالزمتنيها امنية منطلقة عن لساني، وعز علي ان لا أنزل عند رغبتها وانا عندها نزيل، فوعدت؛ وكان وعداً مقضياً

وقد تحتم عليّ، ناقلاً، ان اكشف عن حقيقتين اثنتين . الاولى : انني برضى المؤلفة تصرفت في النقل تصرف الايجاز في بعض المواضع، وجعلت فصلاً واحداً من كل فصلين في موضوع واحد، فجاءت الفصول ثلاثة وثلاثين بدلا من اربعين. والثانية : ان ايجازي ظل بعيداً عن إغفال جلائل الاصل، واكثر بعداً عن ادخال اي شيء من عندي سوى بعض العناوين. فالكلام كله كلام المؤلفة، ومنه الكلمات الصادقات في صدر هذه المذكرات

ولان الغرض من اخراج هذه المذكرات بالعربية منحصر في ما تقدم بيانه من تلبية حاجات الجهاد، فلا يقفنّ اهل النظر من ابناء الضاد، عند حظ هذا الكتيب من مظاهر الاخراج، والزمن زمن عسر، قليل اليسر . بل انه، حتى كما هو، لجدير بالظهور، وقضية البلاد في مرحلتها الاخيرة، وقد جد جدها، بتسليم بريطانيا بان انتدابها باطل ومحال، ولم يبق الا ان ترفع راية الاستقلال، والسلام

١٩٤٧/٨/٢٢

وديع البستاني

Digitized by Birzeit University Library

الفصل : ١

من وَطن إلى وطن

مولدي – تحت السقف الوالِديّ – بدء الحكمة – من نادي الاولاد الى البلاد

مولدي

وُلدتُ في مملكة[1] مِكْلَوَرَ ، من أعمال درِ بيشَيَرَ ، في سنة ١٨٧٢ ، وكنتُ فوق صُغرى الثانية من عائلات ثلاثِ لوالدي – تَشَرْلس أدْوَرْد نِيوتُن – مثلَّثِ الزواج ، من زوجته مَارِي هَنْرِيَتَّا مُورْ ؛ وكانت أرلندية ، ابنة الكَبْتن مُور ، من ضبّاط الكتيبة ١٧ ، الذي تُوُفّي في عودة حَملة أفغانستان ، ودُفن في بَندَرِ تُغَر ، بولاية لَكْنَوْ ، بالهند . وكانت جدّتي ، لوالدتي ، الابنةَ الثانيةَ لِجَانَ وأَلِنْ بِلَكِني ، ذَوَي[2] « الجبال » ، في مقاطعة وَتَرْفُرْد ، عُمّرَتْ ، بعد جدّي ، أعواماً ، وتُوُفّيتْ في آخر أيار ، ١٨٦٣ ، ولليوم قبرُها تحت شجرة « لسان العصافير »[3] بساحة كنيسة شَرِنهَامْ العُليا

التقى والداي أوّلاً في أرْلندة . حادثُ قِطار انتهى بوالدي وأُخته الى آل مُور . وعلى الفَور وقعت ماري هنريتّة من قلب والدي موقعاً طيباً ، فطلَبَها لنفسه ، فأَبت ، فتزوّج أنّ رُوزْمُنْد ، وحيدة جَانْ كُورْزُنْ ، من بِرِيدون ، في ١٧ أيار ، ١٨٥٥ ورزق من زواجه الاول هذا خمسة بنين

ماتت زوجة والدي الاولى في ١٨٦٤ ، فانطلق في طلَب محبوبته الأولى – ماري مور .

(١) المملكة هنا من المِلك (بكسر الميم) من مفردات الاقطاع (٢) « ذَوَي الجبال » اي صاحبي الجبال ، وهذا ايضاً من مفردات الاقطاع (٣) الاسم العربي بمعجم بدجر للشجرة المسمّاة

Digitized by Birzeit University Library

وكانت آنذاك ، في انكلترة ، عند عقيلة مُورتمَر ، في « النَّهير[1] » ، في رَنْتون الغربيَّة ، من أعمال نُورفُوك ، وقد صحبَت والدتها الى حيث كان خالي – لِبردج مُور – راعيَ شرنهام ، عدةَ سنين . وكانت شرنهام ، يومذاك ، قرية صيَّادين[2] ، لا فُندق فيها ، ولا معبد يصحّ ان يقال له « كنيسة . » وخُصّ للعبادة فيها بناء ، هو اليوم دُكّانٌ عسكري[3]

وامتازت مضيفة والدتي وجدتي – عقيلة مُورتمَر – بشخصيَّة مرموقة ، وشدة في انجيليتها ، تبلغ أثرهما في نفس ضيفتها الفتاة ، ماري مور . وهي الشهيرة آثارها في التورانيّات[4] ، ومنها « طلعة النهار[5] » و « ملوك اسرائيل ويهوذا » وغيرهما مما وضعته باسلوب شائق الاحداث

تحت السقف الوالدي

وكان من اثر الكاتبة التورانية الانجيلية في سيرة والدتي ان اخذتنا بمزيد الشدة في السلوك . فكنا في الريف ، في قلب بَرّ القُرن[6] ، موطن الصيد الاشهر ، وعندنا ، من الخيل ، كبيرها وصغيرها ، تمر بنا حملات الصيادين ، فما يسمح لنا بشهودها . واذا شهدنا حفلة من الحفلات ، كان لزاماً علينا ان نخرج قبل ان يدور الرقص . اما اللعب – بالورق – فكان حراماً . كذلك كان الاسر[7] في تنشئتنا ، تقييداً وتضييقاً ، بلوناهما من نعومة الاظفار . وكنت فوق الخمسين – أول عهدي بمسرح – يوم شهدت مسرحية « الفتى المفتون » والى جانبي رفيقة تشرح لي المشاهد ، حتى اذا حضرت « قبلة لِيندَرلا » حسبتها بهجة

ولتاديبنا فضلت مؤدبة بين بين ، طليانية ألمانية ، كثلوكية الاصل ، تحسن لغتي ابيها وامها ، وفضلاً عنها الفرنسية ، وما تكاد تفقه غير ذلك شيئاً . ذلك ان والدتي كانت ترى الالسنة اجدر بالتعلم من صرف الانكليزية ونحوها وآدابها ، وأولى من دروس التاريخ ، والموسيقى ، والحساب . ومن ثمة ، كان مبلغ علمي بالتاريخ ان اعد ملوك انكلترة ، من وليم الفاتح حتى

(١) تعريب العلم : The Rivulet (٢) سر المؤلفة هذا الذكر للقرية لما به من الايماء الى الحواريين ، اي تلاميذ المسيح ، اذ كان بعضهم من الصيادين ؛ وهي « المبشرة » قبل ان تصبح « المجاهدة » (٣) وراقها هذا الذكر ، توطئة لمواقفها الجريئة في انتقاد الجنود البريطان وغلظتهم في معاملة عرب فلسطين ، إبان ثورتهم الكبرى ، خلافاً لما قوبل به الارهاب اليهودي من تؤدة وحلم واستخذاء (٤) خصت « التوراة » ، أصلاً ، باسفار « العهد القديم » تمييزاً عن « الجديد » وقوامه الاناجيل والرسائل (٥) تعريب اسم المولف ، كتعريب اسم المكان (بالحاشية الاولى) أجدر بالاسلوب المتبع في نقل هذا الاثر لصديقة العرب (٦) فسر المعرب هذا العلم لمكان بقوله : موطن الصيد الاشهر : وقد سمع من المؤلفة وصفاً مفصلاً لصيد البر هذا ، من ثعالب وأرانب (٧) الاسر هنا التشدد والتضييق ، تقيداً بالدين او التقليد

الملكة فكتوريا ، وان أسمي زوجة كل ملك . اما الحساب ، فوقفت منه عند حد تحويل البنسات الى ليرات ، ولليوم تعجزني الكسور . وبعناية رحمانية ادركتني ، فيما بعد ، في عهد التبشير ، كنت أغالب كسر الكسر في الحوالة اقبضها من امين الصندوق فرنكات فرنسية ، فتصرف لي غروشاً تركية ، بباراتها ، ثم اقيدها عملة انكليزية

بدء الحكمة

وكان الكتاب المقدس دستورنا في المعيشة البيتية ، يتقدمنا الوالد في الصلاة ، كل صباح ، امة لوحدها ، من والدين ، وبنين ، وحشم ، وخدم ، على رأسهم العشي ، وآخرهم السفرتي[1] ، اذا دخل رد الباب ، ففتح الكتاب

واذا تغدينا ، فنحن ، ومعنا الضيوف ، في الردهة ،[2] نستمع لقراءة من التوراة ، ولمثائل تقوم بها الوالدة . وان أنس ، لا أنس محنة اثقلت احدانا ، وقد أعياها ان تفتح الآية . وكانت زوجة أخي ، فكانت تتمتمها ، وتميل الي بهمس متقطع التياعاً : « ما لهذه الآية في توراتي من ورود »

وكانت والدتي قديسة ، بادية الصلاح ، عظيمة الحرمة ، موفورة المحبة ، مصونة الكرامة ، مرعية الجانب بين الأهالي ؛ تتفقد المساكين ، وتعود المرضى ، يوماً على يوم ، لا يعوقها عائق . فما خلا البيت يوماً من الحساء[3] ، او الدواء ، لمن أراد . وخص يوم الاثنين لاجتماع الامهات ، يعقد في الديوان ، وكان غرفة خاصة للقهوة ، ابتناها والدي ، وجهزها بما يلزم . ومن ذلك الاجتماع ، كانت النقلة الى ندوة التوفير ، وهذه حجرة كبيرة ، في اعلى الدار ، كانت بمثابة « كشكول » يحوي من الفانلّة ، وسائر الاقمشة ، اشكالا والوانا ، يجلبها والدي من لندن ، لتباع بكلفتها ، او دونها ، لرواد الندوة والديوان

وكنا لوالدتي بنات اربعاً ، تنتدب احدانا لامر الندوة او الديوان ، كلما انتابها هي صداع كان يعاودها . فما ناهزت الـ ١٣ الا وقد ألفت تدبر الامرين ، يوم الاثنين

اما والدي فكان يتعهد اراضيه الواسعة بتجويد زراعتها ، وتحسين ادواتها ، واساليبها وكان أول من دعا الى المحراث البخاري ، بدلا من الفدان وسكته ، فأراح خيله . فالى جانب الاصطبل ، قام مخزن المحاريث الميكانيكية ، وعلى مقربة منها محددة ، سميناها « مغارة اكي »

(١) السفرة فصيحة ، فما أجدرها بالتحرر من أداة النسبة التركية التي في « سفرجي » (٢) غرفة الاستقبال (٣) الشوربا ، وهو طعام جامع للمغذيات قليل الكلفة يعول عليه في عون الفقراء

Digitized by Birzeit University Library

حومت علينا ، فطاب لنا الاحتيال للاختلاف اليها ، دأب الصغار في كل دار

وكانت للحداد – أكي – مكانة عزيزة ، ولا سيما عندي ، لما كان يتيحه لي من النفخ لكوره ، والتطريق على سندانه ، حتى اذا أخرجت نعل فرس ، سره صنعي ، وسرني رضاه . وكان أكي ، الطيب الذكر ، عوناً لنا على المؤدبة ، يدخلنا ، ويرصد لنا في الخارج ، فاذا اقبلت خف يرفعنا بذراعيه من فوق الحائط الخلفي ، فاذا نحن في حوش الكنيسة ، ومن بابه اذ سرابنا الى حديقتنا ، كأن لم يكن شيء مما كان

وعن والدي أخذت حب الاشجار . فانه كان يستصحبني ، كلما خرج ، بعد الشاي ، الى اغراسه ، ويعلمني فن التهذيب والتشذيب ، واساليب العناية بصغار الشجر . وما زلت أحسب الهناءة في ايتاء الفروع والاغصان قسطها من هندمة وتقليم ، تيسيراً لنمو الامهات نمواً شريفاً . وما طابت لي ملهاة ، على جبل الكرمل كاقتطاع النواتىء العابثة ببواسق الصنوبر ، حول داري ، المشرفة على الخليج

ومن الصغر ولوعي بالاداة ، من مثل مطرقة او مقراضين ، او منشار ، الا الابرة ، تنكرت لها ، وتنكرت لي ، وما زلت انكرها ، وتنكرني . وجاءت ايام حمدت فيها انصرافي في حداثتي الى الاخذ عن ساعاتي ماهر ، كنت اتردد الى محله ، في دربي ، حتى حذقت تصليح الساعات . تلك ايام خدمتي في الجليل ، تقف ساعة المدرسة ، او يختل سيرها ، فتصحبني في الخرج ، فوق السرج ، من القرية الى المقر ، فأعيدها سيرتها . ذلك كله من فضل اصطيافي ، مرة ، في دَرْبي

ولما قاربت الـ ١٦ ، فاتحت والدي في دخول الكلية ، وكان لا يؤمن في العلوم العالية للبنات . وتمادى اصراري ، وبرم بالحاحي ، ففاجأني يوماً ببشرى تقييدي لامتحان الانتساب لكلية وستفلد ، بعد ايام قلائل . وتقدمت ، فأجدت في الجغرافية ، وفي الكتاب (من توراة واناجيل) . اما في الحساب ، فما كنت الا صفراً . وعجب الممتحنون ، ولم أعجب أنا . وتتمة الخبر ، انني بعدما قضيت سنوات في فلسطين ، عدت فانتسبت الى كلية وستفلد ، طالبة خارجية ، في الدائرة اللاهوتية . وكانت معرفتي بالعربية ، على قلتها ، مفخرةً أُدِلّ بها على رفاق اصغر سناً فقضيت أمد التحصيل بهناء وسلام

وكانت محاضرات الانسة كُنْسْتَنْس مَنيَرْد قيمة ، شائقة ، لما أوتيته من المقدرة والبراعة في اخراج العلمات والروحيات مخارج التوفيق بين المادية واللاهوتية من الحقائق . وخرجت من ذلك المعهد بعلم باليونانية يكفيني لقراءة « العهد الجديد » بلغته الاصلية

من نادي الاولاد الى «البلاد»

ومن ذكريات عهدي بمَكْلَوَر ، وديوان القهوة ، نادٍ أحدثته لفتية القرية ، في سبيل الخدمة الاجتماعية ، أصاب نجاحاً باهراً . كنت اشرف عليه ، وأدع الفتيان وشأنهم ، يتلهون بالشطرنج وغيره من الالعاب . وما عتّموا ان اقتنوا الآلات الموسيقية ، فجئتهم بمعلم يعلمهم العزف وأصوله . وكان لهم عجيج وضجيج ، على انهم كانوا بذلك فرحين ، وكفى

وانتاب الطمأنينة المنزلية ما ينتاب المنازل وأهلها ، فاذا النادي مقضيّ عليه لاعتزام والدي الاشتاء في الخارج . وأسيت لمصيره أسىً لطّفه الازماع الى يافا . فان اختين لأبي ، كانتا قد عادتا من فلسطين ، في الصيف ، واقترحت ايدث منهما ان تعيدني معها الى بلاد كنت ، من قبل ، قد عرفتها ، وأحببتها . وفي اسبوعين اثنين ، تأهبنا ، وركبنا

كذلك كان مبدأ سنيّ الخمسين ، في فلسطين ، وطني الثاني

Digitized by Birzeit University Library

الفصل : ٢

أسفار في الاقطار

يافا في تلك الايام – بيتي العربي الاول – منشأ المستشفى الانكليزي – الى القدس الشريف – رحلة بالخيام – المدينة الخبيثة تحت الارض – جرش وعمان – الجبل المتوحد

يافا في تلك الايام

في ميناء الاسكندرية ، انتقلنا ، أنا واختي ، الى باخرة روسية صغرى ، وصلت بنا مرسى يافا ، صباح يوم سعيد ، وقد سكن البحر ، بعد اضطراب رافقنا من مرسيليا وغادرني طريحة في مضجعي . فما كدت انهض ، فألتفع بستر ، وأجعل شعري كومة تحت القبعة ، حتى ارتميت ، عيًا ، أتريث عون معين

رسا البابور[1] ، واعتلى المأمور ، وزعق الزمور ، فأقبل الملاحون بزوارقهم ، وتعالى الصياح ، هوسة متزاحمين على الرزق ، وهوشة معجلين يتسابقون الى بر دنا من بعد . وبين الكثير من : « يا ابن الكلب ، و « لعن ابوك » و « اياك البرنيطة » ، جذف البحارة وجدفوا ، بين صخر وصخر ، الى حظيرة المكوس والرسوم ، بأمان الله وحفظه . فاذا الباخرة بسلام ، والدور دور الاختين . ملاح عربي مليح – زانت صدره الاوسمة – نِدًّ ما نجّى من غرق – تناولني بلباقة الشهم العربي ، وخف بي – وما خف وزني – انحداراً على سلم السفينة حتى زورقه ، وكان الاخير بجانبها

(١) في تلك الايام كان الاغتراب الى اميركا وغيرها من ديار المهجر في إبانه و « البابور » تصحيف اللفظ الاعجمي على كل لسان ، وقد حل محله معربه ، وهو الباخرة . وكان البحارة على جانب من « الاستبداد » و « الاستهتار » ، على ان المؤلفة إنما تذكر الحسنى

ورسا الزورق عند الرصيف . ودون الدار ميلان ، فكيف السبيل ، وانا بعد ، من عياء البحر ، لا أقوى على مشيء ولا ركوب ؟ جيء بكرسيّ مَدّاد ، وستة من الشيالين شداد ، فاذا بي فوق المناكب . واختاروا من الطرق اقربها ، واحتالوا لمشقة الحمل صعداً ، بحط المحمل للراحة قبل التعب . ومرة حطوا ، وقد علتني مشافر الجمال البارکة تجتر ، فما صرخت ذعراً ، الا ليضحكوا سخراً

وقبل أختي ، وصلت دارها ، وحللت ايوانها ، ألقى من النسمات أرطبها ، ومن التحيات اطيبها . تلك « عدلا » ، العربية الصبوح وجهها ، تؤهل وتسهل ، ترحاباً ، وبيدها فنجان الشاي

بيتي العربي الاول

اختي – ايدث – هذه ، كانت قد انتظمت في سلك « جمعية الكنيسة التبشيرية[1] » منذ ١٨٨٦ ، وانا ، على نقص في السن ، عُرفت لي مكانة في تلك الجمعية ، في سنة ١٨٨٩ ، بفضل قرار صدر عن اجتماع الوداع عقدته اللجنة ، جعلني معاونة لاختي ، لا أكثر

وفي الحال عاهدت الحياة في فلسطين على الغبطة والابتهاج . وكان بيت أختي بيتاً عربياً قحاً : ردهة ، لاستقبال الضيوف ، وخمس حجر تفتح على الردهة ، وقد أحدقت به حديقة ، لا بأس بها . وكفانا مؤونات التدبير المنزلي ، خادم عربي وزوجته ، وآخر للخيل وسياستها

وكنت اصحب اختي اذا ركبت لتعهد المدارس المنوطة بها في اللد والرملة ، وطريقنا بين البساتين ، واذا ركبت للنزهة على الشاطىء ، عبر « ميدان غردون[2] » ، جنوباً ، او شمالا ، على كثبان الرمل ، حيث قامت اليوم « تل ابيب » – المدينة اليهودية كلها

وكان فرسي العربي الكريم ، فحلًا ارنا ، صعباً مراسه ، لا يركبه غيري ، سميته « دند » . وكان يعجبه ان يعض على الشكيمة ، وينطلق بي ، طيراناً ، ميلًا على ميل ، لا يبالي الرمل ، يغرق فيه حافره ، فما يهدأ طائره الا وقد عبيّ ، وعييت . وكانت صهوة دند المرح ، عنوان مرحي الخالص البريء ، وبشراي بسدة السيارة ، ومديد اسفارها ، في ايام تجيء

منشأ المستشفى الانكليزي

وقبل ذاك بسنين ، من عقد السبعين ، كانت اختنا كُنستنس قد اتخذت يافا مقاماً . فهذه ،

(١) هذا الكتاب قسمان ، بأصله ، أولهما ، وجله اجتماعي اكثر مما هو تبشيري في مباحثه ، مقدمة للثاني الطافح الفياض نصرةً لعرب فلسطين (٢) المقصود « الجنرال غوردون باشا » الذي اقام ببلغا قبل ان اشتهر في حرب السودان

Digitized by Birzeit University Library

وصديقتها ، بَتِي مَنغَن ، تخرجتا من معهد مَلدَماي[1] في « خدمة الانسانية » ، ومعاً انشأتا مستوصفاً في احد البيوت ، بطبيب عربي ، اسمه قيصر غُرَيِّب ، كان النواة الصالحة لمستشفى ، عرف فيما بعد بالانكليزي ، جعلته اختي وقفاً للجمعية الآنف ذكرها ، لقيامه بمال جاء معظمه على يد بيتنا ، كبيره والصغير . وكنت ، وانا دون الـ ٢٠ ، كالرقيق في مركب القرصان ، كدحاً وكداً في سبيل سوقه . وما كان لي في شغل الابرة يد ، ولا في الرسم والتصوير ، فكنت ارضى بشقاء الدهان[2] ، على قطع الانابيب والمواسير ، لتصلح وقافات للمظلات والشماسي ، او على قماش الطشوت ، للمغاسل في المنازل ، مما درج ، ذلك الزمن ، لا عادت ايامه

وللبوم بالكرامة ذكرى أختي وليّة المستشفيات ، هذه ، في جنوبي فلسطين . توفاها البسه ربها في ١٩٠٦ . وبها استعان والدنا في انشاء مستشفى بكِرِنية ، في قبرس ، بناه على ارض تملكها لاجله ، وكان قد دعاه الى هذا الاحداث الاخر انكليزي من اهل الجزيرة ، يقال له هُبسْتُون ، عرفه في احدى سفراته في شؤون الاثر اليافاوي

الى القدس الشريف

من يافا الى القدس ، اليوم ، ساعة ونصف ؛ في ازاء يوم ونصف غدِه ، في تلك الايام . وكان السفر على الخيل ، فنصف النهار الى الرملة ، وفيها نقضي الليل ، بنُزُل الماني صغير ، ودون المحجّة سحابة الغد بطوله . وما مُدَّ الخطُّ الحديدي الا بعد تعبيد الطريق للمركبات بعد يد السنوات ، وكان العهد قبلها لدروب الجمال التورانيّة وعهودها

وفي ذلك الزمن ، كانت السفرة رحلة ، بل مغامرة يقعد لها ويقام . وذات سنة كنا ثمانية[3] في يافا . وخطر لي يوماً ، ونحن في القدس ، ان انزل بأختيّ — ماري ومرغريت — الى اريحا ، تحت سطح البحر ، وكان قائظاً ، وقد هبّت الشرقيّة ، فما بلغت بها النُزُل الّا وهما اشدّ ما يكون الاعياء تعباً ، حتى اذا سرى النسيم ، عشاء ، وعرضت عليهما زيارة البحر الميت ، ونهر الاردن ، اكتفتا بنظرة الى البحر ، من الشرفة ، وغنيتا عن النهر بالكلية

وبعد العشية ، تجددت الجلبة ، ايذاناً بقدوم غيرنا ؛ وكان القادم المبشر المستر فردر ، ونفر[4] معه ، من الكرك (عبر الاردن) ووجهته القدس الشريف ، ليبرق الى انكلتره نعي زوجته

(١) معهد في شمالي لندن للتخريج في الشؤون الاجتماعية (٢) تعترف صديقتنا بقصر الباع في الجميل من الصناعات مما يتباهى به ؛ وكأنما فطرت على « حب الخدمة » ونعمت (٣) اي ثمانية من بيت المؤلفة ، وقد تقدم ذكر بعضهم (٤) لقلة الامن ، ومصاعب السفر ، في ذلك الزمن ، كان الاجانب يستصحبون من يحميهم ويعينهم . ولكن المؤلفة تحمد « أمان ذلك الزمن » ولابدع فالإنكليز اليوم يخطفون ، ويجلدون ، ويقتلون ، وقد حشد الرجال في « منطقة أمن » ، واخرجت النساء . وقد طما « الارهاب اليهودي » وتمادى

سألت المبشر الحزين أن نسير في ركابه ، اذا سرى ، هروباً من حر الغد ؛ فما اعتذر ؛ وقام وقنا ، على الاثر ، نتخبط تخبط العشواء ، بين صخور المسارب ، حتى ادركنا سليماً ، سلم من السالب ، واذا بالرصاص يثز فوق رؤوسنا ، والى جانبي مسلّح من عصبة المبشر ، يقول : « أأجاوب ؟ » وكان ردي : أن لا تدل الي بنارك . وعلى ضياء النجوم لمحنا اشباح قطاع الطريق ، وما باحد منا لطائشة اذى ؛ وكأنهم شعروا اننا بريطان ؛ فنعمنا بأمان ذلك الزمان ، حتى في ذلك المكان

وفي تلك الايام ، والحكم حكم الاتراك ، والاعراب ، كنا اوفر امناً وسلامة منا في عهد الانتداب . يومذاك كانت قبعة الفرنجي[1] ترساً ومجناً

رحلة بالخيام

وقبل ان ابدل من يديّ الطليقتين في امري جناحي المبشرة الكاملة الصالحة للسماء ، كنت اغتنمها فرصاً للتطواف في الدنيا وبلدانها . فقبلت دعوة جاءتني من صديق رحالة ، قدم ليزور بلاد الدروز ، ومعه زوجته وابنتها ، لرحلة شهر في الخيام ؛ وخصني والابنة بخيمة : وقنا من بيروت ؛ وبتنا في صرفة ، رحلة اولى ؛ وصرفة بلدة قديمة سورية — فينيقية ، ساحلية

وبعد العشاء ، شرع الصديق — المستر آرثر ستون — يقرأ من التوراة ذكر المكان وزمانه ويتحفنا بقتطفات من كتاب السير جورج آدم سمث في « جغرافية البلاد المقدسة التاريخية »[2] . وكنا نصغي ، وفوقنا النجوم ، فما نتمالك هزة ، رجت حتى الصميم المرأة القائلة : « نعم يا سيد . والكلاب ايضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين » (مرقس ، ٢٨/٧)

وعلى نغمات الامواج الرخيمة ، نمت ، وبي من التوق الى بلاد عبر الاردن[3] المجهولة أحلام لا تنام . وباكراً في الغداة ، قوضت الخيام ، وزمت الاحمال ، فغادرنا وادي الليطاني ، واجتزنا من « بلاد البشارة » حتى قرية تبنين . ماسيناها

وكان من عادة الصديق الرحالة ان يزور المأمور التركي ، حيثما حل ؛ وبتبنين يومذاك قائمقام ، كان عليّ المقام ، فحط من علٍ ، وابعد الى هذا المنعزل ، تغريباً وتعذيباً ، بمشيئة مولاه الامبراطوري[4] ،

(١) كانت قبعة الانكليزي تحميه ، واليوم ، وقد تقدّم وصف الحال ، بالحاشية السابقة لابكاد يحمي الانكليزي بفلسطين جيش بريطاني لجب (٢) لعلّه أجلّ كتاب في موضوعه ، وقد اعتمدت عليه المؤلفة في مواضع عديدة (٣) عبر الاردن اسم قديم لما هو اليوم « شرقي الاردن » — مملكة الاردن — او نحوها . و « بلاد البشارة » الاسم الوارد بالأصل يصح على ما هو اليوم من قضاء صفد او قضاء طبرية او من جبل عامل . ولعله أثرٌ لبدء « البشارة » بالانجيل الكريم في هذه الديار العزيزة (٤) ميز السلطان العثماني بهذا الوصف لما كان في حكمة وسيادة الاسمى من إمارات مستقلة

Digitized by Birzeit University Library

السلطان عبد الحميد، كفارة عن زلة زلها

واستقبلنا القائمقام في غرفة حقيرة، ما بها من الاثاث الا ديوان رث بال، وقد لبى الجيران بالكفاية من الكراسي . وكان جالساً خلف منضدة، غشيتها اوراق مبعثرة؛ فما قام، ولا اختلج. وخشي ان يتهم في ادبه، او خلقه، فانصرف الى الترجمان — موسى — وافضى اليه بالعلة؛ وكانت داء الباسور وما سهل على موسى ان ينقل عبارات الاعتذار بصورة انيقة . وكان رد قيدومنا، الناطق بلساننا اشد وانكى . وانما عرف السبب، فزال العجب؛ وعاودنا الاطمئنان؛ وما قصر الترجمان

وامضينا الاحد في صفد، البلدة اليهودية القديمة المعنية بالآية : « لا يمكن ان تخفى مدينة مبنية على جبل [1] (متى، ١٤/٥) ثم انحدرنا الى « بحر الجليل » [2]، مروراً بطبرية، وخيمنا بوادي اليرموك، بين ينابيع الحمة، المتدفقة بجانب النهر دون قرنته بالاردن، وقد عبق الجو بالابخرة الكبريتية . وفي هذا الغور تمر السكة الحديد الى درعا، بانفاقها السبعة، وجسورها الخمسة عشر، تذكر راكب القطار بالسكك الجبلية في الديار السويسرية

وهذه الينابيع المعدنية، الاشبه، اليوم، بمثل سبا من المصاح الاوروبية، كانت يومذاك بؤرة من الوبك، ازرقت امواهها، وطفت عليها القصباء والحلفاء. وما هب ودب من ايك وعيك. وهي ينابيع عدة، باردة، وحارة، واحر، بعضها يغلي فيقلي؛ وعلى تجاورها، تباينت خواصها ومزاياها، ومنافعها، دلالة على استقلال كل نبع باصله تحت الثرى . وقد الفها العرب، وعرفوها، عيناً، عيناً : فتلك للامراض الجلدية، وهاتيك للادواء العصبية، واخرى للحبل، اي للعون على احداثه

وربما كان لنعمة الشفاء بهذه الينابيع أثر في تقاطر المرضى الى مواطن سيدنا في هذه الديار من جليل الأمم. [3] اما نحن، وما بأحد منا حاجة الى بُرء من داء، فغدونا نصابح « مُقَيس » المحمولة على جناح التل الشامخ فوق النهر. ومن زاوية في المسرح الرّوماني المدرّج، ترامت ابصارنا الحائرة شمالا تغرورق في امجاد بحيرة الجليل، ثم ترتد مصعّدة في جلال جبل حرمون، الجبل الشيخ، في عرف العرب، وقد اشتعل راسه، بالثلج، شيباً

(١) كذا في الطبعة اليسوعية ، وفي « البريطانية » تخفى » في محل « تخفى » وموضوعة » في محل « مبنية » . وكان بود المعرّب ان يأخذ عن اليسوعية لان عبارتها العربية أرشق، ولكن المؤلفة لم تألفها فعوّلنا على الطبعة الاميركانية الاسبق إخراجاً ، وكانت المؤلفة لا تعرف غيرها في الزمن المعني بالبحث.

(٢) بحيرة طبرية (٣) الجليل لفظ سامي قديم مفاده الاستدارة ، ومنه « الجلجل » العربية اريد به قديما « الدائرة »، وعاميتها « الدبرة » ، ويقابلها « القضاء » من المصطلحات العصرية . وكان اليهود يقولون « جليل الأمم » عن جليل الناصرة المكرمة ، إذا كانوا يعتدون بأنهم « شعب الله الخاص و « أمته » ففيرهم « الأمم » . واليوم « الجليل » باداة التعريف ذلك القضاء الناصري بعينه

ومن جثم على الحجر الروماني المبترد، وامعن في التأمل، فتراءت له مشاهد عهدها « الكائن »[1] العظيم في يومه، وعهدت برّه واحسانه، في داره وجواره، هلع وانخلع قلبه رعدة من برودة الموت في نصرانية هذه الايام

وامتطينا الركائب حتى « بيت الراس » [2] وقد صارت الى قرية، تلك الحاضرة العاصمة اليونانية — الرومانية، احدى المدائن العشر، في يومها من الزمان؛ وما انكرها المكان، فأدام رفعتها على صعيد جلعاد. ومن إشرافها، ارسلنا رائد الطرف الى المدينة الخبيئة، ووالينا الوجوه شطر درعا — وهي « إدرَعي » في التوراة — (عدد، ٣٣/٢١) عاصمة عوج ملك باشان. ودرعا اليوم، مفرق الطرق، وملتقى الخطوط، ومنتهى السكة من حيفا؛ فيها يوجه المسافر، شمالا الى دمشق، او جنوباً، الى عمان عاصمة الامارة الاردنية، او الى معان، ان كان يريد البتراء. وكان القطار يجتازها الى المدينة المنوّرة في الحجاز؛ ذلك قبل الحرب، فانحجز [3]

المدينة الخبيئة تحت الارض

وفي درعا، لقينا من الترحاب وسلام الاحباب ما الفناه في كل باب، من مكارم اخلاق المأمور التركي؛ ولقينا، بعد كل ذلك، خيبةَ الأمل، وفشل الفاشل. طلبنا تيسير امرنا من بلاد الدروز، وما هو الا زيارة بصري وصلخد، فأشكل، وتعقّد؛ اذ قال الحاكم لموسى : « قل للُورد [4] بكلام من فضة عن شفاهٍ من ذهب « انني اموت ان امنع توجه شرقاً ». وجعل المانع احتراباً جاءت به اخبار، وما كان، عند الحقيقة، الا الخوف ان تقوي زيارة السيد الانكليزي ما كان للنفوذ البريطاني السياسي من نفاذ بين ظهراني الدروز الأشداء البواسل

وكان من تودد الحاكم وتحببه الينا، تلطيفاً وتمويهاً، أن منحنا الاذن لدخول مدينة التيه، الخبيئة، تحت درعا. وكانت قد اوصدت مداخلها، لكثرة من دخلها، فما فاز بخروج. وما كانت مدينة التيه لنا في بال

اما الظاهر من بيوتها، فمن الرخام الاسود؛ ويا للوحشة الرهيبة. وبينها وبين المحطة قدر ميل، ودونها واد، في احدى عدوتيه فُوَهة، كفم كهف على شاطىء . والى ذلك الوادي انطلقت

(١) الكائن العظيم السيد المسيح الناصري ، والجليل موطنه وداره ، ولو ان النصرانية قد بردت حميتها ، كما تقول المؤلفة صديقة هذا الوطن العزيز (٢) تعريب الاسم الاعجمي « كيبتوليس » نقلًا عن المؤلفة اذ سالتها عنه ، وبه تعرف البلدة اليوم (٣) والآن يؤمل عود هذه السكة الى شأنها من التقريب بين الأقطار العربية (٤) بهذا اللقب كان يعرف الانكليزي الخطير الشأن ، ولو لم يكن يحمله رسمياً . وكان ذلك شبيها بتعاظم الانكليزي اذا برح شواطىء بلاده

Digitized by Birzeit University Library

بنا ثُلّة من الحوارنة، مناطقهم خناجر، وحمائلهم ذخائر، ومناكبهم بنادق، سُمر الوجوه، طوال الشعور، وقد عقدوا الجدايل تحت الذقون. وقد انسنا في مظهرهم الوحشي فضل العزيمة المعقودة على التلطف والترؤف في تطويفنا، حتى اذا دخلنا كنا من الخارجين

وما جئنا الفوهة الفاغرة، حتى اختفى احدهم، وهتف بي آخر: « انبطحي، على بطنك، واسقطي سقوطاً ». وفعلت، وعاد الهاتف يقول: « لا تخافي، هو يتلقاك»، وفعل، وكان المختفي. وبلباقة كان يجتريء اجتراراً يعين زلقي الخداراً، وقد سبقت اقدماي يديّ، وعيني، جميعاً

واول ما عجبني بياض الحجارة الناصع، نحتاً في صخر كلسي، في مقابلة السواد الابنوسيّ الذي عرفناه لما فوق الارض من هذه المدينة الغابرة. وبعد ساعة من التجوال في شوارع بيضاء كاللبن، تتخللها طاقات مربعة، ابوابا للدكاكين البائدة، وصفوف من الحجر المتداخلة، شعر السيد ستون وعقيلته بفساد في الهواء المحصور، وهمّا بالعود الى الهواء الطلق. وانا وابنتهما، مرجوري، استأذنا بالاستزادة، فبقينا، وبقي معنا من الحرس اثنان، وموسى الترجمان

وكانت غايتنا القصوى ان نتغلغل في مجاهل مغارة هولة، قيل « يرمي فيها الخيّال العربي رمحه فما يدرك مداها، وارتفع سقفها فما يتحققه النظر ». وتبصرنا في الامر، ثم حاولناه تجربة بموسى. ادخلناه، فما كدنا نخرجه، لعظم في جثته، وضيق في المدخل، فقنعنا بسلامته، وعدنا الى ظهر الارض، وبنا من غرابة المشاهد دهشات

اما اصل هذ الحاضرة المغيبة في جوف الارض، فما زال سراً مصوناً. وزعموا انها احتفرت مأمناً، عند الغزو، وانه كان لها منافذ للهواء، وموارد مياه، لتصلح مأوى لامة بأسرها

وحدثني عاديّ[1] جريء، جاهد، فدخل، ومن بعيد لاحت له كتابة على الحائط، حسبها تكشف له عن السر، فهرول، وبيده آخر شمعة، ليحل الرمز، قال: قرات الكتابة اليونانية، وتأويلها: « عمت مساء يا سيليا»

جرش وعمان

سدّ في وجهنا الباب الشرقي الى موطن الدروز، فاندرنا جنوباً، وضربنا الخيام في جرش، الشهيرة في المدائن العشر. وكثيراً ما وصفت جرش الالسنة والاقلام، فما اقول الا اننا بتنا ليلتين في طولها، وانها اصدق مثال لمدينة يونانية — رومانية

ومن جرش ركبنا الى عمان فبلادلفية اليونان، في سالف الزمان، وعاصمة شرقي الاردن الآن

(١) العادي العالم بالاثار القديمة، المقول لها « العاديات » نسبة الى « عاد » القبيلة البائدة

وبها قصر حاكمها الامير عبدالله

وما كانت عمان، اذ جئناها، في سنة ١٩٠٠، الا قرية شرقية قذرة مذرة، بشارع واحد، بمخازنه وحوانيته شراكسة، حذقوا صناعة الميناء، حفراً في الفضة، واشتهروا بالبأس، وشدة المراس. وكانت هجرتهم الى هذه البقعة، ليعمروها، ارادة سنية عنت للسلطان عبد الحميد، وقد ارادهم ان يكثروا ليقفوا في وجه البدو الرّحل، فيسلم الحضر

نصبت خيامنا في مُهد لدى المسرح المدرّج، الماثل بجلال القدم. وعلى ذلك المهد شيّد، فيما بعد، فندق عمان باسمها الاسبق وبتنا ليلتنا على سفر ازمعناه، فبكرنا للفطور، ومدت السفرة، ولبثنا ننتظر الابوين، وطال الانتظار، حتى اتيح الانتصار، للوجود على العدم، والهدى على الضلال. اقبل موسى وبيده خاتم السيدة الوالدة، ومقص صغير اصبح وهو يحصد به الحشيش والهشيم حتى لمع له الحلي الثمين، وكانت بسلامتها قد نزعته، وسجدت للصلاة، عندما عادت من زيارة قامت بها لحرم كبير من اهل المكان

وعن العامود المكسور من اعمدة هذا الاثر السالم من عبث الجوار، قيل « جنى عليه مدفع تركي نصب عى رأسه، قبل المدفع الانكليزي الذي حطمه »

وعن السفح وراء الفندق، قيل: هو حيث امر داود، الملك، اوريا الحثّيّ، زوج المليحة، ان يقوم في مقدمة الجيش، ليلقى حتفه. وهي الحادثة التي بها نزلت الآية ٤ من المزمور ٥١ « اليك وحدك اخطأت. والشرّ قدّام عينيك صنعتُ »

الجبل المتوعد

والليلة التالية بتناها على قمة الجبل الحزين، جبل نَبا، بعد مشاق نهار طويل من السفر وعثائه. هناك تصوّر لنا الهُمام المقدامُ العجيبُ امره .. موسى ... تفقّه في علوم العصور، فهجر أبهة القصور. ولبّى دعوة العليّ. فرضيَ لنفسه خيمة البَدويّ، وشقاء البادية، ليقود امّة تشكو، ولا تشكر، وتُرضى، ولا ترضى .. سجيّتها الملازمة لها من يومه معها، ذاك، حتى يومها معنا، هذا

على طور سيناء، تجلى لموسى النور والسناء، فما برىء من الداء العياء، فمات ميتة الضعفاء، وما بعد العُنف من ضَعف! هنا، في هذا المكان، او في جواره، تحطّمت آمال كبار تحمّلها لغده، هو حطّمها بيده. ضاق صدراً بتذمّر شعبه، وقد ذهب صبره، فما وجد كلمة رقيقة يخاطب بها صفاة صقلها الماء، وودع تحتها، فقرع بعصاه قرعاً، ليصدع صدعاً. وما كان ذلك بقليل، بل الكبيرة في الكبائر. بالعنف من ذات نفسه فجر الماء على عيون قومه، عسى ان يحسبوه هو «الكلمة»...

Digitized by Birzeit University Library

فحق عليه الوعد، ان لا يدخل هو ارض الميعاد؛ ومات على جبل نبا . وناح عليه قومه، على «عيون موسى»، اربعين يوماً

غاديت الغداة، وبخلدي تلك الروح الحائرة، روح قائد زعيم، صاحب العناء، ورافق الشقاء، حياته وعمره، بطولها، وما بنفسه الا ان يؤم قومه في ارض الميعاد، عبر الاردن، فما يصلها . سميت ذلك كله : الحيبة : ومرارة ترك المرء عمل يده، ليتمه غيره في غده، من معانيها. « قال الرب : « قد اريتك اياها بعينك، ولكنك الى هناك لا تعبر . . . فمات هناك موسى . . . ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم » (تثنية، ٣٤/٤ – ٦)

« اكرم القبور، عند الله، قبر لا يعرفه الناس » – كذلك قال العلماء العرب، من زمن، لما عارضوا في اقامة قبة ومشهد حيث دفن عظيم من عظمائهم

وعبرنا نحن ؛ واجتزنا وادي الاردن، طولا وعرضاً . وفي حمارة الظهيرة، اوينا الى ظل عيكة شائكة، فذكرنا النبي ايليا والرقمة (ملوك الاول : ١٩/٤) . ثم الى اريحا، فالقدس، فغزة، فاشدود، فيافا؛ فالقينا عصا الترحال . . . واقلع الصحاب الى بلاد الانكليز

وبقيت

الفصل : ٣

من زمن الى زمن

السفر في فلسطين عشية القرن العشرين – الخان اليهودي – من حيفا الى الناصرة – الى جبل طابور ، فطبرية – مستشفى الارسالية الاسكتلندية – ميناء يافا : الصرة الحيسة وكعكة العرس

بين امس هذا القرن ويومنا منه شتّان . اليوم تزحف بنا السيارة ، ضحى، من يافا، فظهراً ، من حيفا ، فعصراً ، من الناصرة ، فاذا نحن على شاطىء البحيرة ، واليومُ في عصره . وحتى في العقد العاشر من القرن التاسع عشر، كان الحال ما عهد من قبل القرون السالفة، الا قليلاً

في ذلك الزمان ، اعتزمنا – انا واختي ايدَث ، وصديقة مبشّرة – الانسة ارْمسْترَنغ – ان نصل حيفا ، فاستأجرنا مركبة ، ولو كانت الطريق غير معبّدة للعجال ، بعد ، وقمنا مع الفجر . وكانت نِعمَ المركبة . صُنِعت مركباً للقيصر الالماني في سنة ١٨٩٨ ، وبها اجتاز هذه المرحلة ذاتها ، وكان سائقها نفس السائق (الحوذي – جورج سوس – الالماني ، الحيفاويّ) الذي حاذ خيلها ، بمولاه القيصر ، الا الخيل ، فقد بُدلت خيلاً تُساط . وتُباع وتشرى . وقد باتت المركبةُ تُؤجر وتُكرى

ودون القيام من يافا ، اكفهر الجوّ ، وهبت العاصفة . وحسبنا لوعورة الدرب ، دون حيفا ، حساباً فأقمنا سائسنا بحصانين من خيلنا وبَغلةٍ قهرمية حيطةً لحاجة قد تطرأ ، فنلجأ الى السرج والحافر ان قعدت بنا العجلة وجمدت السُدَّة والمقاعد . وعرضت الحاجة ، فما ندمنا على حزم الى عزم . وقبل عروضها توقعناها اذ قرن الحوذي حصانيه واعتلى سدته

Digitized by Birzeit University Library

وتناول سوطه وسألناه عن الثالث فقال : « بعته ، البارحة احتمله نصيبه وبأخويه الباقيين البركة » . قلت : ان شاء الله

وشاء ، فسلمنا ، بعد اصطكاك وارتطام وتخبط في الظلام ونزول للتخفيف وضرب عنيف تخلله شيء من الكلام اللطيف ، وللخيل اطوارها . وكانت ورطتنا الكبرى عند الجسر الروماني القديم عبر نهر التمساح وقد غابت الشمس ولعلعت الرعود وأومضت البروق . ووصلت المركبة ونحن دون زمارين — التي يقال يقال لها اليوم «ذكرون يعقوب» (ذكرى يعقوب) وهذه المرة؛ ترك الحوذي الصرع والسوط بين يدي ، وتلمس فاقتطع من سياج قريب شبه كرباج وهال وآل ،[1] وانهال على الحصانين ضرباً وسباً . وبعدلاي ، هبا ، وشبا فانطلقا لا يلويان عليه ، ولا على شيء ، خبباً بجاح ما استطعت له كبحاً فاذا نحن حيث الف الحيوانان ان يقفا — وهو المقصود — خان اليهود

الخان اليهودي

في ذلك الزمان ، لم يكن من بد من النزول في خان . وكان زادنا معنا ، وحلت الحقائب ، وفيها الاطايب وكلنا بين جوع وتعب ، وقد هنئنا بالسلامة ، وما همنا الا ان ننام بعد شيء من الطعام . فخلق لنا هم ، وكان امر الخوان . فان رب المنزل كان تقياً ديناً ، وقد حل عيد البوريم ، فاندفع بديانته وتقواه ينهانا عن تدنيس بيته بخبز خمير ، ففرشنا الجرائد خواناً ، لنبقى اخواناً

وغنا نوم التعبان ، وغدونا بأمان ، واغنانا الحذاء « الملآن » عن ماء نطلبه من رب الخان . كنت لشدة التعب قد ارتميت على الفراش ، فرميت بالحذائين ، من القدر الطويل ، زي السفر ، فجاء احدهما من الشباك حيث امتلأ من ماء السماء . نعمة كريم ، تغني عن تعنّت اهل البوريم

وهذه لمحة من « ذكرى يعقوب » في يومها ذاك . وقد نشأت هذه المستعمرة ، في ظل الصهيونية ونمت ، وعظمت ، وكانت من الاوليات . واشتهرت بخمر تصنع فيها ، وتنسب اليها ، كما نسبت هي الى « يعقوب » اي « ادمون » — بالفرنسية — وانما اريد « يعقوب روتشيلد » بقولهم ، البارون روتشيلد ، مؤسس « شركة الاستعمار اليهودي بفلسطين » المعروفة ، اختزالا ، بالبيكا . ويومذاك كان للعرب بهذه القرية اليهودية بقية صالحة ، وكان لليد العربية العاملة مدخل ، فمن غرس وحرث وما اليها . فما بدا الاستعمار بوجهه الكالح اول ما بدأ

من حيفا الى الناصرة

بتنا في حيفا ليلتين ، في فندق الماني نظيف ، بآخر شارع الكرمل ، الممتد في قلب الضاحية

(١) « هال » من زجر الخيل و « آل » اتباع

الالمانية . وفي تلك الضاحية تركنا سوساً ، الحوذي القيصري ، ومركبته ، وخيله ، وركبنا خيلنا واجتزنا سهل عكاء مروراً بشفا عمرو ، الى الناصرة ، عروس الجليل

وقل من أوتي خيالا يصور له محاسن عروس الجليل ، ما لم يجتلها بنفسه ، ليسرح الطرف من روابيها الحسان ، في سهول « مرج ابن عامر » ، ميدان المعارك الثلاثين . من قمة الرابية كان سيدنا ، في صبوته ، يشهد عظمة الرومان جاثية ذاهبة في ذلك المرج المجيد

من هنا . . « عبرت جيوش جحافل ، ومواكب امراء ، وركب في اثر ركب ، على ركائب ، وفي هوادج ، وحوافل ، قوافل ، قوافل ، وكل ذلك بمرأى ومشهد من صبية الناصرة . وعلى مسمع من الصبيان كان الدَّيان ، يلقي في الاذان ، عبر الاديان ، والرومان ، والجبران ، وكل بجزبه فرحون ، يعبدون كما يحبون ، ويبيعون ويشترون . . . وبذلك كله كان الاولاد في الناصرة يعلمون ، وعنه يتحدثون ، اذ كذلك كان كبارها ، فكان جناح جبل التجربة ، قرب المدينة بمثابة منظرة ، تشهد المتأمل ممالك الزمان مشهداً واحداً . وانما عبرة الناصرة ان بيتاً من بيوتها جمع الطهارة بأكملها ، وانشأ شباباً خالصاً من كل شائبة ، في وجه دنيا رجس وسوء . ذلك هو الاعجاز بعينه *»

الى جبل طابور ، فطبرية

وبعد يوم تأهبنا لغداء يمرئنا على راس طور طابور في حديقة دير الروم . فركبنا وحللنا الحديقة ومدت السفرة والزاد البيض المسلوق واقواص الكفتة . وهبت نسمة برائحة كئيبة كريهة ، نغصت علينا طيب الطعام . وطغت على احتمالي . فجهرت بسؤالي : ما هذا : وانتقلنا ، والمنكر منكر ، هو هو ، شيء يشم ولا يذكر . واذا بقسيس تطوع للعونة يقول : اتحب الانسان تشهد بعينها ما يعصف بانفها ؟ فتململت ، وقد حسبت لجرأة الكاهن كل حساب ، ثم قمت فتبعته الى حيث اشار الى نبات اشبه بالزنبق الاسود ، منه انبعثت تلك الرائحة النكراء . وانصرف القسيس الى شأنه وابعدنا النقلة الى حيث لا زهر ولا بقلة

وانحدرنا ، نجوب السهل ، جنوبي جبل « خرب حطين » الذي توهم البعض انه جبل «الطوبى» وقد طاب النسيم ، وصفا الجو ، وعلى الجانبين خضرة النعمة ، من قمح وشعير ، تتماوج ، عن حسن الاقحوان ، وشقائق النعمان . وانتهينا الى جهاد الخيل ، وقد اشتد عناؤها في ارض الخصب الممطورة ، فمن جودة الى جودة ، والوحل فوق الكواحل ، وقد مالت الشمس غرباً ، فانكرنا الدرب دربا

* عن كتاب ج . ا . سمث

Digitized by Birzeit University Library

ومر بنا فلاح على حماره، فسألناه : اين نحن من طبريه؟ فقال : امشوا . قلت : سنمشي، ولكن، كم؟ قال : امشوا . وحسبناه استغربنا، وانكرنا . وسرنا، فما ابعدنا الا قليلاً، حتى استوقفنا ذلك الصادق الفاضل، قائلاً : شرب ٢٠ سيكارة . فمدت بدافع الفضول استوضحه قوله : امشوا : ولماذا اصر على نهره بامره . فقال :اردت ان اعدل الوقت على سيركم . ففهمت، وافهمت اختي، واوسعناه شكراً وحمداً

وواصلنا السير على هدي الفلاح العربي الفاضل، فاذا نحن من عل نشرف على جلال البحيرة، وقد ماجت زرقتها بروعات الغروب : مشهد جمال وطمأنينة، يقف بالمرء موقفاً يجمع الزمان كله، ماضياً، وآتياً

وانحدرنا، لا نبالي، اي المسالك اصلح، وعيوننا غارقة في مجد « بحر الجليل »، في وادي نهر الاردن، حتى اذا بلغنا شاطئها، كنا على ٦٠٠ قدماً تحت سطح البحر المتوسط

مستشفى الارسالية الاسكتلندية

وفي مدخل طبرية، وكان بوابة قديمة بقنطرة، مر بنا الدكتور تُورنس . خارجاً لحادثة أسفرت عن اصابة، فأعلمنا ان زوجته بانتظارنا، ومضى في شأنه . وبباب المستشفى لقيتنا المضيفه الفاضلة، ببشر وطلاقة، كادا يذهبان عنا عناء السفرة وعثاءها دفعة واحدة . وسارت بنا الى غرفة معدة لنا، مطلة على البحيرة الجميلة، ومن سمكها الطيب الطازج كان العشاء، ولا أفخر

وكانت للطبيب شهرة واسعة، في الجليل كله، وما وراء الاردن، وأحبه القوم، نطاسياً ماهراً وخادماً لله والانسانية صادقاً ودوداً

وعدنا الى حيفا، على الطريق المعبدة . وكانت رحلة خلية من الطوارىء الا عند «المقطع» « ذلك النهر القديم ». فان جملة من العرب جاءوه معنا، وكانوا يعرفون مخاضته، وضحضاحه اذا فاض بعد الامطار، ولكن، بغلتي القبرسية ابت الا ان تركب رأسهـــا، فانفردت عن الركائب، واحتملتني الى حيث دنت التهلكة . وما ادري كيف ارتد بها الصواب، فنجونا، ولم نكد

وبعد السلامة من خطر « النهر القديم »، اخترنا « مركب البحر » — الباخرة الماخرة — مطية للعودة الى يافا، وتركنا البغلة والحصانين لسليم

ميناء يافا : او الصخرة الحبة وكعكة العرس

ميناء يافا — في ذلك الزمن — يدني او يبعد، ولا حكم عليه لاحد . وحسب القارىء من

ذات صباح، رست باخرة خارج الميناء، وخوفاً من اضطراب البحر، وقد تلاطمت لججه بين صخور الميناء، كان زورق البريد الاوربي الزورق الوحيد الذي اتيح له ان يداني الباخرة الراسية . ولم يسمح لغير قنصل الانكليز ومن معه بركوب ذلك الزورق . وفي المأزق، انقلب الزورق، وخفت الزوارق المحجوزة ببحارتها، والتقطت الاحمال، من حقائب واحياء . وعلى شاطىء السلامة وجد كل غريق الا الطفل ابن القنصل . ونادى المنادي، وغابت الشمس، وما عن الطفل من خبر

وأوى بحري للعشاء، فوجد زوجته تتهمه بسرقة « ابن ناس » . وكان قد جاءها بصرة وخرج، وحسبتها ملابس، حتى رأتها تتحرك . وما حركها الا بقية رمق في الغريق الصغير . « يا ويلي ... هذا ابن القنصل ... نجا .. وانا الغريق ... » قالت الزوجة : « ما نفعه، رده لاهله : خير واولى »

فحمل البحري الولد الى الفندق، حيث الوالدان الحزينان، وعاد مشكوراً غير مأجور، وهو قانع من الغنيمة بالسلامة

والكعكة العرس قصة اطول، وأبلغ . وعن « بحر يافا » وأهواله، حدث ولا حرج

كان للطبيب الاسكتلندي القيم على مستشفى اختي كُنَسْتَنس، خطيبة، حضرت ونزلت عند اختي ايدث، وكانت اختي روزموند في ضيافتي، ريثما تستأنف السفر الى الهند، حيث زوجها . وكانت احدى الممرضات على أهبة لسفرة الى بلاد الانكليز، انتجاعاً للراحة، بعد مرض الم بها . فأعتزمت ايدث ان تصحب الزمرة حتى بور سعيد، فتصل القاهرة وتعود بكعكة عرس صالحة . وبأمان الله سافروا من يافا، وبالسلامة وصلت الكعكة من القاهرة، وبحفظه تعالى قامت الباخرة من بور سعيد، حتى اذ واجهت يافا، وقد هاج بحرها، مخرت الى بيروت، فنزلت ايدث . وثانية واجهت الباخرة يافا، وارتدت تواً الى بور سعيد . وفي الثالثة، نزلت ايدث في حيفا، وبعد قسط من الراحة، عادت الى يافا، براً، بمركبة، مسيرة يومين . وبوصولها كانت روزموند قد بلغت ميناي، والممرضة لندناً . ولله الحمد، وللعروسين الهناء بكعكة هذا امرها مع بحر يافا

Digitized by Birzeit University Library

الفصل : ٤

العرب أصحاب الكتاب

اليد على المحراث – التجهيز – في يافا ، ١٨٩٥ – ١٩٠٣ – الويل
والثبور – الحيّة والجمَل – وبعد يافا ، الناصرة

اليد على المحراث

... فلا نظر الى الوراء . وبذلك قضى قدر محتوم. فالى التبشير ، ولو بعد حين، ولو الى حين . وكانت امنية لجدتي ان ينصرف للتبشير احد ابنائها، او ابناء ابنائها، فما لبى من البنين ملبٍ وصحت الأمنية في ثلاث من اسباطها، أنا واختين. وكنت من اول عهدي بسكنى يافا قد عرفت ما التبشير، وما حال المبشرة . على انني حتى سنة ١٨٩٣ كنت اذهب الى انكلترة اذا جاء الصيف. وفي خريف تلك السنة ، زُفت اختي ماري الى الكولونيل سَنْت كِوِنتن ، وتلت الزفافَ مآسٍ آلت الى فرصةٍ أتيحت لرغبة كنت أُعلل بها النفس، وهي ان أصير مبشرة بفلسطين. وللقارىء الخبر

بعد الزفاف بيومين، سقط خالي ميتاً، وقد خذله القلب وهو يهرول ليودع البريد رسالة . وجزعت للمصاب والدتي، فمرضت، وفارقتنا بعد اسابيع ستة. فأوحش البيت، وبت كسيرة قلب . فسألت والدي العون على بؤسي ، ليسمح لي ان ارضي نفسي، بتحقيق مشيئة كانت لامي وهي ان انتسب الى « جمعية الكنيسة التبشيرية » . قال : « يدك على المحراث ، فلا تنظري الى الوراء. »

التجهيز

وفي الثانية والعشرين شرعت اتجهز في التمريض والعمل الاجتماعي في معهد خاص في برمنهام

وما راقني من العلوم الاعدادية شيء كالوعظ في منعطفات الشوارع . ومن نوادره ان سامعاً، كافراً بالوحي والتنزيل تصدى لي بسؤال علني، على مشهد من جمهور: اتؤمنين ان الكتاب المقدس يقول الحق ؟ قلت : بلى . قال: وكيف يقوله: ان من وضع يداً على المحراث ونظر الى الوراء كان غير اهل لملكوت السماء: فهل سمعت بمحراث بيد واحدة؟

قلت : وهل عرفت فلسطين، حيث كتب الكتاب ؟

قال : كلاّ

قلت : فلسطين سكني، والمحراث فيها مسكة واحدة ليد واحدة، لا مسكتان فعكست آيته

ومن برمنهام أُرسلت الى « الزيتون » (تعريب الاسم الانكليزي) وهذا معهد آخر من معاهد التجهيز. وفيه قضيت سنتين؛ حظيت فيهما بصادقة الآنسة ف. آ. برونلو. ومعاً سافرنا الى فلسطين، في سنة ١٨٩٥

في يافا : ١٨٩٥ _ ١٩٠٣

وانما أحببت التبشير كما اردته، لا كما اراده غيري من اهله ودعاته. وبقلبٍ فرح، ونفسٍ مرحة، رحت ابذر كلام الانجيل بين اهله، كما عرفت. وما عرفت كثيراً مما حملت على الاضطلاع به، فما اطقت منه شيئاً. فما سورت زملائي الا قليلاً. وما زلت شوكة في الخاصرة، حتى استقلت، فاقلت. وكان ذلك في سنة ١٩١٤، كما سيجيء

وكنت وصديقتي فُلُص بَرنَلو، واختي إيدث، والآنسة آرمسترنغ، فرقةً واحدة، في مقرٍ واحد، برعاية المحترم ج. ر. لنغلي هَال، امين الجمعية العام في فلسطين

وكانت الاستزادة من تعلم العربية من الفروض اليومية. وما اجتزت الامتحان في الدورة الاولى، فأعدت الكرة

وكان عملي التدريس، وزيارة البيوت وبصحبتي « أم التوراة »، امرأة تقرأ فصلاً، ثم تقول ما قرأه بكلامٍ من عندها، اقرب الى فهم العامة. وكان البيت، في الغالب، غرفةً مغنيةً عن غرف، تزوي ربه وربّته وذويهما جميعاً. واذا اقبلنا، انصرفت ربّة بيتها عن شأنها، كائناً ما يكون، وجلست الينا لتسمع القصة، مقروءةً، فمحكيّة، ثم تعقيبي عليها بالعِبرة الروحية. وذلك كله، كان يقال له التبشير

وكثيراً ما ساءلت وتساءلت: ان يكن في التبشير من خير، فما هو ؟ ودون الجواب،

Digitized by Birzeit University Library

اروي لقارئي شيئاً مما كنت اسمعه من افواه السامعات

اصغت احداهن لتفسيري للآية القائلة ان اجر الخطيئة الموت ، اما عطية الله فحياة ابدية. فقالت : « كلامك على الرأس والعين، وقد فهمت ما الاجر، وما الموت، ولكنني في ريبة من العطية، عطية الله، تلك « الحية » التي لا تموت . وقعت « الحياة » من لساني الاعجمي موقع « الحية » من اذنها العربية، فادخلت الريب في نفسها، والذعر — لا البشارة

واخرى، سمعت موعظتي الضافية عن « تاج » الحياة. فحسبتني اتكلم عن كعكة من الخرق البالية تضعها المرأة على رأسها مقعداً للجرة، اذا راحت او غدت تستقي. وما راعها من كثير كلامي عن ذلك التاج شيء قط

وما اريد الحط من كرامة المبشرين، وانما العبرة ان العربي هو من يُعمل معه، وليس من يُعمل له . وحسبه ان يفتح له المنفذ للنور والهواء، ثم هو خير من يفسر الرسالة وينشرها

الويل والثبور

ومن العهد بيافا، في ذلك العهد، ان نودي بالويل والثبور، وكنت والاخوات نسمع الصيحة: اذبحوا النصارى: صدى للحرب الطليانية — التركية، من اجل طرابلس الغرب، فما ذبح نصراني ولا نصرانية قط . وكنا يوماً في القدس، وشاعت شائعة، ان الحاكم التركي تلقى امراً باحداث مذبحة، فطواه، وغيبه في جيبه، وغاب الشر [1]

الحبة والجمل

وان حدثت عن يومي سوء من ايامي بيافا، فعن حية، مددت يدي لحاجة فذعرت وانسابت، مثل ذعري او اكثر، وعن جرس دراجتي، يرن في الشارع، ليفسح لها، وقد عجب كثيرون كيف لا تقف هذه الركوبة الجنية كما يقف الجمل الذكي اذا جاء سوقة سدوا عرض الطريق . وكنت اول امرأة ركبت دراجة في مكانين اثنين : قريتي، وفلسطين

وبعد يافا ... الناصرة

في سنة ١٩٠٣ اعتلت صحة صديقتي الآنسة برناو، فرافقتها الى بلاد الانكليز. وجدت لي عوائق، حتى سنة ١٩٠٥ . واذ عدت، كانت الجمعية قد نقلتني الى فرعها بالناصرة

(١) كتبت صديقة العرب هذا الكتاب ليقرأه قومها بلسانهم من دون ان يخطر لها ببال انه سينقل الى العربية . فهذا كلامها في التبشير شهادة للعرب، ورفع لمكانتهم . وهذا قولها عن أمن نصارى الشرق دعوة الى رفع اليد الاجنبية عنهم . وما اكبر قولها : « إن العربي مـن يعمل معه وليس من يعمل له اي عاهدوهم ، ودعوهم . انهم هم اصحاب الكتاب ؟ فلا تبجحوا بتبشير ولا بانتداب

الفصل : ٥

النصرانية العربية

الى الناصرة : في ١٩٠٥ — مدينة الناصرة في يومها ذاك — مدارس القرى

الى الناصرة

الجوت ، ومقصدي الناصرة . ورست السفينة ليلاً على نحو ميل من ميناء حيفا . واجتزنا هذه الشقة بالزورق ، وقد وقانا جبل الكرمل غوائل الريح الغربية — الجنوبية التي تتسلط على ميناء يافا

وبالمركبة ذات الثلاثة رؤوس ، من الطراز الاميركي ، وصلت الناصرة في ست ساعات ، وهي سفرة يكفيها ثلثا الساعة بالسيارة . وكانت مركبة ذات ثلاثة صفوف من المقاعد ، على ستة أعمدة تحمل السقف العالي ، وقد تدلت منه ستائر ، ترد الريح والمطر . غدوة زمت الحوائج ، وفي المركبة متسع . وراح اسكندر ابو عسل يحوذ خيله ، ولسنابكها وقع تتجاوب اصداؤه في ازقة سوق المدينة، وصاحبنا الطريق المسايرة لسفوح الكرمل ، حتى الهضاب المباهية بسنديانها وملولها . وفي ظل عتبة عظيمة وقفت الخيل لحقها من الراحة . تلك العبهرية التي قطع قطع شجرها وقوداً للقواطر التركية في الحرب العالمية الاولى

وكانت الانسة برِنلو قد أعدت مسكناً غرفاً اربعاً ، وردهة توسطت الغرف . ومثل ذلك من الدور الارضي وسع البنات ، وملجا ، خادم المنزل وزوجته ، واولاده الثلاثة ، ثم رابعاً زيده ، نعمة كريم

وكانت الجمعية قد حلت محل « جمعية تهذيب الاناث » ، فتولت ذلك الميتم الجميل وسرواته البواسق من فوق شفاً مطل على عروس الجليل . وبدفتر الزوار توقيع الملك ادورد السابع ،

Digitized by Birzeit University Library

وتلاه في حينه توقيع الجنرال ألنبي [1]

ومن الاقوال المأثورة: «وكانت ايام جبابرة». وهذا قول صح على طائفة من روائد المبشرات كالمس منطور موط، مؤسسة الارسالية البريطانية، والمس بروكتر، التي انشأت مدرسة بنات في الشويفات، بلبنان، والمس لِيْ، صاحبة الفضل في احداث جملة من المدارس في قرى الجليل وفي مدينة الناصرة ذاتها. وما زال اسم المس «لي»، متداولا على الالسنة؛ وكانت مضرب المثل في الاسر والشدة الصالحين، هولة مباركة، لفرط هيبة عرفت لها في نفوس المعلمات والتلميذات على السواء. عكست الاية؛ فكانت يدها البيضاء مخملا في كف من حديد. تلك كانت سلفي، وما طمعت ان اسد مسدها؛ حللت المكان وقد خلا منها، ودام مليئاً حباً لها، وحزناً عليها [2]

اما العمل المطلوب، بحكم المنصب، ومقتضى الحال، في ذلك الزمان، فلم يكن فوق حظي من العلوم، على قلته. يقاس ذلك على اجرة المعلمة — وكانت ليرة فرنسية ذهباً شهرياً — اي نحو ١٦ شلناً. وما كان ذلك بالمرتب القليل في حينه. وعلى براعة معلمة الجغرافية يقاس التفنن في اساليب التعليم، في تلك الايام. دخلت، وهي تشير الى خارطة الكرة الارضية، وتسأل الصف: ما الدليل على ان الارض كرة؟ ثم راحت هي نفسها تجيب، فتقول: طبعاً لو مشى انسان حول الكرة الارضية من مكان ما، عاد ورجلاه فوق رأسه

ذلك نزر من العلوم يسير. ولكن العناية الكبرى كانت مصروفة لمرضاة الآباء والامهات. فكان الوالدون يحبون ان يتعلم اولادهم القراءة والكتابة، وقبل ذلك كله ان يقبل التلميذ اليد الابوية حال عودته الى البيت، عنواناً للطاعة. وكانت النسوة تطرى. صبياً ينتف شعر امه، وهو على صدرها: «اسم الله عليه، ما اقواه!». ومثل هذه العادة، مما وجب استئصاله. وكان حد التعليم المختلط، بلوغ الصبي السابعة، فلا يقبل بعدها في مدرسة البنات

مدينة الناصرة في يومها ذاك

يومذاك كانت الناصرة مدينة زاهرة؛ بَندراً، وسوقاً؛ وفيها من الحدادين والصاغة، والعطارين، والبقالين، والسروجيين، واصناف التجار، ما كفى حاجات الزمن. فكانت حاضرة يؤمها القرويون، فيجدون ما يطلبون. وانقلب عليها الزمان بعد الحرب العظمى الاولى، بقيام طائفة من المستعمرات اليهودية في سهول مرج ابن عامر، في مكان قراه العربية. واهالي تلك المستعمرات، يتدبرون حاجاتهم فيما بينهم؛ فما يشتري يهودي من عربي

(١) لا غرو ان تفخر صاحبتنا بقومها، وحسبنا منها صدقها ايانا عملا وقولا (٢) شرف ونبل في الشعور، والفضل يعرفه ذووه

والناصرة مدينة قدسها النصارى، واليها نسبتهم [1]. فلا غرو ان تكثر فيها المعابد، والاديرة، ومنازل الزوار. ومن مآثر البر فيها مستشفى جميل شيدته ارسالية ايدنبرغ الطبية. وكان في اوئل ايامه موطن الفضل الذي عرف للدكتور ورطان، وزوجته الاسكتلندية؛ وما زال اسمها وذكر ابنتيهما، بعدهما، يرددان لليوم بالمحبة والعرفان

ومن مفاخر الناصرة «كنيسة المسيح» من كنائسها. فهي اول كنيسة عربية من كنائس الملة الانكليكانية. وفوق هيكلها، بالذهب، كلام سيدنا في كنيس [2] يومه: «روح الرب علي، لانه مسحني لابشر المساكين؛ ارسلني لاشفي المنكسري القلوب؛ لانادي للمأسورين بالاطلاق؛ وللعمي بالبصر؛ وارسل المنسحقين في الحرية؛ واكرز بسنة الرب المقبولة» [3] (لوقا: ١٨/٤ — ١٩)

وما زلت اذكر كيف اخذ الكاهن العربي، فما كاد يصدق اذنيه، عندما وقف يترجم للواعظ قوله: «خير اصدقائي لصوص وقتلة»: فاستعاده؛ وابى الواعظ الا ان تترجم العبارة بنصها، عنواناً لخطبته. تلك ايام لم يكن الواعظ فيها يقرع المنبر بجمع يده، فيقول: «بعضكم نائمون»، بل كان الناس يقبلون على المتكلم بالسمع والبصر والذهن الواعي، والقلب الحي

مدارس القرى

وطاب لي تعهد المدارس اليومية بالزيارات التفتيشية. وكانت عشراً، اربعاً في المدينة، وستاً في القرى، مناصفة بين شرق وغرب؛ فأزور في الاسبوع اثنتين، شرقية وغربية. وكان خروجي الى القرى على حصان مأجور، يتقدمه راجل مسن، يعنى لعلفه وشربه. وكانت الشرقيات: الشجرة، والرّينة، وكفر قنّة. وهذه الاخيرة هي «قانا» الشهيرة بأولى عجائب السيد المسيح. ويزعم اللاتين ان كنيستهم قائمة على موقع البيت الذي جرت فيه العجيبة. وبكنيسة الروم

(١) سيدنا المسيح «عيسى ابن مريم، ناصري»، والمسيحيون «نصارى» نسبة اليه والى الناصرة المكرمة. ونعمت الآية الكريمة في القرآن الكريم:

«لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا، ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى، ذلك بان منهم قسيسين ورهباناً، وانهم لا يستكبرون». الآية ٨٢ من سورة المائدة)

(٢) الكنيس معبد اليهود. والهيكل المحراب، ويقال له المذبح، شرف المعبد المسيحي، وبه خصت «الكنيسة» (٣) هذه الآية الكريمة من الانجيل الشريف اصل لتسمية النصارى بالمسيحيين، من قوله «مسحني» وللتبشير، من قوله «لابشر» وللقارىء نصها بالطبعة اليسوعية المنوه عنها بحاشية سابقة:

«ان روح الرب عليّ، ولاجل ذلك مسحني، وارسلني لابشر المساكين، واشفي منكسري القلوب، وانادي للمأسورين بالتخلية، وللعميان بالبصر، واطلق المهشمين الى الخلاص، واكرز بسنة الرب المقبولة ويوم الجزاء»

Digitized by Birzeit University Library

الارثوذكسي جرتان من الحجر كبيرتان؛ والزعم عندهم أنهما وعتا الخمر؛ وربما كانتا من اجران المعمودية، تعظيما. والغربيات كن : المجيدل، ويافا (يافة الجليل)، على الطريق الى حيفا، ومعلول، المستترة بين الهضاب

كنت أحمل زوادتي، فما اذوقها؛ وتأبى الضيافة العربية الا أن اشارك المعلمات في غدائهن، من البيض الفاخر الطازج (مقلياً مع البصل المفروم) والحليب، والجبن، والزيتون، والعسل؛ وما بعدها من اطايب. الا الماء، فكنت أدخل عليه الشاي، لاشربه غالياً اي مطهراً؛ فما بُليت بالتيفوئيد. وللوقاية فضلها

وكان التفتيش حيلةً للتنشيط والترغيب : فمن نظرٍ الى خط البنت وهي تكتب، او اصغاء الى اخيها وقد وقف يقرأ، او اقامة طالبٍ او طالبة الى اللوح لعملية جمعٍ او طرح. وما كان عملي تبشيراً لولا ما اشتمل عليه مثل هذا التفتيش من الاصغاء الى قصة من قصص الكتاب، يقصها صغير او صغيرة. وما ارق قصة الميلاد، كما سمعتها من معلولية بين السادسة والسابعة، وقد قرب العيد. قالت : « قام يوسف ومريم من الناصرة، قاصدين الى بيت لحم. وكانا من الفقراء، فلم يكن عندهما حمار؛ وراحا يمشيان. وكان مشيهما على مهل، لان مريم كانت مثقلة بولدٍ تحمله في بطنها؛ فطالت السفرة اياماً. ووصلا دار القرايب في بيت لحم ليلاً، وقد ناموا؛ ولا مكان لهما على المصطبة. وجاء مريم الطَلق، فقاست آلامه، في مكانها، بين البقرات، المربوطات الى معالفهن، بجانب المصطبة. ووُلد الطِفل، فلفته مريم بما تيسر من حوائج كانت في صرتها. وخافت عليه من ارجل البقرة، فوضعته في معلفٍ فوق رأسها. كذلك، يا معلمتي، وُلد يسوع (عيسى). وكان نفس البقرة يدفِيه » [1]

(١) يقول المؤلفة « وما كان عملي تبشيراً » وينقلها هذه الرواية الميلادية عن لسان الصبية العربية المعلولية، بلاغ مبين، وشاهد ودليل على ما تقدم بالحاشية (١) على صفحة ٣٠

زارت يافا سنة ١٨٩٥ م
١٨٩٥ — ١٩٤٥

الفصل : ٦

البيت الدّولة

البيت القروي- الفراش والانية -السطوح- السلالم -الوتد في الموضع
الامين- المنزل- الكوز والكُوار- النوم

البيت القروي

وما كانت قصّة الصغيرة القرويّة لميلاد السيد النّاصريّ الا صورة حيّة للحياة البيتية في موطنه الجليليّ الكريم. فالبيت غرفة من المدر؛ والسقف مَدر، مدّ على روافد من جذوع الشجر؛ فان كان كبيراً، حمل الروافد جسر، بين حائطين. والارض، ايضاً، من الطِين؛ وقد ارتفع ثلثاها دكّة يقال لها المصطبة، شقة لرب البيت وعياله؛ وخص الثلث الحلاله، من بقر، او جمال، او خيل وحمير، وديوك ودجاج، وحمام؛ فالجميع تحت سقف واحد؛ وذلك آمن، وخيرٌ وأبقى. وبحافة إفريز الدكة، المذاودُ. وبفضل من العناية، كنساً، ورحضاً بالماء، بلا توان، يعيش القومان، من بشر وحيوان، على ما يرام من النظافة وبركاتها [1]. فاذا أصبحوا، خرجت المواشي الى الحقل، للحرث، او لترعى، فتعود مع المساء.

وربما عجب الناظر الى حائط قائم دون السقف؛ فذلك صف من الكوايز؛ كل كوارة [2] لنوع من المؤن؛ وقد أقيمت على قاعدة، ولهافم يسد بكعكة من خرق القماش، اشبه بالكرة؛ فاذا أُلقي الإناء الى القاعدة، وسلّت الكرة، اندفق من المخزون قدر الحاجة، من قمح

(١) صورة ناطقة صادقة للمنزل العربي. بمثلها في هذا الكتاب النصرة الخالصة لعرب فلسطين، وهداية اهل الغرب الى سواء السبيل من عماوات التضليل (٢) لعل « الكوارة » اصح من الكوار، وما اجزم. وربما كان الاصل التكوير وهو من الاستدارة ومنه الكرة

Digitized by Birzeit University Library

او دقيق، او غيرهما، ثم سدت الكوارة. وما بالكوايز من حبوب، او غيرها فهو من بيدر ربّ البيت او كرمه. كذلك اختزانهم للحاصلات والغلال، وقد رزقوها، لينفقوا منها، بقدر، اولاً فأولا. فما يقف واحدهم بباب الخباز ليشتري له رغيفاً. خبزه في بيته [1]، من حنطته، وطحينه، وعجينه؛ ولا أمرأ ولا أهنأ

الفراش والاثيثة

وبحائط، من المصطبة ثلمة، هي الخزانة الحافظة للفرش، والألحفة، والمخاد والوسائد، وقد رصفت رصفاً، وحجبتها ستارة، ناصعة البياض نظيفة، زاهية، مطرّزة الحواشي. وثلم صغار، بمثابة رفوف، ترتب فيها صغار المواعين والآنية والأدوات المنزلية. وعلى الحيطان أطباق، بديعة الرسوم والنقوش، من قش الحنطة، وقد صبغ ألواناً، وحاكته يد صناع؛ وهذه لحمل اقراص العجين الى الفرن، والعود بها أرغفة. وفي الزاوية وما اليها جرار الزيت وسائر السوائل

وما يخلو البيت من مطحنة، ذات حجرين من حجار الرحى، تدار باليد، فتسد الحاجة، كلما عرضت. وبالبيت ما يلزم من آنية النحاس، للطبخ، واوعية الفخار، للزيت وغيره. وبه صفيحة، (تنكة) [2] من الكاز المسكوبي، للطباخ — البريموس — ذي الفتيلة الواحدة، وللمصباح، الفانوس، يشعل ويحمل عند الخروج. وقلما يكون غير الباب الواحد للبيت الواحد، وهذ ينفتح على حوش مصوّن بجدران، بأحدها باب واحد، هو المدخل وهو المخرج، لقطعان الغنم والماعز. وفي هذا الحوش مواقد، للطبخ بالقدور، على نار الهشيم والحطب، وقد جمعتها «حمالة الحطب» من بعيد. وفيه الفرن

السطوح

والسطح طين جبل بالقصل، وهذا لا يخلو من بذور، فاذا السطح يخضور، اذا جادته الامطار، وآن الاوان. وقد عرفنا كيفية صنع السقف من جذوع الشجر، تتخللها اغصانه وفروعه، ثم يعلوها الطين، الا فرجة، تسد، وقت المطر. ومن هذه الفتحة، وقد وسّعت شيئاً،

(١) حدثنا الكاتب اللبق المرحوم سليم سركيس، قال. في احد اسفاري، في ديار الغرب، شاقني ان احضر محاضرة موضوعها العرب في بلادهم. وكان الخطيب من طغمة المبشرين في الاقطار السورية. واذا به يقول. مساكين، فدان الواحد منهم امرأته وحمارة. مساكين.. لا يعرفون الرغيف يا لحالهم! مساكين، لو تعلمون ما يأكلون؟ انهم ياكلون.. أل-أل خب- الخبز، وانتم هنا تاكلون **Bread** (بردَ - اسم الخبز بالانكليزية) ولم يسكت سركيس. فقام وفضح القسيس

(٢) من النكد ان تعد «التنكة» عامية، فتهجر والحال ان التنك لفظ فينيقي عريق في عروبته. وقيل «بريطانيا» أصلها «بر التنك» تسمية اطلقها الفينيقيون على تلك الجزائر. فان يكن اسلافنا عربوا التنك تصحيفاً، فكذلك فعلهم بالصراط، وانه لمستقيم

بلزّ الاخشاب بين رافدتين، دلي الابرص على فراشه، حتى اذا برى. وعاد سليماً خرج من الباب، ولا حرج

السلالم

ومن يقرأ: «والذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً» (متى: ١٧/٢٤) لا يفهم، حتى يعلم ان للبيت درجاً ادرج في بناء حائط من حيطانه، ومفاد القرينة الاسراع، فلا يضيع من رب البيت وقتاً بين دخول فخروج

الوتد في الموضع الامين

«واثبته وتداً في موضع امين، ويكون كرسي مجد لبيت ابيه، ويعلقون عليه كل مجد بيت ابيه» (اشعيا: ٢٣/٢٢ و٢٤). وما لابن البيت في الغرب من خبر هذا الوتد ما يعينه على مغازي هذه الكنايات المشتقة من حياة المنزل في هذه الديار الشرقية. فما هو بمسمار، او وتد، ضرب على رأسه، دزّ في الحائط، وانما هو فرع صالح مشعب، بني في الحائط بناء، ورصّ مع سائر البنيان رصاً، فهو في الموضع الامين. وعلى هذا الوتد المتين، المكين، يعلق الفلاح محراثه، ذا اليد الواحدة، وذلك هو مجده، وجاهه، وعزه، ومجموحته. هو عدته لزراعة ارضه، وعليه آماله في حصاد خصب واقبال. انعم بذلك المحراث واكرم، علة لمعاش الفلاح، يعادلها منصب ذي الوظيفة في المتجر في عالم الغرب

المنزل

«اذ لم يكن لهما موضع في المنزل» (لوقا: ٧/٢)، وانما اريد يوسف ومريم. ووردت الكلمة اليونانية — المترجمة بالمنزل — في آية اخرى: «يقول لك المعلم: اين المنزل؟ (لوقا: ١١/٢٢). وانما اريد منزل الضيف، وما هو الا المصطبة، المتقدم وصفها. فانه كان يحق ليوسف ومريم ان يحلا عند القرايب على الرحب والسعة، ولكن البيت كان قد ضاق باقارب وفدوا قبلهما، فما بقي لمريم الا ان تتخذ لها مضجعاً، عند افريز الدكة، حتى اذا وضعت الطفل المبارك، كان المذود مهده الاكرم. ورب قائل يقول ان منزل الضيوف علّية، حكماً على ما جاء في آية تالية (لوقا: ١٢/٢٢) فهذا لا ينفي احتمال الازدحام، وضيق المقام، اذ كان الوقت وقت توافد للاكتتاب. ثم ان المذود، يرجح الاصطبل او ما هو اليه، فلا مساغ لتصور مذود في علية. فالصغيرة المعاولية فهمت ذلك كله بقريحتها البلدية، وعنها فليأخذ الآخذون

الكور والكوار

«قل ما يحدثنا الكتاب عن رجل الله هذا. وكل ما نعلمه عنه انه استصحب ارملة في رحلة

Digitized by Birzeit University Library

بحرية طابت لها » : هذا جواب ابن المدرسة المهذب الذي التبس عليه لفظ « كروز » الانكليزي للرحلة البحرية ، باللفظ العربي المصحف للكوز ، المعروف . وكان السؤال : « قل لنا ما تعرفه عن ايليا ، النبي » . وكان الطالب مفروضاً علمه بخبر النبي ايليا مع امرأة ارملة من نساء صرفة : « فقام وذهب الى صرفة . وجاء الى باب المدينة ، واذا بامرأة ارملة هناك تقش عيداناً ، فناداها وقال : هاتي لي قليل ماء في اناء ، فأشرب . وفيما هي ذاهبة لتأتي به ، ناداها وقال هاتي لي كسرة خبز في يدك . فقالت : حيٌ هو الرب الهك انه ليست عندي كعكة ، ولكن ملء كف من الدقيق في الكوار ، وقليل من الزيت الكوز . . . » (ملوك الاول : ١٧/١٠—١٢)

ولو عرف الطالب ما الكوز ، وما الكوار ، لهدي سبيلاً . واطرفُ والطفُ ، جواب كتبه ولد انكليزي آخر ، على سؤال آخر عن هـذا النبي . سئل : « ماذا قال النبي ايليا لبني اسرائيل ؟ » فكان جوابه : « قال النبي ، انا هو اليزه ، النونو ، لباسي شعرة جمل واحدة »

النوم

« الانسان يخرج الى عمله والى شغله الى المساء » (المزمور ١٠٤/٢٣) . وما قالها الكتاب ، ولكنها الحقيقة المشهودة ، ان المرأة شريكة الرجل في الجهد ، سحابة النهار ، من الشروق حتى الغروب ، بل ان عملها ليجاوز عمله ، فهي آخر من يطلب الراحة من عناء اليوم

اذا حضر طعام العشاء — وما يطبخ لوجبة غيره — اجتمعت له العائلة . وبعد قليل تمد الفرش ، فراشاً الى فراش . ولكل فراش لحافه ، ووسائده . فأذا نزع اهل البيت الملابس الخارجية ، وعلقوها ، استقل كل منهم بفراشه ، وشاع السقف بين الجميع

بعد هذا فأقرأ : « لا تزعجني ، الباب مغلق الان واولادي معي في الفراش » (لوقا ١١/٧)
« فأخذت يهوشيع بنت الملك يورام اخت يواش بن اخزيا وسرقته من وسط بني الملك الذين قتلوا ، هو ومرضعته من مخدع السرير ، وخبأوه من وجه عتليا ، فلم يُقتل » (ملوك الثاني : ١١/٢) . « واذا بمفلوج يقدمونه اليه مطروحاً على فراش . . . فلما راى يسوع ايمانهم قال للمفلوج . . . قم احمل فراشك واذهب الى بيتك » (متى : ٩/٢ — ٦)

الفصل : ٧

اوجي السماء ام حكمة الارض

الحياة المدرسية — حياة الحقول — الحصاد — البيدر — المذراة — يا كريم — يا رحيم — بعد البيدر

الحياة المدرسية

كنت اشرف على ١٠ مدارس و١٨٨ معلمة ، استستها ، قبلي ، الآنسة لي ، بتبرعات جمعتها من اصدقاء في انكلترة . ولقلة مرتبات المعلمات ، تيسر تقديم الكتب ، والواح الحجر ، وما اشبه ، مجانا . ثم جرت عادت باهداء فسطان لترغيب القرويات في المواظبة ، والحضور على الوقت . وكثيراً ما اعتذرت الصغيرة عن التأخر ، بالرحض ، او بالاستفاء ، معونة للوالدة

والمال للمدارس حياة ، وبمقداره تقدر فوائدها . ويوماً انفتقت الحاجة عن حيلة جميلة للكسب بصورة اجل ، اذ كنت آنس رغبة عند السيَّاح لاقتناء مصغرات المحاريث وجرار الخزف ، فتوسعت في اصطناع مصغرات تمثل الكثير الآخر من نواحي الحياة الكتابية . فأصبت غرضين ، مورداً لمدارس الجليل ، وتنويراً لسبيل قراء الكتاب من اهل الغرب . وكنت استصنع تلك التحف من الخشب او من الحجر الكلسي الابيض الطري . وكان الصانع نجار نصراوي ، فقير الحال ، كفته الموسى كل عدة . فاذا صنع بيتاً قروياً ، بأثاثه ، ومواعينه ، فقد مثل ثلاثين من التشابيه ، والكنايات ، وسائر المغازي الكتابية . فمن اقتنى بقرتين ، ونيراً على الرقبتين ، ومحراثاً معلقاً بالنير ، وانسانا آخذاً المحراث بمسكته ، كان اقدر على فهم الكلام المقدس : « احملوا نيري عليكم » (متى : ١١/٢٩) . . « نيري هين ، وحملي خفيف » (متى : ١١/٣٠)

Digitized by Birzeit University Library

مباة الحقول

اذا اوسمت ، نحو اواسط تشرين الاول ، حدد الفلاح السكة ، وانزل محراثه عن الوتد ، فأصلح ، وغير ، وجعل عدته على حماره ، واعتلى فوقها ، فساق الفدان ، بين يديه ، الى حقله . وحقله ما اصابه اقتراعاً من ارض القرية المشاعية ليزرعه سنته . وبالحبل يقاس له ، كقوله في المزمور : « انت قابض قرعتي . حبال وقعت لي في النعماء.[٤٥] (المزمور ١٦/٥—٦)

اذا وصل الفلاح حقله ، ترجل ، ونزع عباءته ، فالقاها على الارض ، والقى زوادته المصرورة بمنديل ملون ، وهي غداؤه من الخبز والزيتون والجبن . هناك يطلق الحمار ، ويقرن الثورين (العمابين) بالنير . فاذا ادخل عكفة المحراث في شرعة النير ، اقتل المساس بيد ، وجعل الاخرى على المسكة ، وزجر ونهر ، وصاحب الثلم الطويل الى آخر الحقل ، ثم ارتد بثلم يحاذيه ، فدواليك حتى يستبين له من الشمس انه الظهر ، فيدع الفدان ليجتر ، ويعود الى حيث القى ثوبه وطعامه ، وعلى هذه الصورة نفهم المراد بقوله : « والذي في الحقل فلا يرجع الى ورائه ليأخذ ثيابه » (متى : ١٨/٢٤)

وكالترحيب بالوسمي ، اي المتر المبكر ، التوقُ الى المتأخر ، ينهل في نيسان . ومن امثالهم : « الشتوة في نيسان تساوي السكة والفدان » . واذا امرع الحقل ، وتماوجت الوانه بين خضرة الحنطة ، وورود الربيع ورياحينه ، فبين تلك المحاسن والبركات اعشاب برية ، ونبات شوكي ، مما لا خير الا في اقتلاعه وتنظيف الحقل من ضيره . وهنا مجال للتعاون بين المرأة والرجل ؛ وقد خرجت ام البنين ، وعلى رأسها سرير الطفل ، لينشق الهواء الطلق . وربما كان حظه من عنايتها أرجوحة بين فرعي زيتونتين ، تُغنيه عن سرير . وما نصيب المراة من الزراعة الا ما خف عناؤه كالبذر من قمع في الثلم ، او التعشيب . اما ثقيل الاعمال فما زال من كرامة الرجال[٤٦] وكم اسرف كتاب وكواتب في تصوير هذا التعاون الحق الصالح على غير وجهه وحقيقته . وربما وقع شيء من ذلك عن طريق الجهل او الخطإ ؛ ومن قبيله ان عظيماً من عظماء الحكم البريطاني ، في فلسطين ، اوقف سيارته ، وبهامعه اثنان ، حاكم الناحية البريطاني ، ومعاون له عربي ، وقد شهد جملة من النساء في البرية ، وما عهد العربيات يخرجن بعيداً للنزهة وجمع الرياحين . فأمر مرافقيه ان يأتياه بخبرهن . وما كان عند اليهما من ذلك الا مثل استغرابه وتساؤله . فتوجه المأموران نحو

(٤٥) ومثل هذا الكلام قد لا تفهمه الفتاة العربية الحضرية العصرية . اثر من آثار الاستعمار ، يرجى زواله . ومثل ما جذه الفصول الشائقة من هذا الكتاب فوائد جمة لفتياتنا وفتياننا ، وقد قطع التجدد العهد بكثير من صالح القديم ، او كاد . (٤٦) هنا فليرجع القارىء الى تخرصات القسيس الذي فضحه سركيس (بالحاشية الاولى على صفحة ٣٦)

مكتبة بير زيت ١١٩٢

النسوة ، وما دنوا ، حتى تفرقن ذُعراً ، وقد رابهن الغريبان ، واستنربن هذا التعرض لهن ، وهن في شأن بريء الفنه ، وعرفه لهن الناس . وعاد رجلا الحكم الى ولي الامر ؛ فقال الانكليزي منهما : يزرعن البندورة ؛ وقال الآخر : يمشين اي يقلعن العشب . وقال الولي : جهلتما فاختلفتما ، وبين الزرع والقلع شتان ، ادخلا ؛ ويا سائق : امش بنا ؛ نحن من الامر سواسية . وانطلقت السيارة ؛ والثلاثة صامتون

الحصاد

موعده تموز ؛ وقد غلى الماء في الكوز ؛ فالحقول متنزّه ؛ والحصاد بهجة ، ورزق حلال . على ظهور الحمير مواعين ، للنوم وللطبخ . وفوق الاحمال العيال ، الا الطفل الرضيع ، فني سريره على رأس أمه . وما تخلف الا العجوز ؛ فاذا قيدت الديك ودجاجه ، رجلاً وجناحاً ، وجعلت أُمة الطير في « لكن » من النحاس ، اصطنعت لرأسها من الخرَق تاجاً ، ورفعت عليه هودج الطير . ولم يبق الا ان تدير المفتاح الخشبي في المزلاج ، ثم تشكه في منطقتها . وقد أمنت الدار ، وسارت الولية — وحدها — ولا خوف على عجوز

وكالزرع ، الحصاد ، أثقله شأن الرجل ، وأخفّه حظ المرأة . وقد عصم الحصاد يسراه بهَنَةٍ من الخشب ، فانطلقت تميل الزروع لمنجله المستنّة المحنيّة ، تجيلها بيمنه القوية . ومن خلفه الصبية تجمع المحصود حزماً ، والحزم أحمالاً . ثم يدنى الحمار ؛ فاذا تعادل حمله على الجانبين ، دبّ فما يكاد يرى ، او يحسب الحقل ماشياً برزق العامل ونعمة الكريم . ونقرأ مع القارئين : « الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج . الذاهب ذهاباً بالبكاء ، حاملاً مِبذر الزرع ، مجيئاً يجيء بالترنم ، حاملاً حُزَمه » (المزمور ١٢٦/٥—٦)

البيدر

وكالشيوع في ارض القرية ، كذلك الشيوع في بيادرها . وقد خص لها مكان ، بجوار المنازل . اليه تحمل الاحمال من الحقول ، وتركم كومها ، على انواعها ؛ وصاحب الكومة من نقلها الى موضع من البيادر ، وكان هو حاصدها بعد ما كان زارعها . والاستغلال درجات . وهذه درجة الدراس . وعدته النورج ، وهو زحافة من شريف الخشب ، أركزت على بطنها الزاحف أضراس من الصوان الأسود ، ذات نخاريب كالأنياب او البراثن حدّة وصلابة . وقد شُدّت الى جارٍ صبور ، من حمارٍ ، او كديش ، او جملٍ ، او بقرة ، وقام على ظهرها رجل او غلام ؛ فتدور حول الكومة ، تأخذ من أطرافها ، شيئاً فشيئاً ؛ فاذا القش الجاف يتكسر ، ومثله السنابل ، وقد انتثر حبها ، بين الكسارة ، فما تضيره الاضراس ؛ ودواليك الدوران ، حتى يقوم القش المدروس

Digitized by Birzeit University Library

شبه هرم في وسط البيدر. وهذا من الجمع خلط، فيه الصالح، وفيه الطالح؛ وسترى لكل منهما مصيرا

المذراة

المذراة، فاروق، بين الصالح المعاش فيختزن، وبين ما لا خير فيه، فتعصف به الريح او تأكله النار . والمذراة، يد باصابع؛ و كالشوكة؛ ويعينها اداتان اخريان : القلابة، والرفش . وعلى عملها — بعد عمل القلابة التي كانت تكوّر الكديس، وقبل عمل الرفش الذي يجرف الحب، كما يجرف غيره من حب او قصل — على عملها هي المعوّل في هذا الدور من ادوار الاستغلال . بالمذراة يغترف المذري من هرم الخليط، ويرفع، ويذري في الهواء المتحرك من خلفه، فاذا الخليط متفرق : حباً، فقصلاً، فتبناً، على ارض البيدر، و « طباراً » عصفت به الريح . فالحب العيش[1]، والتبن علف، ولبعض القصل منافع، وكثيره يطعم النار . فنقرأ ونفهم : « ليس كذلك الاشرار؛ لكنهم كالعصافة التي تذريها الريح » (المزمور ١/٤) و « الذي رفشه بيده؛ وسينقي بيدره، ويجمع القمح الى مخزنه؛ واما التبن [2] فيحرقه بنار لا تطفأ (لوقا : ٣/١٧)

باكريم

ومما مثلته حفراً في الخشب من صور الحياة، حياة أهل الكتاب، ختم يختم به حاصل البيدر، الى ان يستوفي العشار عشره . وهو مفتاح قوله : « ولا تحزنوا روح الله القدوس الذي به ختمتم ليوم الفداء. ليرفع من بينكم كل مرارة، وسخط، وغضب، وصياح، وتجديف، مع كل خبث (افسس : ٤/٣٠ — ٣١) . عرفت سر هذا الختم، اول ما عرفته، وانا ومعلمة المجيدل، نتناول غداءنا، الى جانب البيادر، بعد جولة طابت لي بين كوم الغلال؛ والريح ريح الشمال . ولقارئي الخبر :

علت الجلبة : مرارة، وسخط، وغضب، وتجديف : واذا باحدهم يقول : ها هي السيدة، نسألها؛ وهي لا تكذب . وتوجهوا، وسألوا : اما كنت تتجولين بين كوم الحنطة ؟

قلت : بلى

قالوا : آلمنت، يا لعين الوالدين

وكان ذلك كله سراً غامضاً، حتى سألت، فقيل لي : ابن الكاب هذا سمسار اتهم احدنا وشك في ذمته، زوراً وبهتاناً، لما راى بعض حروف « يا كريم » قد انهار حبها؛ وكان

(١) بمصر « العيش » للخبز، وبالعراق « الرز » العيش . وبالهند والصين واليابان الرز خبز الشعب اي عيشه . (٢) لعل « انفصل » اصح، والمراد الحرق

ذلك بفعل ريح الشمال، هبت بذيل الفصطان، وانت تمشين على البيدر . فاستري علينا، وقد سمعت ما بدر منا في مجاوبته

يا رحيم

واذ نحن في حديث البيدر، فهذه طريفة من نوادره، بل حكمة من حكمه . قصة حدثني بها شيخ من مشايخ الطيرة، عن دبور يرحم عصفوراً، قال :

« يوماً، منذ سنين، عجبت، وعجب من كان حولي من كبار القرية، لدبور يحتمل حبة الحنطة ويطير بها، ثم يعود فيحتمل غيرها؛ و كلنا قضينا العمر على البيادر، وما عرفنا مثل هذا عن دبور قط . وما كان ولد لي، على مقربة منا، بأقل عجبا؛ حتى انه سألنا هو في امر هذا الدبور، وقد هم به، يريد ان يقتله . فنهيته، وامرته ان يتعقبه، ويرى ما امره . وغاب الولد، واطال الغياب . ولما آب، كان هو يحمل الجواب . كذلك، يا فاضلة . عاد ابني، وبيده عصفور، عصيفير، صغير . وقص ما شهد فقال : ما زلت اركض حيث يتطاير الدبور، فاذا غاب عن بصري وقفت، فأراه عائداً صوب البيدر، فألبث مكاني، حتى اذا مر بي ثانية عدت اتابعه . واذا به، اذ وصل شجيرة، انقض عليها . ونظرت، فرايت هذا العصفور كان اذا سمع ازيز هذا الدبور اللطيف يفتح فمه، فيلقمه الدبور الحبة . وقد جئت بالعصفور لتروه ثم اني سأربيه، فهو يأكل قمحاً، وهذا هو البيدر، نعمة كريم . ونظرنا الى العصفور، فاذا هو اعمى »

ثم علق الشيخ على خبر الدبور والعصفور، فقال : فلئن يكن الخالق قد غير سجية هذا الدبور من الدبابير، حتى بات يرحم هذا العصيفير الاعمى، فلا نقطن من رحمته تعالى وهو « الرحمن الرحيم »

وكان مدار الحديث على المطر، وقد تأخر عن اوانه . فجاءني صاحبي العربي بهذه الآية على ايمانه

بعد البيدر

اذا ادخلت الغلال، فلا يد بعد للرجال؛ وقد جدت للنساء اعمال واشغال . فمن طوال القش تحيك صناع اليدين، سلالا واطباقاً . وللسلة منافع . ومنافع الطبق اكثر فأكثر . وعلى طبق حمل راس يوحنا المعمدان؛ فالصناعة بنت قديم الزمان . وقد يظن الرغيف، يبذل للضيف، آتياً من اهون سبيل . على ان خبزه، لمن يتتبعه، خبر طويل . فمن كوارة القمح الى الغربال، فالى المطحنة، يدير رحاها الماء الجاري، فالى كوارة الطحين، ثم بقدر الى المنخل، فوق المعجن، فعجناً

Digitized by Birzeit University Library

مع الخميرة؛ فتغطية بلحاف لتنمو الجراثيم؛ وقد اطلعت العجين بركة الصليب المرسوم بيد العاجنة. فالتقريص، فالرق، فالزق على الطبق الى التنور او الفرن او الطابونة. وذلك كله من شأن المرأة؛ حتى الماء وقد حملته على رأسها من عين بعيدة؛ وحتى الوقود وقد جمعته من السريس — ولعله عشب الحقل المعني بقوله: «عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور» (متى: ٦/٣٠). وقلّ في مدائن الغرب من تصور الغربال اذا قرأ: «هوذا الشيطان طلبكم ليغربلكم كالحنطة» (لوقا: ٢٢/٣١). وكنت اقرأ: «ولكن اذا فسد الملح، فبماذا يملّح. لا يصلح بعد لشيء الا لان يطرح خارجاً ويداس من الناس» (متى: ٥/١٣) فما ادركت المقصود حتى رأيت امام باب فرن كومة بيضاء كالثلج، فعلمت، لدى السؤال، انه الملح الفاسد، كان تحت بلاط الفرن، يعينه على حفظ الحرارة، فلما فسد، لطول العهد، وفقد ملوحته، رمي به الى مداس الارجل

وقد بقي من ابواب علم صناعة الرغيف باب الخميرة. ومنه قول الكتاب: «خميرة صغيرة تخمر العجين كله» (كورنثوس: ٥/٩). وما فهمته حق الفهم حتى رأيت مرة ربة بيتها تعجن، وقد اذابت الخميرة، وراحت تخلط ذوبها في الطحين، عركاً، وعجناً، حتى اذا بلغ منها الجهد، واطمأنت الى تخمر العجين كله، تنفست الصعداء، وقامت تطلب البركة: «عجنتك وتعبت بيك[1]، رب السما يبارك فيك، منك غدا.. ومنك عشا... ومنك زوادة للطريق»

(١) «بيك» لغة عامية في «بك». وقد أخذ المعرّب هذه العبارة كلها عن المؤلفة كما لفظتها، وكان قد قرأ مخطوطتها، وهو عندها بلندن

الفصل ٨

البخور المحظور

النجاح الفاشل – الميعة – الاظفار – القنة – اللبان – حانوت العروبة ودار التبشير؛

النجاح الفاشل

ومن لابن القرن العشرين بعطار يصنع بخوراً عطراً نقياً مقدساً (خروج: ٣٠/٣٤) ام حق الوعد: «كل من صنع مثله ليشمه يقطع من شعبه» (خروج: ٣٠/٣٨). فما كدت اهتدي الى معرفة اجزاء هذا البخور، فأعرضها في حانوت المدرسة، بمنزلي الناصري، حتى قضى النجاح الذي اصابه ذلك الحانوت على صلتي بالناصرة المباركة وسائر الجليل. وللقارىء كيف كان ذلك

كنت اقرأ، كغيري عن هذا البخور العجيب: «وقال الرب لموسى: خذ لك اعطاراً: ميعة، واظفاراً، وقنّة عطرة، ولباناً نقياً؛ تكون اجزاء متساوية. فتصنعها بخوراً عطراً صنعة العطار، مملحاً نقياً مقدساً. وتسحق منه ناعماً، وتجعل منه قدام الشهادة في خيمة الاجتماع، حيث اجتمع بك؛ قدس أقداس يكون عندكم. والبخور الذي تصنعه على مقاديره، لا تصنعوا لانفسكم. يكون عندك مقدساً للرب. كلّ من صنع منه ليشمه يقطع من شعبه (خروج: ٣٠/٣٤–٣٨)

الميعة

وكنت اسأل عن هذه الاجزاء؛ ما هي؛ واين توجد؛ فما القى بغير قلب الشفاه وهزهزة الاكتاف. فلما تعلمت شيئاً عما بين «العبهر» و«العبهرية» من الصلة الاسمية، وان عصارة العبهر

Digitized by Birzeit University Library

ميعة لزجة صمغية، وان العبهر ما زال عند عوب فلسطين عقّاراً من العقاقير، للعسال وغيره، قلت: لعل هذا الثمر العبهري العطر اللزج العصارة يكون « الميعة » — فهذا اول الاجزاء الاربعة

الاظفار

وعبثاً وسدى ذهب بحثي، طيلة سنتين في فلسطين، عن شيء يقال له « اظفار »، وهو من الاعطار؛ فما افادني بقال ولا عطار. ويوماً، وانا بسوق العطارين، في دمشق، سألت عطاراً شيخاً، جليلاً في الشيوخ، متربعاً على دكة دكانه، معتزاً بمكانه؛ فمد يده الى رف، فتناول حقاً بيضاوياً من الخشب، اكل الدهر عليه وشرب. فنفض عنه الغبار وفتحه، واخرج منه برؤوس اصابعه قلامات قلامات؛ وقال: هذا هو المطلوب. قلت: اهذه الاظفار يا عطار ؟ وانما اردت عطراً من الاعطار! قال: هذا هو مطلوبك بعينه، ولا افخر من نكهة الاظفار، اذا اصابت النار، ومن جرب عرف. وما خفي عليه ترددي في تصديقه. ولكنه انس صدقاً في تساؤلي، فاستطرد، فقال: هو كقلامات الاظفار منظراً. وبالتسمية شيء من الرائحة الكريهة؛ اما حقيقته فغير ما تتصورين؛ وان رمت عطراً فهو عين ما تطلبين. قلت: وما اصله؟ قال: تعرفين المرينة «البزاقة» التي تخرج من الارض اول المطر؛ فهذه القلامات مفتولة من تلك الغشاوة التي تسد فم البوق اذا صامت المسكينة صيامها الطويل. قلت: آمين. وبالشكر، اشتريت كل ما كان عنده من حجاب المرينة الصائمة. فلعله الجزء الثاني من اجزاء البخور، رافع الصلوات، من الارض الى السموات

القنة

والقنّة طينة صلصالية، بلون الخردل، موطنها ومعدنها برية سيناء، وغيرها من براري العربية؛ تجفف، على نور الشمس؛ فان أصابت النار في المجمرة خرجت رائحة حادة جافية تذل المعاطس.

اللبان

واللّبان صمغ عطر يقطر من شجرة صنوبرية. وهذا تمام الاجزاء الاربعة

حانوت العروبة ودار التبشير

ومن لنا ... بعد ... بصنعه العطار !! وقد نهى عنها القوي الجبار بقوله: كل من صنع مثله ليشمه يقطع من شعبه. وما انتهيت عن جمع الاجزاء، ان فاتتني الصنعة. فجعلت اعرضها، بأسمائها، في حانوت الأمثلة الكتابية، في المدرسة المفتوحة تحت مسكني. وبها ازداد الحانوت شهرة. وكان يعجب التراجمة أن يجملوا ذكر ما يطيب سمعه للزوار والسياح من آثار الكتاب المقدس!، فيأتون بهم الى ذلك الحانوت. ومن سمع الآية، وشهد ما يمثل مغزاها، او يجلو

معناها، وقد زهد الثمن، دفع واقتنى، وحمد وأثنى. فراجت سوق القديم الممثل في الحانوت، وبرواجها المدارس الجمعية التبشيرية خير. ولكن للجمعية ميتماً على قمة الرابية، اعتاد القيمون عليه ان يستندوا أكف الكرام من الزوار، بما يعرضونه من الأشغال اليدوية الدقيقة الأنيقة، صنعة العذارى الناصريات، فقل هذا المورد، وشح دره، لسببين: بُعد الشقة، ورغبة الغرباء في اقتنا ما عدوه أصدق دلالة على المعاني الكتابية المقتبسة من نواحي الحياة البلدية — أو قل العربية

وآلت المنافسة بين تمثيل محاسن العروبة، وتيسير مقاصد التبشير، الى الحكم على الحانوت بالاقفال، وعليّ بالانتقال. فمن الناصرة .. الى حيفا، وكان ذلك في سنة ١٩٠٨

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٩

على التبشير السلام

من سعة الريف الى حرج المدينة – الحكم التركي – اهون الخطوب – المبشرة غير المبشر – التهذيب والتطبيب – الصلاة للمبشرين

من سعة الريف الى حرج المدينة

من اراد النقيضين، وجدهما في فلسطين . ففي الطرف الواحد عيشة الريف، الزراعية الرعوية، برحابتها ومباهجها، وفي الآخر سكنى المدن، بضيقها الخانق، وتعاريجها المرهقة . في الاولى جمال الفطرة والقدم؛ وفي الثانية تفرنج، واختلاط حابل بنابل، وغث بسمين . وفي ١٩٠٨ انقطع عهدي بالحياة الناصرية، حيث عشت وصحبي من اهل القرى اقرب الى الارض المباركة وبركاتها

وفي تلك الاونة كان سكان حيفا عناصر واقواماً . فالسواد عربي، والى جانب هذه الاكثرية اقليات عديدة، اوربية، او اوربية مهجنة، ومستعمرة مسيحية المانية استقلت بغرب المدينة . ففي الشارع الواحد تزاحمت القبعة مع الحطة، والطربوش مع العقال . وفي البيوتات العربية، كثر المثقفون، بين تاجر وطبيب، ومحام . ولكن المسحة الغالبة على هذه المدينة كانت ضرباً من التباعد والانحجاز، بخلاف ما عهد في قدام المدائن، كيافا، ونابلس، وغزة، من تبادل الصداقات، وتداخل العلاقات، من ميراث الاجيال السالفة

الحكم التركي

كان الحكم تركياً، والجو اسلامياً . فاذا علت الاصوات، ووقع شجار، وكان المضروب او القتيل غير مسلم، هان الامر، وقيل : دفع الاعظم . اما العبادة فكانت حرة، فللمسلمين

جامعهم القديم في السوق، وغيره، وغير بعيد قامت كنيسة الروم الارثوذكس – والارثوذكسية ام الكنائس المسيحية – وكنائس اخوات : للاتين الكاثوليك العرب، والروم الكاثوليك (الملكيين) الشرقيين، والموارنة، والاقباط . وما قلّت الملة الانكليكانية، الحديث عهدها ولو تأخرت ذكراً

وكانت الحكومة التركية تلي شؤون الملل والطوائف غير الاسلامية عن طريق الرؤساء الروحيين، ولكل طائفة مختار منها، بيده ختم يختم به على بعض المعاملات، كاوراق الخدمة العسكرية وبيوع الاراضي والاملاك . وكان المأمورون في ذلك العهد على جانب من اللطف واللباقة . ومن شكا من حكومة تلك الايام، فانما صحت شكواه على اسلوب الحكم نفسه لا على رجاله المحليين . كان ارباب الحكم في العاصمة يتطلبون المال من ولاة الولايات، لسد العجز، وتدبر الضروري من الخرج، فتتأخر المرتبات، فتؤول حاجة الحاكم المحلي الى ارهاق المحكوم، فيقع الظلم من مظلوم على مظلوم، والناس بين لائم وملوم . وما المصير، والرسوم والضرائب تباع وتشرى ؟ باعها الحاكم لحاجته، فباتت للمشتري من ابواب تجارته، وباء الشعب بالرزايا في زراعته وصناعته، وما استقام للحكومة حال

أهون الخطوب

اما خطوب الاجانب فكانت أهون الخطوب ؛ ومنها جَمع الزمانِ كلّه في « بكرة » . تسمعها اليوم ، مراداً بها الغد ؛ ويأتي الغد ، فاذا هو « بكرة » أخرى . والبرقية المقصودة لليوم تنام حتى الغد ، ولا بأس . ووصل الضيف ، ولم تسبقه البرقية ، فارتبكت السيدتان الطاعنتان . وخطر للضيف أن يحاسب دار البريد ، فكان الجواب : ولِمَ البرقية طالما قصدت الحضور بذاتك ، وها انت قد وصلت بالسلامة

وكانت للحكومة طوابع بريد رسمية . والى جانبها أباحت استعمال الطوابع الأجنبية للرسائل الخارجية ، تحملها البواخر وعليها طوابع دولة الراية المرفوعة على الباخرة . والعلة ان البريد التركي كان قليل الثقة في نفسه ، فيسّر الأمور لأصحابها . وانفتح باباً لهواة الطوابع ، وكنت بين داخليه

ومن بلاويا ذلك العهد المحمولة ، عملته . اساسها الليرة الذهب ، وهي اندر من الكبريت الاحمر ؛ ومعظم التعامل باجزائها الفضية والنحاسية فالعملية عملية الكسور وكسور الكسور . وللقطعة الواحدة في بندر مدينة قيمة ، وقيمة اخرى في بندر آخر

وبرغم ذلك كله ، كانت حياة التبشير على قدر يذكر من الاطمئنان والهناءة . وان

Digitized by Birzeit University Library

عرضت الحاجة الى عون ، فقنصل الانكليز مرفوعة رايته ، مقبولة كلمته . بل كانت الكلمة الانكليزية على الاطلاق بمثابة العهد والميثاق

اما العرب ، فكانوا يحسبون الحكم التركي نيراً في الاعناق ، ويشرئبون ويتحفزون للتحرُّر والانعتاق

المبشرة غير المبشر

سافرت من لندن ، وفي علمي ان بيدي مقاليد امور الجمعية التبشيرية بحيفا . وقبل ذلك كان قد احتدم جدال نظري بين الجمعية والاسقفية حول ولاية شؤون الطائفة الانكليكانية بحيفا ، وانتهى على اسس اللغة واللسان ، فيرسم قسيس للانكليز وآخر للناطقين بالضاد . فلما تسلمت الاعمال ، وجدت يدي في اغلال ، اذ حصرت صلاحيتي في الشؤون النسائية صرفاً ، وجعلت في ما سواها تابعة لمركز الناصرة ، وبين المدينتين اميال ، وحال البعيد كما تقدم البيان

بهذا الخلاف بين معقود الآمال ، وتعقيد الاشكال ، وواقع الحال ، بدئت حياتي التبشيرية في حيفا ، وبه انتهت ، كما سيجيء

التهذيب والتطبيب اولى

قضي الامر ، فاعتصمت بالصبر . وخصت زميلتي الانسة سترنغ بزيارة البيوت ، وبصحبتها القارئة (قارئة الكتاب) العربية ، وخص بي الاشراف على مدرسة البنات . وكانت البيوت موزعة على ثلاثة احياء : الحارة الشرقية ، ومعظم سكانها من المسلمين ، والحارة الغربية ، وسوادها من المسيحيين ، وبينهما واد ، يقال له « وادي الصليب » قيل من صليب مانطي نقش في صخر ، في العهد الصليبي . وكان الحي الثالث « المستعمرة الالمانية » حديثة الطراز ومما وراءها بيوت حيفا القديمة العربية ، المشهورة بالزورة . وكانت مدرسة البنات الدور الارضي من دار ، قلت لياقتها لمعهد تهذيب وتثقيف ، فلا ملعب الا في قاعتها ، ولا مسكن لي وللزميلة الا في الدور العلوي ، وقد شفع له اشرافه على الخليج

فاشتريت أرضاً كبيرة عليها بيت صغير ، وعلى طرفها الآخر أقمت بناء مدرسياً ، تألف من قاعة كبرى ، وثلاث غرف ، لـ ١٥٠ تلميذة ومعلماتهن . وكان الموقع اقرب الى بيوت النصارى ، ولتوسطه وقربه من السوق ، تعذر الوصول اليه على بنات المسلمين . فلما عثرت على موقع قريب من بيوتهن اشتريته . ولكن اقامة هذه المدرسة الثانية اقامت وأقعدت ، واقتضت سفرات الى بيروت ، طالت مدى سنتين من الزمان ، بين أخذ ورد ، دون رد الكيد الى نحر صاحبه . وكان « مفتش المباني » الذي زعم ان سيدة انكليزية تبني قاعدة حربية ، وما كاده فعلا الا

تخييب زعمه ان ابنته حرية ان تعفى من الرسم الاسبوعي الطفيف ؛ حتى اذا صدر الاذن ، قام البناء ، وكانت ابنته احدى المئة ، وتدفع اسبوعيتها كغيرها

وفتحت مدرسة ثالثة في « الزورة » (حيفا العتيقة) . وكان بناؤها نقالا ، وكالعهد الاقامة بالاجار ، فكنا كالهرة وأولادها . فاشتريت أرضاً ، غربي المستعمرة الالمانية ، موقعاً لبناء هذه الثالثة . ولكن الحرب العظمى الاولى عطلت حتى المدرستين السابقتين وجوداً . وانتهى الامر بانسحاب « الجمعية » من ميدان خدمة البنات . اما مدرسة البنات العليا القائمة في حيفا الان فهي من آثار « الارسالية الشرقية » وموجعها القدس

وفضلاً عن مدرستي حيفا ، كنت انفقد مدرسة ثالثة بعكاء ؛ فأركب حول الخليج ، وأقطع نهر المقطع ، « النهر القديم » الرواغ و « النعامين » ، نهر الفينيقيين الذين اكتشفوا على ضفافه صناعة الزجاج

وبالركوب ، ذهابا وايابا ، بين حيفا ، وعكاء ، وشمس الشرق في عيني ، في الحالتين ، انست استدامة لما كنت قد أنفته من قبل ، من التجديد المفيد ، بفضل الاتصال بالريف والحياة القروية . وعن سر ذلك كله ، سَلِ الخلق العربي ، وسجية الكرم وحب الضيف ، وفضيلة ذكر المعروف . فاذا شبت البنية ، وخطبت ، سرها وسر اهلها ان تشهد « الصديقة » العرس والزفة ، ومغزاهما الاشهاد ؛ وهو من حكم الحياة الاجتماعية الصالحة . وتلبية الدعوة من حين الى آخر ، اسفرت عن ضم شيء من التطبيب الى ما كان يقال له التهذيب من مساعي التبشير الخيرية

فأما العقد ، وكتابه ، فصفقة تولاها ولي العروس من جهة ، وولي العريس من الاخرى ؛ وانما العبرة بالاشهاد ، ومظهر الزفاف . فاذا لم يبق الا يومان بعد اقبال أهل العريس واصحابه على دب بيت الغد الجديد ، يحيّونه ، ويرفعون رأسه اعتزازاً باقدامه الميمون ، حل دور المواكب الزاهية ، الفرحة . فالصبايا ، لابسات ، رائحات غاديات ، بالاغاني والزغاريد ؛ وعلى الرؤوس اطباق حافلة بالحوائج . وما تلك الا جهاز العروس ، يتقدمها الى بيتها الجديد

فاذا ألبست العروس ، وقد احسنت زينتها ، اركبت فرساً ، فأسبلت النقاب ، وسارت اميرة يومها ، وفي الركاب أهلها والجيران وشمل الصحاب . واذا وقفت الفرس العاقلة بالباب ، تناولت العروس قرص العجين ، ورشقته على العتبة . فان التصق ، فقد حلت البركة ؛ فتحول العروس ، فتدخل بالعز والكرامة ؛ وتجلس على منصة ، حتى ترى وتُرى . وتخلل ذلك كله الاغاني والزغاريد ، فيسمع القريب والبعيد . وترقص الغواني بين يدي العروس ؛ وترقص العروس بين النساء ، وقد غصت بهن الدار

Digitized by Birzeit University Library

فاذا غابت الشمس شبت النار، فعاد النهار، وقد دارت «الدبكة» حلقة من الرجال، الشباب، يداً بيد، تتجاوب اناشيدهم وأهازيجهم، كالرعد، وقد كادت الارض تحت ارجلهم تميد وتمور، وقد رنحتهم نشوة السرور . كذلك لتعلم القرية كلها ارضاً وسماء، ان فلانة زفت الى فلان. وكذلك الاشهاد في القران، فهما بعد اليوم الزوجان

وبعده يحمل ذكر العروس العريس، الى ان يجد للعروس ذكر بحمل، فآخر بوضع . فهذا يوم الامومة. هو يوم عصيب، يوم الحكم فيه لعجوز، يقال لها الداية؛ وقد تحدث هي بجهلها الداء للنفساء؛ فهي ابعد ما يكون عن الطب والتطبيب

وهذا المشهد من مشاهد رواية العرس صرفني الى باب الحاجة الى شيء من الخدمات الطبية. فأحرزت معونة طبية، وجعلت من الاسبوع يوماً لزيارة القرى الواقعة على طريق معبدة . فكنت والانسة سترنغ، والقارئة، والطبيبة، نختلف الى تلك القرى، ولا سيما القرية التي اشتهرت بالقتلة واللصوص . وفيها تكاثر لي اصدقاء ، بفضل العقاقير، لا بفضل التبشير

الصلاة للبشير

عشية الحرب ، في تموز ١٩١٤ ، فارقت حيفا لتلاق وطلاق. فلما عدت اليها كنت قد طلقت التبشير . وقد تقدم الإباء الى خلاف قديم ، ما زادته سنوات قضيتها بصبر ذاهب الا تمكنا واستحكاماً . فبعد سنوات أربع انقضت على عملي في حيفا ، حدثت حادثة استدعت أهميتها حضور سكرتير «الجمعية» من القدس. وكانت النتيجة ان المرأة مرأة ، حتى في «حقل الرب» وللرجل المبشر «حرم» ليس للمبشرة ان تنقل اليه قدماً . ورفعت المشكلة الى المرجع الاعلى في لندن. فقصدت الى العاصمة ، ومثلت لدى لجنة الجمعية . وبعد سماع أقوالي ، تلطف صاحب الكرسي ، فحنا رأسه قائلاً: تصلك رسالة تحمل القرار . وجاءت الرسالة : وفحواها: ان قصارى جهد المرسلة – اي المبشرة – ان تصلي وتطلب الهدي للمرسلين الرجال

فقدمت الاستقالة بأسف ؛ وقبلت بسرور [1]

(١) من تتبع سيرة المؤلفة وجدها متساوقة بحكمة الحديث الشريف : كلّ امرىء مُيسر لِما فُطِر له . فهي صدّيقة من صِدقها ، صدقت سجيتها انصرافاً الى حبّ الناس ، بنفع الناس ، تهذيباً وتطبيقاً ، وإشادة بجميل مزاياهم . والناس عندها – طيلة خمسين عاماً – عرب فلسطين . سخرت نفسها للتبشير ، كما ازادته لها سجيتها ، فما أطاقته الاّ قليلاً ، خُلِقت للجهاد في سبيل المظلوم ، لا للصلاة والدّعاء له ، ونهب الظالمين

الفصل ١٠

بيتي على الجبل

داري في الكرمل – أفردوس ام دار للبيع – قصر الست – الله وحقي – عقد البيع – الحدود – الحساب والملكان السماويان

داري في الكرمل

فارقت حيفا في ٢٣ تموز ١٩١٤ ، واملي بالعودة ضئيل . وقبل الكلام على العودة ، يحسن بي ان اجمل قصتين ، بكل منهما اثر من حال عهد باد وانقضى، وعبرة وذكرى. ويشفع بطول الاولى، ما بها من خبر جبل الكرمل، ضاحية حيفا الجميلة . ولليوم يقال : «قصر الست» وقل من عرف اصل هذه التسمية. ولليوم اسم «كلر» واسم «شوماخر» الاول قنصل شهير ، والثاني مهندس اشهر . وكان للقيصر الالماني على جبل الكرمل نصب اراده للخلود»: فانكسر واندثر ، ولم يبق له اثر . ولهذه الاسماء بالقصة اصداء.

لما كنت بمركز الناصرة ، زرت غابة الصنوبر على جبل الكرمل زيارة تنزه وتفرج . وبينا المركبة تصرف وراء وقع السنابك، اذا بالسائق – اسكندر – يهتف بسوطه وصوته ، معاً: «فردوس فلسطين» : وقد اعجبه بيت كبير بين سربة من شجر الخروب ، وجماعة من اشجار الصنوبر

افردوس ام دار للبيع

وبعد ذلك اليوم بخمس سنوات او ست، خرجت وصديقتي الانستين برنلو وسترنغ، في جولة من جولاتنا لنتخير موقعاً لمسكن . وكان الحر شديداً وقد نال منا التعب ، فلجأنا الى منزل قسيس الالمان ؛ وكنا نعرفه ونعرف زوجته . فلما علم بغرضنا من التجوال ، قال : ولم لا

Digitized by Birzeit University Library

تشترين هذه الدار؟ قلت: قيل لي انها فردوس فلسطين. قال: بل هي داري، وانا بياع ونمت الصفقة

وخرجنا، وانحدرنا الى المدينة؛ واذا بي اشعر كأن ركبتي تصطكان، فما تكادان تحملان همي؛ لما تصورته من سوء المصير. وقد تمثل لي الجبروت القيصري؛ وتخيلت شوكة النفوذ الالماني في العهد الحميدي، وتصورت العاهل الهوهنزلرني نازلا من يخته، فصاعداً الى القمة، حيث وقف، وتحت يده الخليج، فاقيم عمود ثخين عال، في مقام قدميه، عرف فيما بعد باسمه: « قيصر فص ». وما نبئت ان جنود النبي محطمة ذلك النصب الصلد القائم منذ سنة ١٨٩٨ اثراً لزيارة امبراطور المانيا لسلطان تركيا

ولكفاني رعباً لو ذكرت خطر كلّر، قنصل المانيا، وعظم شأنه في ذلك الزمن. وهو من حدثني عن نفسه فقال انه وصل حيفا وما بجيبه الا مارك واحد واصبع من المقانق. ولكنني عرفته وهو ذو الكلمة المسموعة في البلاط القيصري ببرلين، بفضل ما تم على يده من جليل الأعمال في سبيل النفوذ الالماني في فلسطين. وكانت الجالية الالمانية القوية في حيفا، المؤثمة بقول كلّر تحسب مادانى البحر من مرتفعات الكرمل بمثابة الجزء الخلفي من موطنها بسفحه. فهناك « قيصر فص »؛ وهناك « قصر الست » وهذا ايضاً أثر الماني

قصر الست

شريف من اشراف الالمان، في ذلك الزمان، جاء وعروسه، يقضيان شهر العسل، برحلة بالحيام في الجليل الجميل. وعلى الطريق بين حيفا والناصرة، قتل الزوج قطاع الطريق، وفر المكارون. ولبثت الزوجة الشابة تحرس جثة حبيبها الى ان جاءها كلّر، فعاد بالقتيل والصبية البائسة الى منزله القنصلي، بما وجب من الكرامة والرعاية

وكانت الأرملة الفتاة ذات بأس، وعلى جانب من الغنى، وتحسن ركوب الخيل. وكان يعجبها ويعجب القنصل ان يركبا بين الشعاب والهضاب؛ وما بالكرمل، يومذاك، الا الخلاء والعلاء، ومساكن وادعة لبعض العرب ومقتنياتهم من المواشي. فاشترت السيدة احد تلك المساكن، وارضاً حوله، وأحالته قصراً: واشتهرت بمبراتها. ومنها الانفاق على طريق عبدت حتى صلحت للعجلات. وابيضت اياديها كرماً وجوداً في الجالية الالمانية. فسمى العرب دارها العامرة: قصر الست

الله وحقي

بين يدي الأثرين من شهرة وعلاء، قامت طائفة من المباني الالمانية على الهضاب الكرملية، سميت: كرملهيم؛ وسمي احدها « أرهلنهيم »، اي « منزل الراحة ». وكان هذا نزلا يؤمه

المرسلون وجماعة التبشير. وتأخر حال هذا النزل، فآل الى القس «شنيدر». وهذا، بدوره، وجده كبيراً على حاجته، فباعه. وبثمنه أنشأ نزلا أكبر، في موقع أفضل ظهرت أفضليته، من الوجهة الحربية، للمقاصد الالمانية، في غضون الحرب الأولى. على ان اسمه اللطيف كان: هسبيس المرسلين. وكنت أنا من اشترى ودفع الثمن، أقساطا من العناء في مناهضة ذينك الشهرة والعلاء؛ لا لذنب سوى انني انكليزية شعارها: الله وحقي[1]

عقد البيع

وبعد وضع اليد في اليد، ترددت في امضاء الصفقة، وحاولت الاقالة، بمقالة بعد مقالة، فما ازدادت المقاولة الا تمكيناً. طلبت خارطة. وبعد بضعة ايام جاءني الفسيس بخارطة. وتحججت بتخوفي غوائل انقحامي في محلة المانية قحّة، ما لم ازود بيراءة من « مجلس المحلة ». وبعد ايام عاد المحترم يحمل الي آي الترحاب في طي كتاب، عليه توقيع القنصل عالي الجناب، ونخبة من الالقاب

وبعد الخارطة والكتاب، كتب عقد البيع. ودعا القنصل البريطاني اعيان المحلة الالمانية، وسألهم عن صدق الخارطة، فايدوها؛ فوقع القس، ووقعت. وكان ذلك كافياً فيما بين الاجانب. وما نص العقد عن رسم انتقال غير رسم الفراغ الواجب الاداء عند التسجيل في الدفتر التركي. ولكنني طولبت بضريبة محلية. وكان الهر كلر قد تلطف فرحب بي: ابنة من اهل المحلة: وحمدت له حسن التحية. فلما فرضت الضريبة فرضاً انكرتها، ورفضت ان أؤديها، حتى عدل الطلب شكلاً، فصار نوعاً من التطوع في سبيل تحسين الطرق. وما اشبه من شؤون المحلة. وحلت هذه العقدة بدفع مثل نصف المبلغ

وبطلبي انا، سجل العقد ايضاً في القنصلية الالمانية. وانصرفت وحضرة القس الباشع الى تذييل العقد بقائمة الاثاث، وسائر المنقولات، اذ كان المقصود ان يمهل ريثما يبني له بيتاً ينتقل اليه، على ان يُدفع الثمن على قسطين، الاول عند التسجيل بدائرته الحكومية الخاصة والثاني عند تسلم المبيع خالياً حراً، في خلال ستة اشهر بعد التسجيل الرسمي

الحدود

كان الحد الشمالي معيناً بجدار، والجنوبي صفاً من الخراريب فطريقاً عاما. وتراءى لي ان اقيم

(١) « الله وحقي » تعريب شعار المملكة الانكليزية الفرنسي العبارة Dieu et mon Droit وقد رأى المطالع أسلوب التوئدة والتلطف في ذكر العرب، وطرازا لا يخلو من التتريب في ذكر التبشير وأهله، وهم من الانكليز. ففي هذا الفصل نمط جديد، في ذكر الالمان، عليه من البأس والعناد مسحة ظاهرة. ولا بدع، فالكتاب كله كتبته صاحبتنا وهي في انكلترة، بين أزيز الطائرات، وانفجار القنابل، وأهوال الصواريخ، والمصير، بعد، حليف ألمانيا. والكاتبة انكليزية اولاً وآخرا

Digitized by Birzeit University Library

تصوينة من الخشب وراء الخراريب، فلا تمر المركبات بمدخل الدار لحاً . وفاتحت اهل المحلة في ذلك فعارضوا . فسألت : أالخراريب بملكي؟ وكان الجواب من فم القنصل الالماني : ولو لم تكن في الملك المبيع لك، فانا فرتز كلر، مقدمها لك، هدية . ولكنني ارجو ان تكتفي بشريط بدلا من التصوينة . واراد سلكاً ينتظم الشجرات . فاكتفيت بالشريط

وكان امراً مقضياً، الى ان جاءني، بعد زمن، ان جناب القسيس راح يعدّني مسؤولة عن حصان له يريد ان يتلفه من جراء ما اصابه من شوك الشريط . وما كنت طلبت ان يكون الشريط شريطاً شائكاً . فذهبت الى القس المشفق على حصانه، لنرى في الامر رأياً . وكان القنصل في المقام، تحت الخراريب، والقيت السلام، فما لقيت الا النبر : لماذا اردت هذا الشريط ؟ قلت : ما اردته شائكاً يجرح . قال : لم اردته حيث هو ؟ قلت ان يكن الامر سؤالا إثر سؤال، فقد جاء دوري ان اكون انا السائلة . قال : انت المسؤولة ، وما لك الّا ان تجيبي . فقلت، الخراريب خراريبي، وما لك فيها ؟ قال : هو ما كنت اتوقع وقوعه من فمك . قلت : وهو الحق؛ فانت، انت، جعلت الخراريب خراريب الدار، واجلّك عن الانكار

قال : ولكن اعلمي أن من يُعطي يسترد ، ومن يوجد يزيل ، فليُزَل هذا الشريط . قلت : بل فليبق . وذكرته كيف كان قد تبناني في المحلة ؛ وقد صدمه إصراري ان لا أخضع لسيطرة مسيطر ، وهو « ملك الكرمل » في عرف ألمان المحلة . فسأل سؤاله الاخير : الا تتورعين ان تتجاهلي مطالب المحلة الالمانية بكاملها؟ وكان الجواب بجمع اليد هزاً في وجهه المرعدة فرائصه غضباً : ما خوفي منك ولا من المحلة بأسرها ؛ وانما أخاف واحداً ، لا غير ، هو الله في سمائه ، فوق الجميع . . . قال : ستندمين يا آنسة . . . وبها انتهى الحوار

اما الحصان فما كان به شيء ذو بال

وكانت الخارطة من عمل جار القسيس، وهو المهندس الشهير « شوماخر » . فاستدعاني يوماً، الى مكتبه ؛ وجعل يفصل لي أحكام الخرايط وأصولها ، ليدخل في روعي الشك في قيمة الخارطة ، من الناحية القانونية . فسألته : وما قولك في تلك الخارطة ، وهي من صنعك ، قد عدت جزءاً متمما لعقد البيع المسجل في قنصليتين وفي دائرته المخصوصة ؟ وكان يجهل ذلك؛ فبدا على وجهه ان المسألة وجهاً آخر . وخرجت وانا على مثل اليقين ان المصير الى محكمة

عند ذلك لجأت الى قنصل الانكليز . وانتهى الخلاف على هذا الحد الجنوبي بخارطة جديدة للطريق ، رسمها ولاة الامر ، بعدما حضر والي بيروت بذاته ، واجرى الكشف . وجاءت هذه الخارطة مؤيدة لموقفي . تسلمتها من يد قنصلي ؛ وأقمت جداراً من الحجر في مكان الشريط

وكان المقاول بيروتياً . لان ابناء حيفا كانوا يهابون النفوذ الالماني في عقر دارهم . ولا حاجة بي الى تفصيل ما وقع من التعرض للحجارة ، وهم ينقلون الحجارة . وحسبي ان اقول انني كنت في حاجة الى الوقوف بنفسي ، ساعات طوالا ، بيد شمسية ، وبالاخرى كرباج ، وبالجيب مسدس ، « افرغ من فؤاد أم موسى » لأكون عوناً للعمال ، اذا طرأ طارىء .

ودون تعيين سائر الحدود بصورة ثابتة، ينطق بها الحجر، جد خلاف اثر خلاف، مع القس، ومع المهندس، جار القس، ومع قنصلها . وفي كل وقعة كنت اسأل، فأبني حكمي على الجواب، حتى اذا شرع البناء يبني، بت وقد رجع القائل منهم عن قوله، ووقفت انا عنده، لا اتزحزح فكأنما كان يطيب لهم ان يندموا على كلمة حق، اذا هي خرجت عن حد القول الى حد الفعل

واختلفت مع القس على كثير من اثاثي نقله مع اثاثه . ودام الخلاف حتى عادت القسيسة من المانيا، فاعادت الي ما ملكه علي .

الحساب والملكان السماويان

واختلق القس شنيدر، وهذا هو اسمه الكريم، خلافاً على مبلغ طالبني به، وسماه فائدة على القسط الثاني، غير مكترث بنص العقد الذي علق استحقاقه على التسليم الكامل، داخلاً وخارجاً، وغير حاسب اي حساب لسبب التأخير من قبله هو . وانقضت على هذا الخلاف مدة الحرب العالمية الاولى بطولها . وكنت قد دعوته الى ان يقيم دعواه في محكمة، فأبى

ولما عدت بعد الحرب؛ اندفع باب غرفتي يوماً، وعندي زوار، واذا الداخل بقبعته، القس شنيدر . فما رمى بالقبعة على كرسي، وقد قام الجلوس عن كراسيهم، ذعراً، حتى انطلق يقول : « جئت برسالة؛ ان ملكي السماوي يقول : انه لعليك لي ديناً ؛ فادفعيه » . ثم أصغيت الى بقية ما جاء به من القول؛ ووجدت الرد عديم الجدوى، فاعدت عليه أن يطلبني لدى قاض يحكم بيننا . قال : بل القاضي الحاكم الوحيد هو ملكي السماوي الذي يقول لي انه يلزمك ان تدفعي

ووجدت كل كلام لا يجدي، سوى قولي : عجيب، يا قسيس، اهما ملكان اثنان في السماء؟ ان ملكي يقول : لا تدفعي

فتراجع صوب الباب، وهو يهز السبابة بوقار الواعظ : الا تعلمين انك، ان عصيت ملكي السماوي، فالى جهنم المصير ؟

فسايرته باناة، وقد عللته بلقاء آخر، هناك؛ فيصفى هذا الحساب

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ١١

داري في المدينة

داري في حيفا – جلد التمساح – الايمان في ماري الياس . بعض من زار

داري في حيفا

كان يقال في حيفا: «شمس قادحة، ووجوه كالحة ومياه مالحة». وكان نصيبي: بئر حية، عذب ماؤها، في جنينة، حوت اللوز، والبرتقال، والتين، حول دار لا بأس بها. اشتريت تلك الدار وما حولها من ارض، من السيد سكوبنش، قنصل اسبانيا. ذلك لان نسيم الكرمل العليل، البليل، وشذا الصنوبر، المنعش المنشط، ما كانا ليغنياني عن مشقة النزول والصعود بين المسكن ومواطن العمل في المدينة

جلد التمساح

وقبل الدار وجنينتها، كنت اقتنيت جلد تمساح كان معلقاً فيها – الا رأسه وارجله. فان احدهم كان قد اشترى الراس والاطراف، لغرض غير الطرافة، وبقي الجلد، فأشتراه القنصل من عربيين ذكرا انه جلد تمساح ظفرا به وقتلاه في ماء نهر الزرقاء، قرب قيسارية

وحرصت على الغنيمة حتى قرب اول الحرب الاولى. ولما عدت، بعدها، وجدته ازداد تجعداً. ولما عرفت له قيمة في باب تاريخ الطبيعيات اهديته الى المتحف الذي كان، يومذاك، لدائرة «الزراعة والمصائد» على جبل الكرمل. وما ادري اين غدا، بعد انتقال تلك الدائرة. ولكن اخاً له ما زال محفوظاً في «متحف المباحث الفلسطينية اللندني»

الايمان في ماري الياس

عجيب ايمان الناس في النبي «ماري الياس». عرفت ذلك من قول من قال: ما رزئ في زوجته، ام اولاده، الا لانه حلف كاذباً؛ وكانت قبل ذلك شديدة قوية. وكانت المرحومة زوجة خادم، طالت خدمته الصالحة عندي حتى اخرجته لشبهة ظهرت عليه. وبعدها ظهر انه كان مظنة لريبة ادهى، وكبيرة اعظم. فانه كان قد تواطأ مع بناء بنى لي في «دار حيفا» ثم تخاذلا، حتى اذا انفضحت اللعبة، بعد تدقيق التواقيع على الحوالات، وثبتت صحة الحساب على موجب القرامي المحفوظة عندي، تداعيا الى اليمين في مغارة مارى الياس، ليحكم النبي بينهما هما. على ذلك خرجا من لدن قنصل الانكليز، بعدما قامت البينة الكتابية على براءة ذمتي، وانحصر الخلاف بينهما. وحسبها القنصل صورة من صور ستر الوجه عند ظهور الحقيقة، وطوى على ملف القضية ذيل النسيان

ولكنني بدافع الفضول سألت القيم من رهبان الدير. ووصفت له الرجلين، وذكرت الواقعة؛ فذكر لي ان انسانين، كمن وصفت شكلاً، دخلا المغارة بصحبته، قبل ذلك بقليل من الايام، وبكل من يدي احدهما شمعة. وهذا ادى اليمين قائلاً: احلف بالعذراء، يا ماري الياس، وبجميع القديسين، انني بريئة ذمتي من كل ما يدعيه عليّ صاحبي، هذا الواقف الى جانبي. وان اكن قلت كذباً، فليقطع الله عمري، وعمر زوجتي، وحياة اولادي، وكل من هو عزيز عندي، كما اطفىء هاتين الشمعتين. ونفخ، وإطفأ الواحدة، ثم نفخ على الاخرى، فاطفأها

روى لي الراهب الصالح ما رأى وسمع، وقال: اتركيها بين يدي الله. وصلي واطلبي ان يجعلها يميناً صادقة [1]

بعض من زار

اما التحوير في الدار فتم على ما يرام؛ وانتقلت اليها؛ ومعي اقامت فيها صديقتي الآنسة سترنغ، ثم صديقتي الاخرى الانسة اونوريا تبسُون؛ وكان مركزها في كفريا سيف، حيث كانت تشرف على مدرسة للصبيان. ولما احتل الانكليز البلد، واحدثوا فيه حكومة، كان بعض تلاميذ تلك المدرسة في عداد رجال تلك الحكومة

وممن شرف هذه الدار: «عباس افندي» – السير عبد البهاء عباس – الزعيم البهائي

(١) لا غرابة في وقوع مثل هذا النزاع. وقد انحصر بين خادم وبنّاء. وانما العبرة بسذاجة كل من العربيين، وتقاضيهما الى مقام النبي، باذاء محاولة القسّ الالماني أن يدعي «ملك السماء» لنفسه نصيرا له وحده على هذه الانكليزية ذات الشعار: الله وحقي (وقد تقدمت القصة بآخر الفصل السابق)

Digitized by Birzeit University Library

المشهور. كان يقدم بجلال بهائه، ماشياً على قدميه، وقد لبس البياض من اخمصها الى رأسه. المشتعل شيباً. واتحفني بهدية «عيد ميلاد» سنية، وكانت عباءة. ورآها علي انكليزي من اتباعه، فعجب كيف، بالفعل، خطر لي ان البس هدية المعلم [1]

ولما احتل الفرنسيون دمشق، ولجأ الملك فيصل ورجال معيته الى حيفا، ريثما يستأنف جلالته الرحلة الى اوربة، سرني ان تشرف هذه الدار باقامته الوقتية فيها. وكنت وقتئذ اقيم في بيتي على جبل الكرمل. واي تشريف بعد مسك ختام لرسالة تفضل بها: «واعلمي، ايتها الفاضلة انني الصديق... فيصل»

وفي حينه دخلها اللورد أَلِنبي، ومعه اللادي أَلِنبي، لمناسبة افتتاح فرع فيها لجمعية الشابات المسيحية [2]

(١) بل كان «المعلم الالاهي» في عُرف السواد الأعظم من أتباعه، من انكليز وامير كان. وبعضهم كان يوليني «احتراماً خاصاً» لمجرد علمه بما كان يخصني به «عباس افندي» من مودته الخالصة. ولكن صاحبتنا توطنت ارض الأنبياء، فصارت كابنائها (٢) عرف عن الانكليز فرط تعلقهم ببلادهم واعتدادهم بقوميتهم، ومن ملابسات هذه النزعة فيهم انهم لا يتملكون في ديار غربتهم، حتى ولو انها من الاقطار التابعة لحكمهم. فصاحبتنا ممن شذ عن هذه القاعدة شذوذا صالحاً. فقد اتخذت فلسطين لها وطناً ثانياً، قضت فيه خمسين من سبعينها، وما زالت وهي في لندن، لا عمل لها الا الانتصار، بجميع قواها، لقضية اهلها العرب، في وجه الحكومة، وفي وجه خصومهم كافة

الفصل ١٢

مكان المحرقة

ابراهيم وايليا – عن سطح الدار – جباه الكرمل – نار من السماء – النبع الذي لاينضب – مصير هذا المكان

ابرهيم وايليا

قدم ابرهيم، وأقام في فلسطين، ملبياً دعوة ربه الى التخلي عن عقائد اور الكلدانيين، وقد تصور الاهه واحداً أوحد. ومع الزمان رسخت عقيدة «الروح الاعلى»؛ وفي سبيلها جاهد الانبياء عبادة الاوثان. وبرز وجلى في الجهاد ايلياء النبي؛ وبلغ الاوج في مكان المحرقة على جبل الكرمل، يوم صرخ الشعب عاليا: «الرب هو الله» (ملوك الاول ١٨/٣٩)

وعلى كثرة الحجّاج الى الاماكن المقدسة، وفي صدورهم من التقوى ما فيها، فكم منهم الوفاً نزلوا بساحل فلسطين، وساحوا، وطافوا، وقل ما أدركوا دين العالم لهذه الارض المباركة؛ وقد حسبوها مما تشمله السياحة حول البحر المتوسط، للترويح عن النفس، والفرجة، لا اقل ولا اكثر. ومن هذا الصنف سائحة لقيتها في فندق في القدس، وقد كادت تطير فرحاً بكتاب يحدث عن امور وقعت في البلاد المقدسة، ولم تكن قد عرفت عنه شيئاً قبل ذاك. فلما سرّها انني احب الكتب التي تعنى بهذه البلاد، ذهبت الى غرفتها، واتتني به؛ فاذا هو «الكتاب المقدس». وكانت «جمعية جدعون» جمعيةً خاصة لجعل نسخة من الكتاب في كل غرفة نوم في فنادق العالم

ولما وجدتني من ذوي الوقوف على الكتاب، رغبت الي أن اذكر لها أسماء أهم الاماكن المقدسة. ولم يفتني ان اوجه نظرها الى «مكان المحرقة» الحقيقي، الذي ما زال على طهارته

Digitized by Birzeit University Library

الاولى، غير مشوبة ببناء.

واخرى قضت عجبي، حين سألتني، ونحن نرقي السلالم الى سطح داري في الكرمل لنشهد المناظر : اين نحن من العالم الآن؟ وقلت: على جبل الكرمل، في فلسطين؛ فقالت: فلسطين . . فلسطين، اسم لطيف . . وما شأنها في التاريخ ؟

وان يكن لوقع اقدام الزمان صوت يسمع في مكان ، فذلك المكان هو فلسطين

عن سطح الدار

تحت ، من فوق تيجان بواسق الصنوبر ، صفحة بحر « الكتاب » العظيم . باهر نور الظهيرة المنعكس عنها . وعلى شاطئه تعاقبت تواريخ القدامى – من اشور، ومصر، ومن يونان ورومان . واذا دنت بنا العصور، فتلك عكاء، على طرف الخليج الهلالي، ذي الرمل الذهبي . وما تنسى ذكريات كذكرى قلب الاسد ، وذكرى صلاح الدين

وشمالي عكاء « سلم صور » الملقب بفشخة العروس و « قفزة المهر » – ممر الغزاة ، وطريق الفاتحين ، في غضون الآلاف من السنين

وحول الطرف عن بحر توسط البحار ، تروابي جلعاد ، وصفد « المدينة على جبل » التي لا تخفى . ومما وراء تاج الجبل – « الشيخ » – الابيض، الثلجي الناصع الساطع في زرقة الجلد الصافي . وكيف لا يكون حرمون جبل التجلي حيث : « . . صارت ثيابه تلمع بيضاء جداً كالثلج لا يقدر قصّار على الارض ان يبيض مثل ذلك » (مرقس : ٩–٣)

وشرقاً ، لليسار، حرمون الاصغر، الشبيه بحرمون الاكبر، عبر الخدود . وعلى جانبيه نين وعين‌دور، وشونيم . . . قرى كحرمون، تذكيراً بالقضية الابدية – قضية الحياة والموت

ويميناً ، ترى حيث كان كرم نابوت اليزرعيلي، بجانب قصر أخاب، ملك السامرة، فأراده الملك ليكون له بستاناً، فقال نابوت : حاشا لي . . ان اعطيك ميراث آبائي[1] (ملوك الاول : ٢١/١–٣) . وهنالك، حيث شرب جدعون، وثلاثمئة معه، من عين حاروت (عين الجالود)[2] وهنالك قتل شاوول، وابنه يوناثان، في جلاد الفلسطينيين[3]

وما يرى من عن السطح من وادي اسدرلون الا النهر الخارج منه الى البحر، نهر قيشون[4]

(١) عنوان التمسك بأرض الوطن (٢) بادت « عين الجالود » وعادت « عين حاروث » فقد امتلك الصهيونيون المكان شراءً (٣) وسنرى فيما بعد مذهب المؤرخين القائل بان الفلسطينيين الذين جالدوا يهود ذلك الزمان كانوا العرب ، اصحاب هذه البلاد من قبل ابراهيم وإيليا (٤) نهر « المقطع » يمر فوقه راكب السيارة ، عند برجي التبريد من « المصفاة » على طريق حيفا – عكا

« نهر الوقائع جارف الكواكب » كما قالت دبورة في أنشودتها : « من السموات حاربوا ، الكواكب من حبكها حاربت سيسرا . قيشون جرفهم . نهر وقائع نهر قيشون . دوسي يا نفسي بعز » (قضاة : ٥/٢١–٢٢)

وما وراء وادي الاردن، المنخفض تحت سطح البحر ، ترتفع للعين جبال جلعاد وربوعها . وانظر من حيث تنظر، فمن خلف الجبال ظهور لا يخفى، هو قلب البلاد النابض في دار السلام[1]، الكعبة الروحية لملايين النصارى والمسلمين واليهود، ما كرّت العصور وتتالت الاجيال

بهاء الكرمل

وقبل الكلام على مكان المحرقة[2] اتقدم بوصف بديع مشرق، دبجته يراعة كاتب نحرير[3]، لجبل الكرمل المباهي بذلك المكان :

« لم يجعل اسرائيل الكرمل ميداناً للحملات والغزوات . بجانبيه مرت حوادث التاريخ السوري، وجانبته فما مست له كرامة . على روابيه المخضرة بالزروع قامت القرى؛ وسلم من غوائل المدائن؛ فما كتب له تاريخ سياسي او حربي . وخص برفعة وجلال لم يكن لغيره منهما شيء . تم للكرمل أن يرى من كل حدب وصوب، فكان حقيقة الحقائق، لا حلم الحالم . بعض هضابه رسوخ صامت، والبعض يماشيك ويحاكيك . الكرمل خطوة مداها السهل كله، طولا وعرضاً ، ووقفة بقدم ثابتة تدوس البحر من شط الى شط . وجانبه البحري اول مستقبل لنعمة السماء، تجوده خير أمطارها . ثوبه أخضر منذ كان ؛ اليوم ، ادغال الملول والسنديان والخروب ، وفي القديم ، الزروع والاغراس . ومعنى اسمه : الكروم : وما اكثر آثار الخمر ، والزيت ، من جرن وحجر[4]، في سفوح تلوله المتسلسلة

« يجنسه شبه الملك الشاعر سليمان اذ أنشد : « راسك عليك مثل الكرمل ، وشعر رأسك كأرجوان » (نشيد الانشاد : ٧/٥). وتوحد ، واستقل بذاته، وانفرد، وخلا ، وتنكبته سبل الحروب والمتاجر، فصلح للعبادة . فادعاه البعل لنفسه ، ولكنه افتخر بمحراب ليهوه[5]، قبل يوم ايليا . على ذلك المحراب، ذلك المذبح، مقاماً للعبادة، قام النزاع بين الاديان . ولذلك النزاع قصة جل بها سفر الملوك ، فما تعاد في كتاب ؛ وانما العبرة الكبرى ان النزاع عما اذا كان

(١) تعريب « اورشليم » (٢) اي الذبيحة التي قدّمها النبي ايليا، ونزلت نار من السماء ، فالتهمتها « ولحست المياه التي في القناة » وسيورد النبأ بكامله (٣) هو ج . ا . سمث مؤلف الكتاب المتقدم اطراؤه بحاشية سابقة (٤) « الجرن والحجر » بقية معصرة (٥) « يهوه » الاسم الكتابي للكائن الأعلى

Digitized by Birzeit University Library

« يهوه » هو سيد العناصر وربها ام « البعل » قام في وجه جبل جمع كل ما في ارض وبحر، وسماء، من أماني وآمال[1]

« من قام على الكرمل ، فقد قامت بين يديه الطبيعة ، من ساحل بحري الى قمة البية[2] فالبحر، وقد تمادى شمالا وتمادى جنوباً ، برمله ونخيله ، وسهل ازدرلون[3] وقد اخضل بقمحه وشعيره ، وجبل طابور ، بسنديانه وماوله؛ ومن فوق رؤوس الروابي الجليلية ، وقد طافت بهـا للجلال روعات حالمات ، وقد اعلولى حرمون ، بثلجه البهي المواج ، كالفارقة[4] المنفردة بعزتها، تدلياً من صدر السماء

« في وجه ذلك الكون المصغر اشيد باسم المعبود الذي هو الخلق ، واعلي فوق ذاك الذي لم يكن خلقاً عاليا . وفوق ذلك الملكوت سحّت نعم المطر عندما دعي ذلك الاله الذي نقم لنابوت من الطاغوت ذي الجبروت[5]

هذه صورة واضحة لعزة الكرمل في ماضيه . ولكن للمسيحية اليـه نظرة تترامى الى حوادث بعاد المدى في غده اللانهائي[6]

نار من السماء

يقول العرب « مكان المحرقة » المكان الذي نزلت عليه نار من السماء فالتهمت « الذبيحة» وهو على نحو عشر دقائق ، مشياً ، جنوباً بشرق ، تحت الدير الكرملي المقام على القمـة المعروفة بهذا الاسم ، مكان الذبيحة . وكأنه نعل فرس ، أرض مفتلحة منخفضة دعة ؛في كل من جوانبها الثلاثة جبل صاعد الى السماء ، وقد انفرج الشرقي ، عبر سهول ازدرلون ، عن جبال جلعاد ، عبر الاردن . وينحدر من هذا الجانب طريق ضيق الى نهر قيشون ؛ وعلى عدوة « النهر القديم » تل القسيس ، حيث ذبح انبياء البعل تذبيحاً

في هذا المسرح المنقطع، المستتر في حضن « كون مصغر من ارض وبحر وسماء » تحدى

(١) كلمة كبيرة ، قالها الكاتب التحرير الانكليزي قبل الحربين العالميتين . ولجبـل الكرمل، حصن ميناء حيفا التجاري الحربي ، مكانة ما نراها تزداد الا تمكينا لرجـل المحتل ،وتقوية ليمينه ، فيأبى انقلاعاً (٢) نسبةً الى جبال « الألب » اي عظيمة الارتفاع (٣) يشمل مرج ابن عامر ، تسميةً عربيةً وصفته بالخصب (٤) السحابة المنفردة عن ركام السحاب (٥) تراجع الحاشية ص٦٢ ومتنها. ثم من ينقم لعرب فلسطين ، وهذه بلادهم أرادها الطاغوت ذو الجبروت وطناً قومياً لقوم آخرين؟ أم لنفسه أرادها؟ (٦) هذا قولك ، يا « صديقة العرب » ؛ نقلته واعياني فهمه، وهذه « لجنة التحقيق الدولية » في دار « جمعية الشبان المسيحية » بدار السلام (القدس الشريف) والارهاب اليهودي ملء الآفاق ، تدق له الطبول ، وتُنفخ في الابواق

ايليا كهنة البعل، لمنافسة وصراع، بهما فاز التطور الديني الذي نُسب الى اسرائيل. تلقى النبي كلمة ربه، وازدرى وعيد اخاب ان يقتله اذا ثقفه، فارسل الى الملك الموعد عوبديا المتهادي خوفاً، يعلمه بمكانه، حتى اذا جاءه، استعلى بايد من الله، وامر الملك ان يجتمع اسرائيل وانبياء البعل في جبل الكرمل؛ فاطاع الملك (ملوك الاول : ١٨/١٩)

واتسع المكان للالوف؛ الوف اهل القرى الكرملية، الماثلة خرائبها. اراد بهم النبي ان يشهدوا الحدث العظيم ويسمعوا الصوت الصادع : يهوه هو الرب « الرب هو الله » ليتردد صداه في طول الارض وعرضها

النبع الذي لا ينضب

بعد ثلاث سنوات تتالت جدباً وقحطاً، باتت العيون وقد جفت، الا هذا النبع المفرد المتزوي بين الهضاب. وقد قيل لي ان التحليل الكيماوي اظهر لمائه خواص تعين على تعليل ديمومته. ولماذا تطلب النبي تيسر الماء حيث اراد ناراً آكلة ؟ الانه الهم ان ارضاً رطبة في بقعة مافوحة مسفوعة تجتذب البرق اذا هبت العاصفة، وكان يهبوبها عليماً ؟

نقرأ : « فسقطت نار الرب، واكلت المحرقة، والحطب والحجارة والتراب، ولحست المياه التي في القناة. فلما رأى جميع الشعب ذلك، سقطوا على وجوههم، وقالوا: الرب هو الله، الرب هو الله. فقال لهم ايليا : امسكوا انبياء البعل ، ولا يفلت منهم رجل. فامسكوهم، فنزل بهم ايليا الى نهر قيشون وذبحهم هناك (ملوك الاول: ١٨ / ٣٨ — ٤٠)

ومما يؤيد هذا التعيين للمكان القول بالصعود منه : « واما ايليا فصعد الى راس الكرمل وخرّ الى الارض ، وجعل وجهه بين ركبتيه » (ملوك الاول : ١٨ / ٤٢) . فلو كان المكان على القمة لما قيل هذا القول ، عن الصعود . اما « الوجه بين الركبتين » فصورة الساجد ابتهالا ؛ فاكان ما وقع من النبي من تحد وعنف الا لدفع شر « البعليم » وقد نصره الملك ، زوج ايزبيل البعلية ؛ وكان شراً منذراً بخطر على عبادة الله

في ذلك اليوم نجا اسرائيل من سلطان الشرير ، وصار ينبوع المصـادر والموارد الروحية ، ورائد المسيحية السمحاء.[1] . ومن ثمة ما لمكان « المحرقة » من المكانة . وما كان تخـيره مكاناً لها من قبيل الصدفة ، اتفقت للنبي العلي اتفاقاً . فالكتاب يقول : « فرمم مذبح الرب المنهدم » (ملوك الاول . ١٨ / ٣٠)

(١) لا نكران لسبق الموسوية . وإنما المنكر عناد اصحابها ، وإنكارهم عيسوية سمحاء ، ومحمدية اسمح، جاءتا بعدها . وابى الزمان ان يمشي الا قُدُماً

Digitized by Birzeit University Library

ومنذ يوم ايليا ذاك توالت على تكريم المكان اجيال العصور المتتالية . زاره فسبسيان ، وذكر الرحالة الشهير فندفلد انه وجد فيه عيناً اشبهت صهريجاً ، ينزل اليه بدرج . وللبوم احترام الدروز لهذا المكان مقاماً ومزاراً ، يقيمون فيه الصلاة عاماً فعاماً

مصير هذا المكان

يحف بهذا النبع من الزهر الوانه واعطاره ، ومن الماضي جلاله وتذكاره . وهو المورد العذب الصافي . اليه يتوافد الرعاة بمواشيهم ، وقطعان الغنم والماعز ، لتشرب ، ويشربوا ، والشمس في السمت . وتقصده البدوية لتستقي ، ورشاؤها حبل من شعر الماعز ، ودلوها تنكة كاز ، فتملأ قربها . ومن جراء الاستقاء بالدلو والرشاء ، طين وماء ، هما الحمأة والوحل على فم البئر الحبة

وفي حرم هذه البئر تقص القصص ، وتدور الاحاديث عن شؤون الخيام وبدوها ، والقرى وأهلها . وقلما يخطر للمتحادثين في بال أن أقداماً تحمل قلوباً ، ملؤها الكرامة ، ستطأ حول ذلك الصخر المنبسط الاملس ، حيث قام محراب النبي في يومه العظيم

وقد قال لي قرويّ من اهل الجوار ان القنطرة المعقودة من قديم الزمان ، ما زالت على عهدها ، حكماً على ما ظهر له عندما تصدى لتنظيف فم البئر . قال انه خشي ان يحتفر الآثار ، فتمتد اليه أولاً ، واليها ثانياً ، يد الحكومة بما لا يسر أحداً

ومنذ ثلاثين سنة حامت لي آمال ولابت حول هذه البئر ، توقاً الى امتلاك ما حول حرمها ، شراء من اصحابه من دروز قرية دالية الكرمل القائمة على بضعة اميال من هذا المكان الكريم . وكانت « الدالية » بمعزل عن سبيلي ، ولا صلة بيني وبين أهليها تدنيني من هذه الامنية ، حتى وُفّقت ، في سنة ١٩٢٦ ، الى شراء دار « لورنس أوليفنت » وأرضها ، من أرملته . فانفتح الباب لمؤاخاة دروز الدالية

وعن طريق المودة وفّقت الى الشراء بعقود اتفاق مع هذا وذاك من أصحاب « نعل الفرس » وما داناها ؛ وكان ذلك في سنة ١٩٣٤ . وتسهيلاً للتسجيل ، طلبت من الحكومة ان تنظر في اعتبار المكان مكاناً تاريخياً ، على أن أقوم بما يقتضي من نفقة . ويظهر ان الحرص على عدم التعرض لحرمة الدير الكرملي المتأرجح على رأس القمة حال دون ما أردت وعرضت . وانما قصدت الى سبيل قصد يؤدي الى وضع أمر الملكية في نصابه القانوني ، لان تلك القطع

من الارض لم تكن ملكيتها مقترنة بتسجيل ، وحبل معاملاتها معقّد طويل . فجعلت الامر كله في يد محاميّ السيد البستاني . وانتهى ، في حينه ، بأسناد الملكية ، تسجيلاً باسمي ، وتسليماً بيدي

فأمنيتي أن أصون هذا المكان [1] من عوادي الزمان ، بما يلزم لذلك ، وأن أجعله في يد أمانة دائمة تبيحه لاهل الإيمان ، من كافة الاديان الثلاثة — فللمسلمين وللنصارى ولليهود

(١) المحرقة (بضم الميم) الذبيحة تحرّق للعبادة . فالتسمية صحيحة ، عنواناً لهذا الفصل ، واسما لهذا المكان . وللمعرب وقوف على صحة نية المؤلفة وما عاقها عن تحقيق امنيتها عائق من قبلها وليس هذا مقاماً لمزيد

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ١٣

أرض الموقعة

سهل مجدو – مرج ابن عامر – امس واليوم – هرمجدون

سهل مجدو

بين وادي الاردن وساحل المتوسط، جبال السامرة والجليل الجبلية، سلسلة فقرية في وسط الهيكل الفلسطيني. وحيث تنفصم هذه السلسلة، وتنبسط سهول ازدرلون – هنالك تحت عين الناظر من مكان المحرقة فرجة من الارض، هي الوصلة، القديم عهدها، بين الواديين، وادي النيل ووادي الفرات. من هنا عبر الغزاة الفاتحون، وهنا وقعت الوقائع. خمسة مداخل الى ازدرلون، ساحة الحروب، منذ كانت الحروب. هنا حارب ياراق ودبورة المدينيين، وشاوول ويوناثان، الفلسطينيين. ولما اجتاز فرعون مصر الى الفرات ليصرع اشور، هنا وقف له ملك اسرائيل، ولقي حتفه على ماء مجدّو على سفح جبل الكرمل

وبعد عهود التوراة، من هنا اجتاز انطيوخوس بافياله ومناجقه، وكليوبترة وجواريها بالظعائن والهوادج؛ ثم بمباي ومارکوس انطونيوس، وفسبسيان وطيطس، جميعهم مرّوا هذا القبيل، جيلاً بعد جيل. فالرومان، كاليونان، ذهب بهم الزمان، دخلوا هذا الميدان، وخلفوه لغيرهم ميدانا. وتلتهم امم الصلبان، بناة القصور على رؤوس التلال، عهداً قصير الزمان. غلبهم على حكمهم ذاك الفارس العربي الشريف، صلاح الدين الذي ضرب خيامه حيث شهد اسرائيل من قبل خيام المدينيين والفلسطينيين. طيوف حدثان يستعرضها التصور لليالي الدهر وصروفه حتى سنة ١٧٩٩ – فاذا بنابليون، ومطمعه ملك على الفرات، يطلع على ازدرلون من مجدو. وعن هذا المنقلب ينقلب باول هزيمة يمني بها في زحوفه وفتوحه *

* كتاب ج. ا. سمث، ص ٤٠٩

وامس معركة ١٩١٨ من المعارك الفاصلة، لما تدفقت الجيوش البريطانية، تنصب انصباب السيل الجارف، عبر هذا السهل، شمالا الى الناصرة، وجنوباً الى جنين، وشرقاً الى طبرية. هجوم خاطف صورته حكاية غريبة عن طيار الماني دخل طيارته وسيكارته مشعلة بيده فما رماها الا وهو اسير في قبضة الانكليز. تلك كانت هجمة قامت بها فرق الخيالة – لا الدبابات؛ بها انقلب ظهر المجن للترك والالمان. وجرى فخرها على قائد الحملة النبي بلقب « لورد (سيد) فلكستو ومجدو »

وقد يلوح لاول وهلة ان ايسر مدخل الى سهل ازدرلون يكون من الشاطىء عند « رأس الكرمل ». ولكن اهل النظر ينكبون عنه، تجنباً للمضيق القيشوني المحكوم من جهتين، الكرمل والجليل. فالزاحف من مصر يؤثر ان يفارق سهل شارون، عند الطنطورة، قبل بلوغ الكرمل ببضعة اميال، فيصاحب ممراً سهل المسلك في الهضاب الى ان يواجه مجدّو، فيسقط الى سهل ازدرلون انقضاضاً

وما للاسم – مجدو – من ورود في العصور الحديثة. وانما تأتى تعيين الموقع بأدلة يصح السكوت عندها. منها العثور على خاتم الملك يربعام في « تل التعنّة ». ومنها « تل المتسلم » [1] وقد وجدت فيه اصطبلات الملك سليمان. وتل التعنة هو الاسم العربي المصحف عن العبري للمكان القريب « من ماء مجدّو ». ومن آثار الرومان حصن « اللجون » [2] وهو اليوم اسم القرية العربية بجوار « تل المتسلم » وهذا هو مجدّو التوارة

مرج ابن عامر – امس واليوم

وسهل ازدرلون، ساحة القتال، مرج خصيب، طال ما زود فلسطين بحاجتها من الحبوب، وزاد، فاغناها عن كثير. وصفه لورنس اوليفنت، الكاتب الانكليزي النحرير، وصف العالم الخبير، الذي عاش في قراه، وعرف دساكره، في اواخر القرن المنصرم، فقال في احدى مقالاته لمجلة « بلكوود » :

« قد يدهش القراء ان يعلموا ان كل فدان من سهل ازدرلون يزرع خير زراعة، وان الامن يسود نواحيه كلها، حيثما توجه المتوجه وقصد؛ وانا بذلك كله الشهيد. وها هو اليوم امامي، بحيرة خضراء يتماوج قمحها، حول قرى ودساكر، ناهضة كالجزائر، فوق هضب مستقرة آمنة؛ صورة للخصب والبحبوحة باهرة »

(١) المتسلّم من « تسلم » بلادا، ليحكمها باسم صاحب السيادة عليها، لقب اطلق على مثل الجزار، والشهابي، ومن جاء بعدها. (٢) اللجون من « لجيون » لفرقة الجيش

Digitized by Birzeit University Library

وفصل؛ فقال:

« ومعظمه ملك اثنين: السلطان والسراسقة (الصيارفة السوريين المقيمين في بيروت). وحسبي في تقدير مقادير غلاله أن نفقات نقل الحبوب الحاصلة من مواسم السنة الماضية الى حيفا وعكا، بلغت ٥٠٠٠٠ ريالا؛ كما قال لي السيد سرسق نفسه؛ وهذا عن اراضي السراسقة لوحدهم »

وهذا عين ما كنت اقوله انا لو كتبت سنة ١٩١٤. كل شبر من المرج كان عامراً، مزروعاً؛ والزراع، العرب؛ والحصاد، العرب، رجالا ونساء.

وبهذا الوصف الشائق. يقابل ما جاء في ما تكتبه الصهيونية:

« عندما زار هذه البقعة التاريخية السير هربرت صموئيل، في سنة ١٩٢٠، وكان اول مندوب سام لفلسطين، ما وجد الا أربعاً او خمساً من القرى القذرة المذرة، على تلول متفرقة بعيدا بينها. اما سائر البلاد (الريف) فمهجور، غير مأهول؛ فما من بيت يرى او شجرة. وبين آونة واخرى كان يقف قطار الحجاز، اذا مر، على محطة خالية. وقسم عظيم من الاراضي يملكه ملاكون غائبون. واما نهر قيشون (المقطع) وما انسرب اليه من ينابيع التلال، فأمواه مسيبة، باءت الى الركود، والانتشار، فكثرت المستنقعات الوبيلة، التي اوبأت البلاد بالملاريا. ثم ان حالة الامن في العهد السابق كانت من السوء حيث لا مجال لشيء من الزراعة الثابتة » *

وما احب ان اتهم المندوب الاول في حسن نيته، ولكنه، فيما يظهر، كان ينظر خلال نظارة حجابة. ولقد كان من الطبيعي ان يقل العمال في الحقول، في سنة ١٩٢٠، لقرب العهد بالحرب التي افنت الفلاحين، لفرط ما اصاب البلاد من جراء الخدمة العسكرية التركية. اما الخلو من الشجر، ومن آثار « الزراعة الثابتة » فمرج ابن عامر حقل حبوب، لا بستان بقول. واما الامن، فما اختل الا بعد قيام بيوت الاسمنت المسلح اليهودية، وتسليح سكانها؛ حتى باتوا، حيثما واتاهم الحال من عدد وعدد، يحملون على الفلاحين العرب الآمنين ليجلوهم عن اراض كانت اراضي آبائهم واجدادهم، وانتقلت ملكيتها الى اسماء « ملاك غائبين » — باعوها، وكان اليهود المشترين [1]

هر مجدون

وقد سلمت من البيع « ارض مجدو » نفسها. وسائر ما بالمرج من اراضي قرية ام الفحم.

كتاب : Thy Neighbour بقلم المورد ملتشت، ص ١٤٣

(*) جذا البحث عن أراضي مرج ابن عامر (سهل أزدرلون) والشهادة لها بالخصب، ولأهاليها العرب بالنشاط، والردّ على المندوب السامي، دفاعاً عن الحقيقة، وردّاً للظلم — بهذا الكلام الطيب مبدأ انتصار المؤلفة لعرب فلسطين في قضيتهم الوطنية

سلمها انها من الاراضي المشاعية، وان حصة كبرى منها آلت لارملة الكاتب الانكليزي المذكور — لورنس اوليفنت، وان على هذه الحصة خلافاً قديما. وقد اشتريت هذه الحصة لما كادت تذهب ضحية ذلك الخلاف [1] ويقيني ان « هر مجدون » ستبقى في ايد عربية

و « هر مجدون » اسم عبري لمكان ذكره القديس يوحنا في سفر الرؤيا (١٦/١٦). وذهب بعض العلماء الى ان القديس استعار هذا اللفظ من الاسم البابلي: يشمجدون: وكان اسم معبود بالعالم السفلي. ومهما يكن من اصل هذه التسمية في الفقه اللغوي، فالكلمة تستعمل في الكلام على معركة.. قيل « تكون معركة تشتبك فيها امم الارض قاطبة » [2]

وكثيراً ما نتساءل عن هذه العالمية الثانية: اهي « هر مجدون » ؟ « فان مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء السلاطين، مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر، مع اجناد الشر الروحية في السماويات » (افسس : ١٢/٦)

---

(١) حصة كبرى من هذه الارض آلت الى ارملة الكاتب الانكليزي لورنس اوليفنت المتقدم ذكره، ولم تسكن البلاد؛ وآل تبرعها بالملكية المشاعية، وعدم تمكنها من افراز الحصة الى توكيل محام يهودي بيعها — وبالطبع — الى الصهيونيين. وكانت المؤلفة قد اشترت من ارملة اوليفنت داره وارضه بدالية الكرمل، كما جاء في الفصل السابق، وشق عليها ان تمتد اليد الصهيونية الى هذه البقعة الاثرية النادرة المثال، في مرج ابن عامر، فعملت على الغاء تلك الوكالة بالبيع، واشترت الحصة بكاملها، وذلك من سنة ١٩٣٦، وهي لا تبيع الى غير عربي. ثم ان اراضي القرية كلها واقعة في المنطقة المحظور البيع فيها لمن ليس عربياً فلسطينياً. وهذا من صديقة العرب الانكليزية انتصار للعرب بفعال مجيد (٢) من هذه العبارة عنوان هذا الفصل

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ١٤

جد القمح

القمح البري – التينة المظلومة – اخت هارون

القمح البري

القمح البري ، جد القموح ، وجده واجده في روابي الجليل ؛ وعلق على اكتشافه آمالا كباراً ، ونفعاً للانسانية جمعاء . ارانيه ، فاذا هو اشبه بالشوفان . ومن حديثه عنه انه جد القموح ، وانه بري ، وذو مناعة طبيعية ، تقيه الافات التي تفتك بانواع القمح والحنطة المعروفة . وكان من اهل العلم والخبرة في الشؤون الزراعية ، ومن اهل البحث والتنقيب ، على الاساليب الحديثة الفنية ؛ يستعين بالمجهر ، ويواصل التجارب ، بدقة العالِم ، وصبره ، وجلَده

هو آرون آرونسون (هارون بن هارون) ، من بني « زكرون » — « زكرون يعقوب » — اي ذكرى يعقوب ؛ وهي زمارين ، المستعمرة اليهودية التي اشتهرت بخمورها وبتعاون الأوائل من يهودها مع جيرانهم العرب . عرفته ، اول ما عرفته ، اذ جاءني ، يريد ان يشتري مني ما زاد عن حاجتي للمدرسة الثالثة من الارض التي كنت قد اشتريتها غربي المحلة الالمانية بحيفا . قال انه اراد الارض لتكون حقلاً للتجارب الزراعية . واشترى مني ما لزمه ؛ ولكنني فيما بعد ، زرته في معهده « الزراعي العلمي » ؛ وكان في مكان آخر

التينة المظلومة

كان هرون بن هرون يطرف ويتحف اذا وقف في الحديقة يحدث سامعه عن عجائب الحياة

وعمّا بين الحيوان والنبات من صلات ، معلومات وغير معلومات . ويوماً نظر الى تينة شيخة ، في جنينتي ، سقيمة ، مسكينة ؛ فقال : ومن اين لك هذه ؟ هذه غريبة ! . قلت : كانت حيث هي ، لما اشتريت الدار . وما خطر لي الا انها بنت البلاد ، فما لك تعدّها غريبة عن اسرائيل ؟ وانطلق الفتى العالم يفصل امر هذه التينة ، فقال ما مؤداه : انها تركية ، ازميرية ؛ وازمير ام التين . وهي من اشهر انواعه . واخذ منها بعض تجار كاليفورنيا ، وغرس ؛ ونمت الاغراس نمواً عجيباً ؛ وفي السنة الثالثة ظهر الحمل ، فكان اعجب . واعجب العجب ان كل ثمرة سقطت ... دون النضوج . فما كان ثمرها الثمر الصالح للحياة . ولحين ظن تجار العالم الجديد ان اهل ازمير خدعوهم وغشوهم فاعطوهم فسائل تين عقيم . ولما حق الحق وزهق الباطل ، ظهر ان لا غنى لهذا النوع من التين عن حشرة ، تعيش عليه عيشة حامية طفيلية ، ولكنها تكفل له تلقيحاً صحيحاً ، ليأتي نتاجه سليما ، فيثبت ثمره حتى يبلغ ، ويصلح . فراح تجار التين ينقلون الى مزارعهم من امة الحشرة

قلت : مسكينة ، هذه التينة . قال : ومظلومة

اخت هرون

وكان لهرون اخ ، اسمه الكسندر ، واخت اسمها سارة . والثلاثة معاً لعبوا دوراً في سلك المخابرات البريطانية في اثناء الحرب العظمى الاولى . ومن امر سارة ، انها الفت منظمة سرية ، اسمها : نِلي : ضمّت عشرين عضواً ، عظمت خدمتهم للقوات البريطانية . ثم اكتشف الاتراك امر سارة ؛ فاطلقت النار على نفسها بيدها ، لتنجو من يدهم . وعاشت ثلاثة ايام ، ذوقت فيها الموت الواناً ، علها تبوح بما ينفعهم ، فما فاهت بكلمة . وفي سنة ١٩٤٢ ، احتفل بمرور ربع قرن على انتحار سارة آرنسون ، في فلسطين

اما اسكندر ، فسلم ؛ وصار ، فيما بعد ، مديراً لمسرح لندني

وهرون نجا ؛ وانما نجاه علمه . فانه عين لمنصب زراعي في الحكومة التركية ؛ ولما مُكّن له ، وبات من اهل الرأي وموضعاً للثقة ، مع شيء من المراقبة ، عرض انه بحاجة الى معلومات فنية لا بد من السفر الى اسوج للحصول عليها من جامعة ذكرها . فيُسّر له السفر تحت نظر الالمان ، حتى انس يوماً غفلة للعيون المبثوثة في اثره ، فاغتنمها فرصة لركوب باخرة من بواخر البحر الشمالي . وكان امره معروفاً عند رجال المخابرات البريطانية . فتسلمته سفينة حربية في ظهر البحر . وكانت نجاته الى اجل سمي له ، ليموت في سبيل دولة احبها . فانه كان من الخبراء في الشؤون التركية ،

Digitized by Birzeit University Library

والمصرية، والفلسطينية؛ فشهد مؤتمر الصلح؛ وكان الامين الناقل لرسائل بين لندن وباريس.
ولما جاءه اجله، قضى غريقاً، حيث سقطت طائرة كانت تقله في البحر
وما ادري ما صير قمحه البري، جد القموح [1]

---

(١) بعد الحديث عن مرج ابن عامر، وغلاله، والقمح رأس الغلال وفخر المروج، حدثتنا الصديقة عن «جد القموح». وهنا نراها اطرأت من اليهود هارون، واخت هارون، واخاً لها، وذكرتهم بخيرهم. فما هذه الفاضلة بظالمة لأحد في انصراف نصرتها الى العرب وقد ظلمهم ظالمون، ستتضح ظلمهم فصولها الآتية

الفصل ١٥

الحرب وراء الباب

الحرب وراء الباب – العمل الوقتي في لندن – عون المعين لسورية وفلسطين – أخوية فرسان القنديس يوحنا المقدسية

الحرب وراء الباب

بعد انقضاء ربيع ١٩١٤، حدثني صديق عربي عن شائعة شاعت عن رسائل مختومة، وزّعت على الزعماء، على ان لا يفضّ ختامها الا اذا دنت الساعة؛ ولزمت الطاعة. وتتمة الخبر، ان فضولياً افتضّ رسالته، وآخر عرف مضمونها، ومؤدّاه: «الحرب وراء الباب». فما معنى ذلك، وما لمثله من أسباب، أم الحرب العَجب العُجاب؟

وفي اواخر تموز ذلك العام، كنت على أهبة للسفر، لتمضية العطلة الصيفية، ومدتها ستة اسابيع، في سويسرة، الا بضعة أيام للتعريج على لندن، لمواجهة أُولي الامر في مركز رياسة الجمعية التبشيرية. واذ مررت بالحدّاد الالماني، وهو في الجنينة يصلح لي خللاً طرأ على دولاب الهواء، فيها، حييته بشكري وسروري ان لا تُحرَم الازهار حقها من الماء في غيبتي؛ فقال: «وغيرك أولى بشكري، وبالسرور اذا دار هذا الدولاب». وبعد اربع سنوات ادركت مغزى ذلك الجواب. فان الجهاز كان قد نقل الى بئر السبع ليُخرج الماء من آبار ابرهيم للجيوش التركية والالمانية الزاحفة على قناة السويس

وركبت الباخرة الفرنسية – المساجرية. وصفرت، ومخرت، والارض ارض، والسماء سماء؛ وما بالنفس شي من أمر، حتى قرأت، ونحن في مضايق مسّينا، نشرة الانباء على الباب – باب غرفة الطعام – والى جانبي صديقة، فقلت: قتِل فرديننند، الامير النمساوي، وقُتِلت

Digitized by Birzeit University Library

زوجة الامير ؟ هذا خبرٌ على الباب ؟ « فالحرب وراء الباب » . قالت الصديقة : يا لك من « قَصَنْدَرة »[1] !

وما نزلنا في مرسيليا الاّ والتعبئة على قدم وساق . وواصلت ورفيقتي السفر . ما عاقنا عائق الا في باريس ؛ أبى خادم المطعم أن يقبل عملة الانكليز الورق . وتدخل ترجمان الطباخ ، وكان يعرفني ؛ فأسلفني نقداً فرنسياً ، فانصرفت القضية

وصلت لندن مساء الجمعة . ويوم الاثنين ، الرابع من شهر آب ، اعلنت بريطانيا العظمى الحرب . فكانت زيارة « آخر اسبوع » لا تنسى ؛ اذ استطالت فتجاوزت اربعا من طوال السنين

العمل الوقتي في لندن

اما أولُ[2] الامر في مركز رياسة الجمعية ، فقبلوا استقالتي ، وقد تقدم البيان . ودون العودة الى بيتي في حيفاء ، الحرب ، وما لزمني من خدمة استطيعها ، الى ان تضع الحرب اوزارها . فلبيت الدعوة الى الانتظام في سلك الشرطة النسائي . وما كرهت العمل في سبيل السهر على الفتيات ، وصغار البنات ، وصيانتهن من الموبقات . وكفت الشرطية شريطة على زندها ، شعاراً عاصماً ، يخولها سلطة القانون . ومما خصني من حرماته ما اتصل بالآداب . وتسلحت بتجربة السنين وحكمتها ، وبالشريطة ، فتمكنت من عون الكثيرات ، والابتعاد بهن عن مواطن الآفات

ودعيت يوماً للكلام في ناد من نوادي « الغربية »[3] ، وكان الموضوع موضوعاً متصلا باعمال الشرطة النسائية ، وبالكرسي قاض من القضاة . وبعد المحاضرة ، عقّب صاحب الكرسي ، فقال انه ما زال غير مؤمن ببدعة البوليس النسوي حتى انس بعد احداثها تناقصاً محسوساً في عدد قضايا صغريات الفتيات في محكمته . ثم قال ، وهو ينظر نحوي مبتسما : « فصرت اذا مررت باحداهن ارفع لها قبعتي احتراماً » . وكفتني تلك التحية اجرا على العمل وشكوراً

عون المعين لسورية وفلسطين

وما كرهت خدمة استطيعها في احياء لندن . ولكن روحي كانت قد لبت دعوة الى العمل في فلسطين ، وما انقطع اليها الحنين . فلما عرضت فرصة للاتصال بوطني الثاني ، ولو عن

(١) تقال مبالغة في التشاؤم ، اخذاً عن قصة يونانية (٢) الواو في « اولو » زائدة كالألف في « مِائة » فالتعويل على حذفها اولى (٣) اي القسم الغربي من لندن ، وفيه اهم احيائها

بعد ، اغتنمتها . فان المطران مكنس ، الاسقف الانكليكاني في القدس الشريف ، كان وقتئذ في القاهرة ، وقد احدث هيئة تعمل لاعانة عرب سورية وفلسطين ، وقد اصيبوا ونكبوا ، وبرّح بديارهم المرض والجوع

وألفت لذلك لجنة في لندن ، برياسة السير هنري مكماهون ، وكنت سكرتيرتها[1] . وكان من عملي التجول ، من مدينة الى مدينة ، لعرض صور من مشاهد الحرب ، والكلام بما يعين على تفسير بعضها . وطاب لي هذا العمل ، وما خلا من نوادر الطرافة . وكثيراً ما اتفق ان يكون الخطيبان الرئيس والسكرتيرة . ويوماً ، وصلت والرئيس الجليل ، المكان المعين لنزولنا في مدينة ريفية ، وسألنا الفتاة ، فقالت : « بلى ، عندنا عنكما خبر ؛ وقد أعددنا لكما غرفة مزدوجة كبرى في الدور الاول ، وهذا مفتاحها » . فانداد الرئيس يسألني : ايعجبك ما تقول الانسة ؟ قلت : « وما قولك انت ؟ » فخجلت الفتاة ، وأعجبتنا النكتة

وليلة كانت المحاضرة في « دار البلدية » وبالكرسي محافظ لندن . وكان اجتماعاً موفقاً . تكلمت فيه سيدة عربية ، فهزت اريحية السامعين بما وصفته من حال مواطنيها وجدارتهم بعون المعين

وان كنت قد حلمت بأجر أناله عن قليل ما استطعته في انكلترة في سبيل عرب فلسطين ، فانني اوتيته على خير وجه يكون ؛ وكان « البشرى » . كان الاجتماع اجتماعاً في كلشستر ، والخطيبان الرئيس والسكرتيرة ، وفي الكرسي ، قائد ، قدم من فلسطين ، من قواد الحملة . وبينا السير هنري مكماهون يخطب وصلت يد القائد ، صاحب الكرسي ، برقية ؛ فلما قمت لالقي كلمتي ، قال : انت تقرئين هذا الخبر . وكان خبر تسليم القدس للجنرال ألنبي وجيوشه . قرأت البرقية . فساد السكون . ثم نهض الجميع ؛ فرتلوا ترنيمة الحمد[2] . وأصابني من الفرح ما لا يصفه كلام

اخوية فرسان القديس يوحنا المقدسية

وفي ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ ، حضرت صلاة الشكر التي اقامتها أخوية فرسان القديس يوحنا المقدسية في كنيسة رئاسة الاخوية في كِلِرْكِنوَلْ ، اذ كنت من اعضاء الاخوية . وكانت الخطبة لرئيس اساقفة يورك . وقال فيها : « ان تكن لندن من الامبراطورية مدينة تجارتها ،

(١) خطئاً عربت « سكرتير » بكاتب السر ، او امين السر ، وتطور هذا الثاني الى « الامين » وكان ذلك لزعم من عرب ان اللفظ من مادة « سر » ، على انه من مادة « كتب » . وكانت العرب تقول : كاتب الخرج والدخل : لمثل من هو اليوم وزير المالية . وما زال المعرب في تردد ، ويكاد يرجح التعويل على تعريب التصحيف ، فيقال سكرتير وسكرتيرة (٢) افكانت حرباً صليبية ؟ وان كانتها ، أفتمهيداً للدولة اليهودية التي جهر الصهيونيون بطلبها ؟

Digitized by Birzeit University Library

فالقدس مدينة روحها . انه ، ولا ريب ، لعهد جديد للمدينة وللعالم أجمع » . وكان الشكر من أجل « خلاص القدس »[1]

وجاءت من فلسطين بشرى دخول الجيش العربي المظفر مدينة دمشق ، بقيادة الامير فيصل ، ومعه الكولونيل ت . إ . لورنس . وكانت المدينة بحاجة الى شيء من عون الانسان للانسان ؛ فطلب الجنرال النبي الى جمعية الصليب الاحمر البريطانيـة امداداً في ميدان البر والاحسان . فاستشارت الجمعية الاخوية ، وهذه شاورت لجنة عون المعين لسورية وفلسطين ، لسبق وجودها في الميدان . وآل التشاور الى تأليف لجنة ثلاثية ؛ فمثلت هيئة عون المعين

وشرفتني الاخوية في ذاك العام برتبة « سيدة العدل » . وكان الشرف الاكبر تقليدي وسام الاخوية على يد رئيسها ، صاحب الجلالة الملك جورج الخامس ، في قصر بكنهام

وتلقيت ارق تهنئة من صديقة مقدسية ، مهمت بترقيتي ، فسرها ان تقول : انت يا عزيزتي من اللاء لسن بأحد من الناس ، فجعلت سيدة العدل في اخوية الفرسان . وحسبي ان اكون «لا أحد» . وفخري أنني حاولت ، مدى نصف قرن ، ان اعمل بشعار هذه الاخوية المقدسية : في سبيل الايمان ونفع الانسان للانسان [2]

(١) ما معنى هذا اليوم ؟ أم غداً الجواب ؟ ان غداً لناظره قريب ، ولو بعد (٢) هنا أورد الاصل الشعار بنصه اللاتيني : Pro Fido Pro Utilitate Hominum

الفصل ١٦

بين الخـارطة والراية

الملـك فيصل والكولونيل لورنس – سكة الحجـاز – سفرة الى مداين صالح – لو فطنوا – راية الاستسلام في دار السلام :
في ٩ / ١٢ / ١٩١٧

الملك فيصل والكولونيل لورنس

عندما تشرفت بالمثول لدى الملك فيصل ، في فندق كرلتون ، بلندن ، لمقابلة اتاحها للنظر في امر متصل بالبر والاحسـان ، كان مقدمي بين يدي جلالته الكولونيل لورنس ؛ وما كنت عرفت الكولونيل قبلها . وكان هو من حدثني عن سفرتي بقطار الحجاز ، وعن خارطة وصور كنت قد قدمتها للحكومة البريطانية ، فقـال : « انها نفعت في حملة الصحراء » ؛ فسرني . وللقارىء الخبر .

سكة الحجاز

كنت اسمع كثيراً عن هذه السكة ، من افواه الامهات والارامل ، وعما عاناه عرب جندوا لها تجنيداً اجبارياً ، وكانت خدمتهم العسكرية العمل في مد خط حديدي عرف بهذا الاسم اليمين . وكثرت الاقاويل في الباعث على احداث هذه السكة . ومنها ان السلطان عبد الحميد اراد بها الموازنة بين التقول السياسي في اوربة والشعور القومي العربي الاخذ في الانبعاث ؛ فخطر له ان يستعين بالحمية الدينية العربية على تمكين خلافته وامارته على المؤمنين . واية وسيلة لمثل هذه الغاية خير من انشاء سكة حديد تمكن الحجاج من بلوغ الارب في ايام خمسـة ، بدلا من اربعين ؟ وجعل يده اليمنى لاحداث هذه المبرة عزت باشا العابد ؛ وكان عربيـاً سوريا من رجال

Digitized by Birzeit University Library

الخاصة السلطانية

كان للمشروع مجلس مديرين، مركزه دمشق . اما المهندسون فكانوا من الالمان . وتم مد الخط، وطوله ٩٠٠ ميلاً، في سنة ١٩٠٨ . وافتتح بابهة اشترك فيها تُرك والمان . وبلغت النفقة: ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ليرة استرلينية، حصلت تبرعاً وتطوعاً؛ فكنت أنا، مثلا ادفع نصف شلن كلما اجتزت الرّصيف لأركب الى بيروت، بحراً. اما المبالغ الكبرى فما سخت به اكفّ المسلمين من اهل الهند

كذلك احدث عبد الحميد سكة الحجاز، من دون ان تكلف صندوقه او خزينة الدولة الا قليلاً . وما من أحد يعلم كم كلفت المجند العربي عرقاً، ودماً، وروحاً زكية

وكان الخط الرئيسي: دمشق — المدينة، والخط الفرعي : درعا — حيفا . وهذا الفرع من الخط المبارك وجه حيفا على خارطة العالم. وكانت قبله ثغراً من الثغور بين يافا وبيروت على الساحل السوري، فصارت ميناء الديار الاسلامية المقدسة

سفرة — الى مدايه صالح

كل ممنوع محبوب، ولا سيما اذا كان صالحاً، كسفرة بقطار الحجاز لحاجة[1] « سيدة عدل في اخوية فرسان القديس يوحنا المقدسية » . فلما سنحت الفرصة، سعدت باغتنامها؛ وكانت دعوة كريمة من والدة مأمور المحطة بمداين صالح. ومع ان الصديقة العربية نزلت في درعا، لتركب الى دمشق، فانها أوصت بنا خيراً، وكانت قد كتبت الى ابنها، ليحسن استقبالنا. وكانت معي صديقتي الآنسة سترنغ؛ واستصحبنا أبا سليم خادماً نلجأ اليه عند الحاجة؛ واستأنست بمدس، كان لي بجمله عهد

وصلنا « معان » — أخت « بترا »، « المدينة الوردية، معاصرة الدهر» نحو الغروب ؛ فاذا المحطة حسنة المباني الحجرية؛ وأحسنها دار رئيس المهندسين، ميزنز باشا. قيل انه كان يأمل ان يبني خطاً فرعيا يصل معاناً بالعقبة. أمنية المانية ترك تحقيقها للبريطان والعرب

ومن معان، اجتزنا مجاهل مهجورة، حتى جئنا واحة في صحراء، تبوكاً، القرية المبنية بالمدر، الا المحطة والمحجر الصحي، فبالحجر. وكان وبأ « الهواء الاصفر » ذريعاً فتكه بالحجاج؛ وقد كثرت القبور والمقابر بين مشاهد الرحلة. وقيل نصف تذاكر « الذهاب واياب » انما استعملت

(١) الحاج والحاجة يطلقان على من زار الاماكن المقدسة النصرانية ولو اكتفى منها بزيارة كنيسة « القيامة » بالقدس الشريف

ذهاباً فقط؛ وكثيرون، ولاريب، آثروا طريقاً أخرى. وافتخرت تبوك بمسجد يصلي فيه الحجاج مدة الحجر الصحي

وكنا نعلم ان بعض البدو كانوا ينظرون الى قطار البخار بعيون حمر، لانقطاع رزق القوافل. فلما وقف بنا القطار، المتألق بالانوار، ساورنا شيء من الخوف؛ وكان السبب خلل طرأ على القاطرة؛ ولا قبل لنا بمثله الا الصبر الجميل. وطال الانتظار الواعي الاليم، حتى غلب النعاس، فأنسانا كل باس. وما طالت الاغفاءة ؛ وقد طرق الباب علينا ابو سليم طرق الواثق الامين، وكدنا نحسبه مذعوراً. فلما فتحنا حيتنا بشاشة المضيف. فحمدناه خللاً، لولاه لاختلت السفرة كلها. كان المكان مخفراً؛ وقد وقف القطار القائم من مداين صالح، وبه مأمور محطتها. وشاءت الصدفة فتناول كتاب والدته اليه؛ وأبت شيمته الا ان يؤخر سفره للقاء والدته في دمشق ويعود بنا ليكرمنا في مداين صالح . وبلغناها عند الثالثة صباحاً . وحسب التأخر، فكان اربع ساعات

وكان بيت جميل افندي الدور الاعلى من بناء المحطة . وخرجت زوجته لاستقبال امرأتين؛ فكالحورية حسناً واشراقاً، بطلاقة المحيا العربي اذا هش للضيف وبش، واهل ورحب. وهيأت لنا فراشاً، كالثلج نقاء؛ ولما أفقنا، طاب لنا الشاي والبسكوت، وافطرنا هنيئاً مريئاً

ومداين صالح مدينة نبطية، لعبت دورها على مسرح الزمان، في القرنين الثالث والرابع للميلاد، لوقوعها على طريق القوافل القائمة من الجنوب بتاجر ذلك العهد. ولم يبق من آثارها الا مدافن، نقشت عليها اسماء اصحابها، ولعنات على من يتصدى للميت بازعاج. ومما يذكر، بعد تدوين الشكر لمضيفنا الكريم وعقيلته، اننا دخلنا الغرفة التي اقام فيها الرحالة « دَوتي »[1] شهراً كاملاً ريثما عادت القافلة من المدينة المنوّرة. اما اقامتنا فما زادت على يومين اثنين؛ فعاد بنا القطار ادراجه عوداً موفقاً. وربما كنا اول انكليزيتين زارتا مداين صالح

لو فطنوا

كاهتمامي، فيما بعد، بكل من مشروع روتنبرغ ومشروع البحر الميت، لوقوعهما في أيد غريبة ، كذلك كانت عنايتي بأمر سكة حديد الحجاز، وسكة حديد بغداد، تخوفاً من غوائل النفوذ الالماني في اقطار السلطنة التركية. وكنت على اتصال بميزنز باشا، عن طريق الجوار والاسفار؛ فانه كان يسكن على جبل الكرمل، حيث داري؛ وكان كثير التردد الى بيروت، فتجمعنا الباخرة الحديوية، وتفرّق بيننا النزعة القومية من دون ان تحول دون الصداقة الشخصية . وكان

(١) الرّحالة الانكليزي مؤلف : Arabia Deserta : صحراء العرب

Digitized by Birzeit University Library

رحمه الله ، يحب الشرق ، وعاش فيه حتى توفاه ربه في ١٩٤٢

وما كان يزيدني حديثي مع الباشا الالماني، المهندس القدير، الا تشوقاً الى جمع كل واردة وشاردة عن سكة الحجاز، من مثل خبر او وصف في جريدة او صورة من الصور. فحصلت عندي اضبارة ضخمة. وعن طريق الصور والتصوير اتصلت اتفاقاً بصور ارمني، اتفق انه كان هو المصور الذي اعتمدته الحكومة التركية في امر التصوير الشمسي لكل ما اتصل بسكة الحجاز من مشاهد ومناظر. وبينا صديقي المصور يجاملني ويسرني بما عنده من ذلك، وكان كثيراً، فيحتاج الى تقليب الركام، اذ خرجت بيده خارطة، اسرع الى طيها، ودسها في درجها. ولما ابديت رغبتي في النظر الى هذه من تحفه، قال، وقد رفع كلتا يديه اشهاداً : لا، لا . . . فشهدت له. ولكنني اخرجتُ التحفة، في غيبة عرضت له؛ وعدت، بعد ذلك، فأعدتها الى درجها . . بعد ان اخذت لي صورة عنها بمعرفة صديق عليم بنسخ الخرائط وما اليه. وكان ذلك في سنة ١٩١٤ قبيل سفري من حيفا بقليل

ولما اعلنت الثورة العربية الكبرى، ودارت رحاها، وبلندن صداها، يتردد بالابناء عن الامير فيصل ومآتيه الحربية، في الاقطار الحجازية، أعدت النظر في الاضبارة؛ فقلت : اقدمها الى الوزارة؛ فان لم تنفع، فما في اخلاص النية من خسارة. والوزارة وزارات؛ فقلت : وزارة الخارجية أولى. وطلبت مقابلة؛ وقوبلت. ونظر المنصب العالي الى الاضبارة، نظرات لطيفة، ثم أدار وجهه، شاكراً لي عنايتي في جميع ما جمعت، وهو يحسب ان مثل ذلك كله عندهم من ذي قبل

وبعد هذا الإغفال بستة اشهر او نحوها، جاءني من رفيقتي الآنسة ستترنغ — وهي اذ ذاك في القاهرة — انها سئلت عن الخط الحديدي لمناسبة عرضت لذكره، وكان السائل من رجال «المكتب العربي» [1] بالقاهرة، فأحالته علي. وانتهت هذه القصة بتسليم الخارطة الى مسؤول من رجال وزارة الحربية، ثم بنسف جسر رئيسي، فشُلّ هذا الخط

ومن ذيولها : ان السير هنري مكماهون أكبر الأمر عندما وقف على تفاصيله، وقال : « ليتهم فطنوا لهذا الجسر في حينه ». أفما كان الاولى ان تكون طريق الحملة عن العقبة، بدلا من تلك الشقة الطويلة عن برية سينا، فنكفى مؤونات الهجمة الاولى على غزة ؟

وذيل آخر، تعلق بهذه القصة بعدما عدت الى حيفا. اذ أعلمت ان المدرعات البريطانية واجهت حيفا مرة فأخرى، وأن صاحبي الذي نسخ الخارطة حاول السباحة الى المدرعات مرة فمرة، وشقي

(١) كان مكتبا خاصاً للشؤون العربية، وأغراض الدعاية، بمقر القيادة للحملة « المصرية » وهو الاسم الذي عُرف به جيش الحلفاء، الذي هجم به أللنبي، لأن القاهرة كانت مركزا لرئاسته

وأشقى في سبيلها . ولو فطنوا . . . . في وزارة الخارجية . . . لارتاحوا، وأراحوا

راية الاستسلام في دار السلام : ٩ / ١٢ / ١٩١٧

في ذلك اليوم أخليت القدس، وغادرها كبار الاتراك، طلب النجاة. وأراد رئيس البلدية التسليم؛ ولم يجد ما يرفعه بمثابة راية الا غشاوتين انتزعتا من سرير في المستشفى الطلياني، خيطتا، ورفعتا على عمود، تحمله الزنود. وقف الرئيس، ونفرٌ حوله، وبيد فتى هذه الملاءة البيضاء، على طريق يافا، على نحو ميل من المدينة. فطلع عليهم جنديان انكليزيان، بالسلاح مشهوراً : ان ارفعوا الايدي. وترجم للجنديين اسوجي يعرف الانكليزية، فأنكرا كل علم بالعربية وبأمر الاستسلام والتسليم، وما آمنا ان تلك الخرقة راية او شبه راية. ثم وصل ضابط من اركان الحرب؛ وهذا أخذ توقيع رئيس البلدية على شهادة وعلى خارطة. ثم وصل الجنرال وطسون، فاستلم، ولبث ينتظر الجنرال « شي ». وكان حامل الملاءة قد اطمأن، وارتاح قلبه، فأراح زنده، فدَزّ عمود الراية في جدار

ومر ضابط نبيه فانتزعها، وسلمها الى محدثي بهذه المنزلة الجدية، اعني الترجمان الاسوجي نفسه، واستحلفه بشرفه ان يصونها له، فلا يسلمها لغيره. وبعد امد ورد الامر من لندن بطلب الراية البيضاء لتحفظ في المتحف الحربي [1]

لو فطنوا . . .

(١) سمعتُ مرّة فأخرى من خُلص صادقين اعراباً عن استغرابهم لجُرأة المس نيوتن في مناهضة حكومة فلسطين، ولجسارتها في التثريب على الجيش البريطاني. ومنهم مَن لم يكد يصدّق أنها بالحقيقة تلك الصديقة، بل يكاد يصدق ما أرجفه اليهود، لغرض الدسّ والوقيعة، كالقول انها انما كانت تابعة لدائرات « الاستخبارات ». فبهذا الفصل ما يكفي لتبديد تلك الاراجيف. وسنقرأ فيما يلي عن الأمر الرسمي بمنعها من العودة الى فلسطين

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ١٧

حاكمك ظالمك

علم مرفوع وامل مقطوع – ما هي الصهيونية ؟ – الصهيونية حركة قومية – الصهيونيون في الميدان – الصليب والهلال – العهد الجديد

حاكمك ظالمك

في خريف ١٩١٩ عدت الى حيفا؛ وهذه المرة بقطار، يجره البخار. وكنت ورفيقة معي الوحيدتين من جنسنا، وصنفنا، وملء المركبات العسكريون، من ذوي الرتب وغيرهم. وكان مقعدي قرب الباب، وعليه كتابة، تأمر باقفاله، وتحتها بقلم رصاص: اين المفتاح ؟

وصلت المحطة؛ وكان الحوذي اول من علم بي. ووجدته اعلم مني بملكي والطريق اليه؛ اذ كانت الحكومة العسكرية (البريطانية) قد اشتقت طريقاً شطرت الحديقة الى شطرين، فصارت المعالم غير ما كنت اعهد. اما الخربة فكانت تحمل بشراً؛ هو خادمي، وفأسه بيده، وقد همّ بغصن مشلول يريد قطعه؛ يسمع صوتي، وقد حييته وناديته، فيرد مبهوتاً بلهفة ووقعة سليمتين، لولا ان صوته اسمع الجيران. وقبل اوان الطعام طفح الحوان؛ « وصلت الجارة من سفر؛ لبوها » – شيمة العرب، نعم الشيمة الكريمة. فالجيران بخير

وكيف حال الدار ؟ لحين سلمت من الضبط الذي اصاب حتى الكنائس والمدارس. ثم عرضت بالمزاد، وبيعت بثمن بخس؛ وتقلبت عليها احوال؛ فمن مسكن لضباط اتراك، الى مدرسة بنات مسلمات، فالى مخزن للصليب الاحمر. وكان آخر عهودها بالاحتلال، وانكاها، للقاضي البريطاني، الذي ما خلاها الا وقد اخلاها من كل ما اعجبه مما ابقاه اسلافه، اي من تقدمه من رجال الحكم التركي. كتبت اليه كتاباً رقيقاً انفذته مع الخادم. وعاد الخادم صامتاً معرضاً، حتى

كدت احسبه قد خبل. فسألته، فقال: خجلت، يا معلمتي، ان اقول لك انه حاكم ظالمه سبق حكمه؛ والمثل يقول: ظالمك حاكمك، تشتكي: لمن ؟

علم مرفوع وامل مقطوع

رفرف السلام في سماء فلسطين، قبل عودتي بعام، الا في ربوع العرب. كان بحرهم هادئاً، فهاج واضطرب. كانوا مئة بالمئة بريطانيين، حتى جاءهم البريطان؛ فانقلب الزمان، وبدل الرجحان بالنقصان. كانوا يأملون ان تحل بوادي الاردن نعمة الحكم الانكليزي التي حلت بوادي النيل؛ فاذا آمالهم خائبة، واماني الصهيونيين هي الغالبة

وكنت قبل تلك الحرب قد بدأت افتح عيني على الصهيونية في ضياء مقالات ترد في جريدة « الكرمل » [1]، عن اقبال اليهود على الاراضي، يشترونها وينشئون المستعمرات، فتنتزع من موافق العرب الزراعية والاقتصادية للبوار والدمار. وما كانت صيحات « الكرمل » العاليات تلقى آذاناً مرهفة، لان السيل لم يكن عرماً. وكانت الحكومة قد قطبت لهم الجبين، فما يدخلون الا خلسة. وكانت النظرة الوطنية الى اولئك الدخلاء نظرة ازدراء، لا نظرة شحناء او بغضاء

قبل تلك الحرب لم يكن في خلد العربي ما يحمله على التخوف من اليهودي. ولكن الكراهة الكامنة اتقدت نارها لما راحت السياسة البريطانية تلوح بالوطن القومي اليهودي تلويحاً كان لتلك النار ترويحاً، فاضطرم وقودها

ما هي الصهيونية

الصهيونية كلمة جوفاء، صاغها مؤتمر يهودي عقد في سويسرة في سنة ١٨٩٧، لتقطع عهد يهود ذلك الزمن باطمئنان انساق لهم في الديار والاقطار حيثما وجدوا، وكانوا به ينعمون، لا يظلمون ولا يظلمون. قال قائلهم: « اليهود عنصر هو غير العناصر كلها، لم يندمج، وعسر هضمه، فازداد تفرقاً وتشتتاً في كل ارض. ولا علاج لهذا الداء الا صيحة عالية تذكر هذه الامة بماضٍ نوّفها على الامم، فتلم شعثها، وتستعيد دولتها، وما يكون ذلك الا بتوطنها في وطن يكون وطنها. وسميت هذه النزعة « الصهيونية » وآلت ان تسخر حكومات القارات الثلاث

الصهيونية حركة قومية

وما كانت الصهيونية الا التسمية؛ اما الفكرة فكانت مولودة قبل مؤتمر « بال » المذكور.

(١) امتازت جريدة الكرمل الحيفاوية لصاحبها السيد نجيب نصار بمناهضة الصهيونية والكشف عن مطامعها. وكانت المؤلفة قد ألفت اسلوب هذه الصحيفة كما الفت فيما بعد مطالعة جريدة « فلسطين » اليافاوية

Digitized by Birzeit University Library

ولد هذا المولود العجيب في روسيا، ثم نزح الى برلين. اما اول حكومة حنت له رأسها، وسخرت له نفسها، فكانت الحكومة البريطانية. ففي سنة ١٩١٧ صدر تصريح بلفور، فكان البراءة الناطقة بمكانة دولية للصهيونية. أفسح لها مكان في مواثيق المخلوق الاعجب (جامعة الامم) فاعترفت حكومات بحق اليهود ان يعيدوا انشاء قوميتهم في فلسطين. قومية يهودية تحدث احداثاً، في وجه قومية عربية قائمة، ناهضة. حل لمشكل يزيده اشكالا

الصهيونيون في البداية

طيلة الحرب الاولى، كان عرب فلسطين في معزل عن انكلترة واوربة اما اليهود الصهيونيون فكانوا كالمناجذ [1]، يعملون تحت وجه الارض. فما استقرت الامور، حتى اتاحت وزارة الخارجية البريطانية لهيئة صهيونية القدوم الى فلسطين للتشير على «ادارة فلسطين» كيف تدير، وكيف تحكم، في سبيل «الوطن القومي» اليهودي الموعود بالتحبيذ والتأييد. وكانت هيئة مزودة مجهزة بكل اسباب القوة، من كل قبيل، فدائرة قضائية، ودائرة اشغال عمومية، ودائرة صحة عمومية، وهلم جرا. وكل ما حرم على العرب من تسهيل، في عهد الحكم العسكري، حلله للصهيونيين، تيسير، وتسريح، بركة التصريح

فما جاءت سنة ١٩٢٠ الا ولليهود منظمة عالمية، تنصرها في كل من نصفي الكرة صحافته وحكوماته، وفي الطليعة بريطانيا العظمى. جلياث جبار قام في وجه عرب فلسطين، ولا سلاح بيدهم الا حجر في المقلاع، هو حقهم في مجابهة الغاصب، والصمود له، ولو كان جباراً

الصليب والهلال

وعرب فلسطين... كانوا لا يعلمون، فعلموا؛ وكانوا صامتين، فتكلموا. سارت جماهيرهم تتظاهر؛ وابرقوا بالاحتجاج تلو الاحتجاج، وارعدوا. ووقفت مظاهرة بباب داري، عائدة من دار الحكومة، وقد اوسعت الحاكم احتجاجاً وهياجاً في وجهه. وطلبوا ان اخطب، فحدثتهم عن تقاليد العدل البريطاني، وهتفت: عاشت العرب!

ذلك كله كلام. وما استطاع القوم غيره في تلك الأيام. ولكنهم قاموا ينظمون الصفوف. وتآخى القس والامام، والبدوي والحضري. وتألفت الجمعيات الاسلامية المسيحية. واصطنعت شارة الوطنية، فكانت «الصليب في قلب الهلال»

العهد الجديد

عدت، وقد انقطع العهد بيني وبين التبشير والمبشرين؛ حرة لوجه ربي. وبفضل ممارستي

(١) جمع الخلد وهو فارة عمياء شهيرة الأذى

بعض اعمال الشرطة النسائية، رجوت ان استطيع شيئاً من الخدمة الاجتماعية في امر السجون، وتحسين حال المساجين. ولما بدت بوادر النضال بين القوميتين، المتوطنة والمستوطنة، وجدتني بحكم الطبع تحت راية «الصليب في الهلال» في المعسكر العربي، أمة للعدل، بين طلابه. فحمدت ماضياً مضى عرفني بعرب فلسطين، واجرى كلامهم على لساني، وانست في ضميري دعوة ملحة لنصرتهم، فلبيتها. ذلك وانا احسب ان للشعب البريطاني ضميراً هو غير ما انتوته حكومته من نية. فجعلت رسالتي في قوم وطني الثاني ان الظلم الواقع بهم هو من صنع الحكومة البريطانية، وليس من بريطانيا من حيث هي شعب قبل ان تكون حكومة

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ١٨

الحكم العسكري

لجنة التحقيق اولى بالتصديق – الاساس والجوهر – فتنة عيد الفصح – الجيش اليهودي – زعيم الجيش امام القضاء – العبرة – التحدّي الاكبر – المشورة الصادقة – نهاية الحكم العسكري

الحكم العسكري

فرح عرب فلسطين، وهللوا وكبروا، لمقدم الانكليز، وما في نفوسهم الا ان العهود المقطوعة للعرب في اثناء الحرب محققة مرعية. وكيف لا؟ والكلمة كلمة انكليزية. وفرح، ايضاً، اليهود، لان زعماءهم كانوا قد فازوا من دول الحلفاء باعتراف بمطلبهم. وانتهت الحرب في سنة ١٩١٨ وقد قامت في فلسطين حكومة سميت: ادارة بلاد العدو المحتلة. في محل الحكومة التركية قام الحكم العسكري؛ على الرأس « مدير عام » وبإمرته حكام عسكريون

والعرف المعمول به في العصر: « انه لا يسوغ لمن احتل بلاد العدو ان يطلق ارادته في حكمها، فيغير شكل الحكومة فيها، ويقلب دستورها وشرائعها، او يتجاهل حقوق الاهلين» *

فهل امكن العمل بهذا العرف المقيد بهذا النص ؟

بالطبع سرني وسر كل انسان، ما احدثته ادارة هذا شأنها، من جر الماء العذب الصافي من ينابيع على طريق الخليل (مدينة ابراهيم) الى مدينة القدس، دار السلام. (١) حقت المحافظة على صحة العسكريين وسعد بذلك المدنيون. وحسن في العين منظر الشاش الابيض على اللحم

* كتاب Manual of Military Law : ص ٦٣٠

(١) دار السلام معنى اورشليم من الأور للداروشالوم السلام

المعلّق بدكّان القصّاب. وسر العيون مشهد الشرطي البريطاني وهو ينظّم السير والمرور، ومن فوق رأسه مظلة، والمرأة الفقيرة تفتح الحنفية فتملأ جرتها

وبالطبع عذر الجندي البريطاني، وقد اوقفه ديدبان خارج «باب العامود»، لما سأله ضابط : اين الطريق الى الطور (١) أريد دار الحكومة؟ فقال : لا اعلم، انا هنا جديد، وما افقه ما تريد، أمحلاً عمومياً ؟

لجنة التحقيق اولى بالتصديق

وبعد ما ختمت به الفصل السابق من افصاح وتصريح، اترك القول عن عهد الحكم العسكري للجنة تحقيق، ملكية، اولى بالتصديق* :

« وصلت فلسطين لجنة صهيونية مفوضة من قبل الحكومة البريطانية ان تأتي وتحقق وتدقق فترفع تقريرها عن امكانيات وطن قومي، وان تسدي المعونة في امر انشاء علاقات ودية مع العرب وسائر الجماعات غير اليهودية. فكان قدوم هذه الهيئة تنبيهاً وتبصرة للعرب، وايقاظاً لتبين المصير. فقامت القضية، من دون ايما تمثيل للوجه العربي من وجوهها. وآل التحمس للصهيونية، ولا ريب، الى اغفال شعور الغير، وعواطفهم، في وقت كان القسط الاوفى من الحنكة والدراية اقل ما اقتضته الحال من وجوب وضرورة. وبعد الفوات جاءت محاولات الدكتور ويزمن للتلافي، فما اغنت ولا نفعت. فان كثيراً مما ألح بطلبه اليهود اثار النقمة. فماتوا عوا ان يسر فوا في تطلب الاشتراك في الادارة العسكرية، وان تؤلف « لجنة اراض » تضم خبراء تسميهم المنظمات والمؤسسات اليهودية، فتتحرى ما بفلسطين من موارد الثروة. واحتجوا بتصريح بلفور، فطلبوا ان يسمح لليهود في يافا أن يستقلوا بمستودع للبضائع يكون يهودياً. وطلبوا ان يكون « بنك انكلو – فلسطين » – وهو شركة يهودية – هو المصرف الذي يسلف القروض الزراعية. وشاؤوا وأحبوا ان يقدموا هم من يعين في سلك البوليس، وان يدفعوا لمرشحيهم المعينين مرتباً اضافياً. وطلبوا . . . وشرعوا يدربون قوة دفاع يهودية. اما العبرية، فلتكن معترفاً بها لغة رسمية. وهذا كله، طلبوه وارادوه وفعلوه، طيلة الحكم العسكري المتمادي الذي انما أريد به انه حكم وقتي على اساس « القديم على قدمه »

« وحتى في هذه المرحلة الاولى استحدث اليهود لهم قضاء منفرداً من محاكم الصلح، التي كانت ضرباً من التحكيم. وآثرت فرقة الاسعاف الطبي الاميركية الصهيونية ان تعمل بالاستقلال عن « الادارة » (الحكومة). وكان معلوماً ان اليهود احدثوا لانفسهم دائرة استخبارات فعّالة، لم تكن «الادارة» لتستطيع ان تخفي عنها سراً من اسرارها . ولما شبت اضطرابات عيد الفصح،

(١) بالاصل : جبل الزيتون * تقرير اللجنة الملكية : ص ١٥٧–١٥٨

Digitized by Birzeit University Library

سنة ١٩٢٠، وقف الصهيونيون من «الادارة» موقفاً عدائياً مفضوحاً. ذلك كله وانتداب فلسطين، بعد، قيد النظر».

«ومن سوء مآل تلك الاحوال ان المدنيين من رجال الادارة وجدوا انفسهم في بعض الحالات مسوقين اضطراراً الى شيء من التحيز، حباً في تمثيل الوجهة العربية، لعدم وجود من ينطق باسم العرب، بينما الجمعية الصهيونية تروح بالبلاد وتغدو»

«وكما تقدم القول، اعتبر العرب انهم غدروا غدراً. وبات اليهود في سنة ١٩٢٠ يعدون الادارة العسكرية معادية للصهيونية، بل لليهود على الاطلاق. وربما بالغ اليهود في ما تأملوه، والعرب في ما تخوفوه. ولكن الفجوة احدثت، وبات كل عمل بمثابة مسألة سياسية. وقد كان يمكن التنبه في حينه. فان من لهب الشحناء القومية الذي شب في عيد الفصح سنة ١٩٢٠ دل الى بركان في المكان، لا بد له من هيجان. وكان في الامكان التعويل على حكم بريطاني حازم يقوم به ضباط بريطان لا يعرفون ميلا ولا انحرافاً، ولا شأن لهم الا اقامة الحدود، ورعي ما للقانون والنظام من حرمة»

الاساس والجوهر

تلك صورة الحال، مرسومة باسلوب الدقة الرسمية، بعدانقضاء ١٧ عاماً، ما بردت نارها، ولا باخت، ولا شاخت. فما كان التمويه ليجدي، ولا التضليل ليهدي. وعن غليان المراجل واحتدام الاحقاد، سل الصهيونية وانصارها، لما رفع منارها، وصيغ صك الانتداب وفي متنه الاعتراف بالمنظمة الصهيونية «هيئة عامة»، والنص عن حقها باسداء المشورة للادارة والتعاون معها في الشؤون المتصلة بانشاء الوطن القومي للشعب اليهودي. ولا غرو ولا عجب، ان تعجل اليهود التشبث بهذه البنود، حتى قبل ان يكتسب الصك صفة النفاذ. انهم كانوا على تام الثقة من تصديقه، يوم العرض للتصديق. ومهما صحت للمدير العام عزيمة ان يصدق الحكم العسكري عرفه القاضي باحترام الحالة الراهنة، فانه كان تابعاً للقصر الابيض، وفوق يده يد

ولا يذهبن احد الى تسويغ او تعليل فيقول: «ان الحاصل الان، لم يكن في الحسبان. فالواقع ان جميع تلك الحقائق، والمشاكل، والمصاعب، كانت منظورة متوقعة معلومة لدى الساسة البريطان، من قبل تصريح بلفور بزمان»* ولا حاجة الى القول ان الجالسين في «الطور» وتحت ارجلهم البركان، ابلغوا الجالسين على الاحمر في القصر الابيض

* هنسرد - مجلس العموم - ٢٣ ايار ١٩٣٩، ص ٢٠١٤

وقل، ان شئت، «فتنة النبي موسى». وعند التمحيص، ان هي الا الثورة الاولى لبركان متأجج محتدم، حكمت بوجوده لجنة ملكية، وعللت تكوّنه وكمونه. و«النبي موسى» موسم من مواسم فلسطين، يجمع جمهوراً من شبانها العرب، من مدائنها وقراها، ليسير موكبهم الحافل من القدس الى مقام ينسب الى هذا النبي (يقال هو «قبره» عند البحر الميت) بعد الصلاة في الحرم الشريف؛ وقد رفعوا الاعلام، وتقلدوا السيوف، جرياً على عادة قديمة، كان منشأها الحذر من تجمع النصارى لشهود عيد الفصح في كنيسة القيامة، فما تحدثهم نفوسهم بما لا تحمد عقباه. وموكب النبي موسى، العربي هذا، عاماً بعد عام، كان يسير بنظام، وينتهي بسلام، وقد طويت الاعلام واغمدت السيوف، وبحت الحناجر، وونيت الاقدام، وانهكت الاجسام. عادة عريقة في الايام

سار هذا الموكب كعادته المعهودة في طريقه المرسومة، بأهازيجه واناشيده، وفي ثناياه الراقصون، وفي الطليعة كوكبة من فرسان البوليس؛ وكالعادة وقف المتفرجون في الطرقات، واطلوا من الشرفات، والجو صفاء، والاعلام ترفرف في الهواء. وكان بين الواقفين للمشاهدة، يهودي، وقعت منه بادرة اشمئزاز وازدراء. وقيل انه بصق صوب علم من تلك الاعلام العربية المقدسة. وبالطبع انهال عليه المتباكيون، فما رحموه. تلك كانت الشرارة في الهشيم. تدخل اليهود؛ فاشتد الاشتباك. وفي نار العداء القومي، لقي يهود ابرياء نصيباً من العذاب. وحدثت لعرب وليهود، على السواء، حوادث ضمن اسوار المدينة القديمة، أسف لها كل من سمع بها. عم الاضطراب؛ فدعي الجند لمعاونة الشرطة. واقفلت ابواب المدينة، ومداخلها. وقيد الخروج والدخول مدة ايام، ثلاثة او اربعة. واسفرت المعمعة عن: ٧ قتلى و٢٠٠ جريحاً من اليهود، و٥ قتلى و٢٥ جريحاً من العرب

كذلك كر الصفاء في عيد الفصح وموسم النبي موسى

الجيش البريطاني

وكان الحكم ما زال عسكريا. فالفت لجنة خاصة للتحقيق. وشكلت محاكم لمحاكمة من اتهم من عرب ويهود. وكانت القضية الكبرى ذات الاهمية الخاصة في العالم اليهودي قضية جابوتنسكي زعيم جيش الدفاع («الهغنا» بالعبرية). وكيف جاز ان ينظم هذا الجيش، بعدده وعدده، ومنها السلاح الناري، والزمن زمن حكم عسكري؟ ذلك ما لم يفهم اسبابه فهم، وبقي سره سرا غامضاً، يشغل الخواطر. وكانت عندي بندقية المانية عتيقة معلقة على الحائط، أثراً وتذكاراً؛ فما رضي البوليس حتى استولى عليها. والسر الاخر: كيف تمكن اليهود

Digitized by Birzeit University Library

من الحصول على الاسلحة . زعم عرب انها هربت عن طريق الصليب الاحمر . والانكى، عندهم، ان البعض من رجال المسؤولية البريطان لم يفتهم العلم بذلك كله. فظهور هذا الجيش الكمين، باخراج سلاحه الدفين، واستعماله في المعمعة، في وجوه العرب، حملة العصي والسكاكين، زاد العرب غضباً، واوغر الصدور

زعيم الجيش امام القضاء

لم يجد جابوتنسكي في الدفاع عن نفسه ما ابرزه من وثائق رسمية سرية ، كانت مكتوبة بالرموز (الشيفرة) ومفتاح رموزها معلقاً على رقبة المؤتمن عليها . فاظهر من بأسه واعلن : ان احكموا . فحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة مع الاشغال الشاقة . وما عتم تحديه ان تجلى بكل قوة كانت توحيه، فخفض الحكم الى سنتين، ثم ازيل اثره كله

افهذا حال محكوم، من شعب مظلوم . . . ؟

العبرة

فتنة عيد الفصح، تلك، كانت بنت ساعتها ، غير مدبرة بسق تصور او تصميم او تنظيم ؛ او كقول اللجنة الملكية في تقريرها العظيم : بركان، وانفجر . وانما العبرة، بتكون البركان من مواد اذا اجتمعت، والتهبت كان التفجر النتيجة المحتومة

وحتى الشرطي ممن مارس الضبط والربط في ارلندة، كان يتهم بأسلوب غريب عجيب الزمه دستوراً لتصرفه : فكان مفروضاً عليه ان يتبين اولا وقبل كل شيء : اهذا الشأن شأن بوليسي، ام هو شأن سياسي؟ فوجهه من حيث الواجب البوليسي كذا ، ولكن له وجهاً آخر من حيث السياسة . فكيفما توجه الشرطي بتصرفه، كان عرضة للملامة . هذا ما فهمته من احدهم، لقيته في القطار، وكان ختام حديثه : قبل ان احكم كيف افعل وكيف اقول يلزمني ان اعلم اعربي ذاك ام يهودي، فما يساق القطيع بعصاً واحدة في فلسطين في هذه الايام

التحدي الاكبر

وربما خيل للناس في الخارج ان من تطاب المعاملة الخاصة من اليهود انما كان من أفراد عامتهم، البعيدين عن مواطن الحنكة وسلامة الطبع في تصريف الشؤون. فما القول في انذار تهديدي كتبه اثنان من زعماء الهيئة الصهيونية المسؤولين عن سياستها وغاياتها، وتقدما به الى المدير العام: ان يفعل في ساعتين اثنتين ما يؤمن سلامة السكان اليهود، والا فانهم وقد أجبروا على التحقق انهم لا يطيقون ان يبقى مصيرهم بيد غيرهم، لقائمون قومة الرجل الواحد للدفاع عن

انفسهم والذود عن اخوانهم الذين يقتلون امام عيونهم *

المشورة الصادقة

وكان المدير العام، السير لويس بولز، ملماً بدقائق الامور، فضلاً عن اضطلاعه بجسامها . وما أعوزته الشجاعة المطلوبة، فمثل حقائق الحالة القائمة بين يديه في تقرير رفعه الى لندن، فصّل فيه أفعال « اللجنة الصهيونية » وتصرفاتها، وختمه بمشورة صادقة :

« ومما تقدم يتضح ان اللجنة الصهيونية تدعي لنفسها سلطتي وسلطة كل دائرة من دوائر الادارة (الحكومة) وتتعدى عليها . وانني اقول بصورة الجزم : ان دوام الحال على هذا المنوال، من المحال من دون مجازفة بالسلام العام وأجحاف بحقوق ادارة انا رئيسها

« ومن العبث ان نقول للمسلمين والنصارى اننا قائمون بما صرحنا به من المحافظة على الحال القديم، مما عهدوه وعهدناه يوم دخلنا القدس . فالحقائق تشهد بخلاف ذلك . فمن ادخال اللسان العبري كلغة رسمية، الى اقامة قضاء يهودي، الى تلك التشكيلات الحكومية التي تتألف منها اللجنة الصهيونية، والامتيازات المخصوصة الممنوحة لاعضاء اللجنة الصهيونية في السفر والانتقال — كل ذلك حمل العناصر غير اليهودية على الاعتقاد الثابت والاقتناع الراسخ باننا أهل محاباة . ومع ذلك كله، فاللجنة الصهيونية تتهم موظفيّ وتتهمني انا ايضاً بمعاداة الصهيونية . فالحالة حالة لا يطاق عليها صبر، ومن حق موظفي وحقي ان تواجه بما ينبغي لها

« ولقد قامت هذه الادارة بتنفيذ رغبات حكومة صاحب الجلالة . وانما افلحت في ذلك كله بفضل الشرائع الضابطة لتصرفات المحتل العسكري لارض العدو . ولكن ذلك كله لم يكن ليرضي الصهيونيين، الذين لا يفتأون يتوخون توريط هذه الادارة العسكرية الموقتة بسياسة محابية، حتى قبل ان يصدر الانتداب . وانه ليستحيل ارضاء ذوي فكرة مخصوصة، لا يطلبون رسمياً الا وطناً قومياً، ولكنهم بالفعل لا يقنعون بما هو اقل من « حكومة يهودية » بكل مقتضياتها السياسية . ولذلك فانني أوصي، في سبيل السلام، وسبيل التقدم، وسبيل الصهيونيين انفسهم، ان تلغى اللجنة الصهيونية في فلسطين » *

نهاية الحكم العسكري

بعدما أشار المدير العام الجريء الصادق بالغاء اللجنة الصهيونية، تراءى له أن ولاة الامور في لندن قد يستعظمون هذه الخطوة، فاقترح « مجلساً استشارياً يهودياً يضم الى « الادارة » ويكون تحت أشرافها » * وان يكون هذا المجلس في محل اللجنة الصهيونية التي اشار بالغائها . وانما أراد

* كتاب جفريس ٢٥٨ * كتاب جفريس : ص ٣٦٠ * كتاب جوفريس : ص ٢٥٨

Digitized by Birzeit University Library

بذلك كله ان يكون تدبيراً موقتاً، لتسيير الامور، ريثما يصدق الانتداب

وكان مؤتمر « سان ريمو » مؤتمراً استعد له الصهيونيون بأساليبهم الفعالة . وما انقضت اشهر ثلاثة حتى انتهى الحكم العسكري الى حكم مدني، على رأسه صهيوني مؤمن، سمته اللجنة الصهيونية بطلب حكومة صاحب الجلالة البريطانية

فجاء السير هربرت صموئيل يقتضي آثار عزراً

الفصل ١٩

حكم غريب في بابه

السياسة صهيونية – الوطن قومي ام حكم يهودي – مظاهر القومية اليهودية – العلم اليهودي – النشيد الوطني اليهودي – اللغة العبرية – الجامعة العبرية – التحكم

حكم غريب في بابه

بين السير بالحكم العسكري على ما يقتضيه من ابقاء القديم على قدمه، وارضاء اللجنة الصهيونية، تحيرت الحكومة البريطانية، فاختارت ان تختلق حكماً مدنياً انتدابياً، تنشئه قبل ان يتم خلق الانتداب خلقاً كاملاً . وكان هذا الحكم فعلياً حكماً مسيراً بالمشيئة الصهيونية فلم يكن بد من الرجوع الى مكتب اللجنة الصهيونية بلندن، في امر تعيين اول مندوب سام . فاختارت حكومة جلالته السير هربرت صموئيل من ثلاثة رشحهم ذلك المكتب . وبصرف النظر عمن يكون رئيساً للحكومة المدنية، يبقى التساؤل عن انشاء حكومة هذه صفتها في بلاد انتدابية قبل وجود صك انتداب قانوني

فالدرجات ثلاث : (١) صك انتداب تصوغه لجنة الانتدابات
(٢) تصديق الصك من قبل مجلس الجامعة
(٣) موافقة الجمعية العمومية على الصك ونشره للعمل به

اما الانتداب الفلسطيني، فلم يكن من وضع لجنة الانتدابات، بل من صنع الحكومة البريطانية بمعاونة اللجنة الصهيونية . ولما اطلع سكرتير لجنة الانتدابات على صيغته (وكان يومئذ الموسيو رَبار) قال لسكرتير الجامعة العام (وهو عندئذ السير أرِك دُرُمُنْد) : هذا خرق

Digitized by Birzeit University Library

لميثاق الجامعة، فكيف نقبله؟ وكان الجواب: صحيح، ولكن لا بد من قبوله؛ وقُبل. وصدقه المجلس في سنة ١٩٢٢، ونشرته الجمعية العمومية في ١٩٢٣. فكيف صح ان تقام حكومة تعمل بما اقتضاه صك قبل ان يتم وجود ذلك الصك؟ واقيمت في سنة ١٩٢٠، وكانت بريطانية قبل ان تزول السيادة التركية زوالا شرعيا. فتولى الامور رئيس بريطاني بمجلس تنفيذي من البريطان. واشترعت قوانين جديدة، مغايرة لمصالح الشعب. كقانون المهاجرة، مثلاً، الذي كان، وما زال، موضع نقمة العرب. وعلى تلك الصورة الغريبة عدّ العرب، اهل البلاد المحتلة، رعايا المحتل، باسم حكومة وصفت بالمدنية، وما هم برعايا دولته، ولا روعي لهم من حقوقهم في الحكم حق

السياسة صهيونية

الحكومة مدنية، اسماً. اما الحكم نفسه فما تشاؤه السياسة الصهيونية. ولا غرو، فاساس الحكم في فلسطين انما هو الخطة المرسومة في تصريح بلفور. اما المبادىء المقررة في عهد جامعة الامم، فكلام لا حكم له. فلا معنى للنص عن «حسن حال اهالي البلاد وتنشئتهم» ومن ثمة فالدوائر يرأسها يهود من الصهيونيين، او انكليز يرضون ان يُعملوا السياسة الصهيونية

وعاتبت بريطانيا استقال من منصب عال كان يشغله، وكان موضع الاكرام والاحترام فقال: لا عن غنى، استقلت، ولا طلباً للراحة، ولا طمعاً بمرتب أوفى. بل انا على ما تعهدين من الحاجة، ولكنني اوثر ان اعاني الجوع، وتجويع زوجتي وبناتي، على ان احتاج ان اكاذب العرب يوماً بعد يوم واخادعهم بحكم المنصب. فهذا واحد لم يرض

وآخر، رضي، مكرهاً: وكان رئيس اطباء. لقيته يوماً، وعلى وجهه كآبة بادية. واستوضحته، فقال: كلفت ان اوقع على شهادة وفاة من دون ان اعرف من الميت. فالوقت صيف، والميت يهودي، وطبيبه يهودي؛ واليوم يوم سبت. ولكن مرؤوسي، الطبيب اليهودي، جاءني بالشهادة لاوقعها مستنداً الى صك الانتداب. فكان موقفه مني موقف المهدد، لا موقف الدين التقي

وثالث — كان رئيس دائرة، فيها الوف من العمال. أريد التوفير، فتقرر الاستغناء عن عدد منهم؛ وبالطبع يكون آخر من ادخل اول من يخرج. وعلى هذه القاعدة ابدي الاسف لبضعة من اليهود. وقبل ان تمضي ساعات، كان الرئيس بين يدي رئيسه في القدس، بين يدي المندوب السامي. فسمع ما لم يكن ليرضيه. وهو انه «من الضروري في مثل هذه الامور ان يداري اليهود». ولكنه رضي، بحكم حاجته الى الوظيفة، وعلل خضوعه التعليل المعتاد: لو ذهبت غاضباً للعدل، جاء مكاني من يراعي ويداري

اوطنه قومي ام علم يهودي

وكان بعض كبار الموظفين في الحكومة المدنية من رجال الحكم العسكري؛ وفطن احدهم فسأل السير هربرت صموئيل: أيستطيع ان يؤكد له ان سياسة الوطن القومي لا تعني ان يحكم اليهود البلاد عاجلاً او آجلاً. فكان الجواب الصريح: «يؤسفني انلا استطيع ان اطمئنك من هذا القبيل. ان السياسة سياسة حكومة جلالته، وقد جئت لانفذها، وهي تشجيع هجرة اليهود الى حد ان يصيروا اكثرية، في خلال خمسين سنة، او مئة سنة. وعند ذلك يكون لمصالحهم من التفوق ما يضمن انشاء حكومة يهودية في فلسطين (كتاب جفريس: ص ٣٧٣)

ففي هذا الجواب على ذاك السؤال تعليل لتحويل الحكم من عسكري الى مدني. ومعلوم ان حكومة مدنية هذا هدفها، قيدت رجالها وغلت ايديهم، وسيرت الامور سيراً مرتبكاً، اعرج سرطانيا، لتناقض المصلحتين: العربية واليهودية

مظاهر القومية اليهودية

ارادت الصهيونية ان يصبح اليهود امة، وأن يعترف لهم بكيان قومي. فواتاهم البريطان على ذلك، حتى وجدت الراية اليهودية، وسكت عنها، وأنشد «النشيد الوطني اليهودي» فوقف له، وعدّت «العبرية» لغة رسمية ثالثة

العلم اليهودي

في سنة ١٩١٩ اثبت بين الاعلام علم دولة فلسطين على صفحة من دائرة المعارف البريطانية؛ فكان امتعاض العرب شديداً. ولما أيدت احتجاجهم بالاعتراض، وايدت التأييد بمراجعات عديدة، طالبة بيان الكيفية، كتب اليّ: ان ذلك كان قبل اوانه، نوعاً، وبالعبارة معنى كبير

والعلم الرسمي الذي يرفع في فلسطين هو العلم الانكليزي، وبدائرة في احدى زواياه كلمة «فلسطين». اما العلم اليهودي، فعلى بساطته، كفيل بغايته: شقتان زرقاء وبيضاء، ومثلثان متعاظلان، هما «خاتم سليمان» ابيضه على الزرقاء، وازرقه على البيضاء. وعندي صورة شمسية للعلمين، البريطاني واليهودي، جنبا الى جنب، يرفرفان على شجرة، وقف المندوب السامي تحتها يلقي خطبة. وكلما شهد المندوب حفلة رياضية رفّ العلم اليهودي. وسألت السكرتير العام كيف جاز ذلك، فقال: باسم روح النادي الرياضي. وما القول في رفعه فوق الوف السطوح، حيث لا نادي، ولا لعب كرة؟

ولا حاجة بي الى القول ان العلم اليهودي كان في نظر العرب الخرقة الحمراء التي تتخذ للاهاجة. والانكى أن رفع العلم العربي في فلسطين كان ممنوعاً

Digitized by Birzeit University Library

النشيد الوطني البرتوري

يعرف هذا النشيد بالهاتكفا. ومهما كان من حسن وقعه في الاذن اليهودية، فما طاب لاحد، ولا استفز أحداً الا استنكاراً، فما كان يحفز العريطان للوقوف مع الواقفين اذا أنشد في حفلة او اجتماع وغلبت الصبغة اليهودية. فلما استقرت الحكومة المدنية اوعز للموظفين ان يقفوا لهذا النشيد مجاملة لاصحابه. وهكذا فازت هـذه الامارة الثانية القومية بشبه اعتراف بالغرض المقصود اليه بها

اللغة العبرية

وكانت ثالثة الاثافي اللغة العبرية. اعتبرت لغة رسمية، بعدما انقضى ما انقضى من عديد القرون على موتها واندثارها. فانها منذ السنة السبعين بعد الميلاد انما بقيت لغة التوراة والصلاة. ولعصور خلت لم يكن لليهود الا البدية الجركونية، الخليطة من لغات غريبة عن العنصر اليهودي السامي، لغة يتفاهمون بها، وهي غير العبرية، ولو انها تكتب بحروفها. جاء تصريح بلفور بالوطن القومي. وجاء صك الانتداب باللغة القومية

الجامعة العبرية

ومنذ ١٩١٨ وضع الصهيونيون ١٢ حجراً، عدد الاسباط، اساساً للجامعة العبرية. فما انعقد مؤتمر الصلح الا وهم قادرون ان يشعروا بالبنان الى مظهر من مظاهر القومية اليهودية. وتنى لهم ان يجعلوا العبرية على قطع العملة، مما لا غنى عن تداوله. وتمكنوا من دس « ارض اسرائيل » اسماً لفلسطين على المسكوكات والطوابع

التحكم

ذلك كله كان يجري على يد هذه الحكومة الموسومة بالمدنية في سبيل تحبيذ الوطن القومي للشعب اليهودي في بلاد عربية. فكان في واقع الحال تحكما واعتسافاً، وعبثاً بحقوق العرب، اعمالا لسياسة بريطانية مقورة عرفت اولا بتصريح بلفور، ثم بالانتداب الفلسطيني. وما تورعت الحكومة المدنية من تطبيق ذلك الانتداب قبل وجوده الفعلي بنحو ثلاث سنوات. فاتخذت لنفسها صلاحية التشريع، وفي سنة ١٩٢٠ أصدرت نحو ٣٨ مرسوماً، كان بعضها بعيد المدى، عميق الاثر، في تغيير المعالم، وتحوير المصالح. وقد المعنا الى قانون المهاجرة، ونختم بالاشارة الى تغيير العملة، ولكليهما مساس بالحقوق المتصلة بالسيادة والحياة الدستورية. وقبل ان تزول السيادة التركية، وقبل ان يوجد دستور للحكم في البلاد، قامت هذه الحكومة، على غير ما اساس دولي، وراحت تتصرف كيفما شاءت السياسة الصهيونية

الفصل ٢٠

الخدمة الاجتماعية

المرأة قبل الحرب الاولى – مفتشة الشؤون الاجتماعية – زيارة السجون

المرأة قبل الحرب الاولى

طال عهد المرأة الشرقية بالتخدر والانحباس. ومن آثار الحرب الاولى عدت الوفرة في عدد اليتيمات والبائسات، وحاجتهن الى رفق خاص. وادخلت في البلاد اساليب الحكم الجديد على علاتها. فالمرأة شاهدة مقبولة شهادتها، فان دعيت حضرت بحجابها، ووقفت في زاوية بحشمتها، تجانب النظر اليها. وما انفت الظهور في دور الحكومة، فهي في حال الغريب، والناس من حولها مستغربون. ولكنه التكيف والتطور. وما ينكر تبدل الاحوال بتبدل الزمان، فما مضى طويل وقت حتى دخلت المرأة المكاتب، في عـداد الموظفين والعمال، اولا في مثل دوائر البريد ثم في غيرها. وتبع ذلـك في بابه تكاثر البنات والنساء في السجون، والمبـاني الحكومية، وسـائر مظاهر الحكم، هي بعد غـير مكيفة التكيف اللائق بالعـادات القومية، والحالات العصرية

مفتشة الشؤون الاجتماعية

عدت صباح احد من الكنيسة فوجدت بطاقة عليها: الانسة مرغريت نكسون: وهو اسم اقترن بتكريم صاحبته لما اشتهر من حسن تنظيمها للشؤون الاجتماعية النسائية في دمشق وقبرص وللاجئي الارمن. فذهبت الى الفندق وعدت بالصديقة العاملة الى البيت؛ وكانت مارة بحيفا، ووجهتها بلاد الانكليز. فناشدتها ان تولي خـبرتها وهمتها شطر المرأة في فلسطين. وما انست

Digitized by Birzeit University Library

منها قبولا مبدئياً حتى رأيتني في مكتب وليّ الامر اعرض عليه احداث منصب مفتشة للشؤون الاجتماعية، وبيدي مبلغ ٤٠٠ ج.ف. رصيد باق من «اعانة فلسطين»، علماً مني بان المرتب مرادف التعيين. عرضت المبلغ والفكرة معـاً، وما كان الجواب الا كلاماً طيباً، حسن السبك: هذا مما يستحسن، ولكنه ليس مما يعد ضرورياً، والضروري يقدم على الحسن. فما شفى غليلي، ولا اسكتني، هذا الاعتذار. فسألته: اي في نظر الحكومة العالي اولى بالتقديم، أرعي السمك في البحر، ام رعاية شؤون النساء والبنات على البر، في هذه البلاد؟ وكنت عالمة بتعيين امرأة في دائرة المصائد من دوائر ادارة الزراعة. فعجب، وقبل المبلغ، ووعد خيراً. وبدأت للانسة نكسون خدمة صالحة مصلحة في الديار الفلسطينية، كانت الحافز لوزارة المستعمرات أن تحدث مثل هذا المنصب في غير فلسطين

زيارة السجون

عندما عاودت العيش في وطني الثاني، بعد ما خبرته بأثناء الحرب، كما تقدم البيان، كنت اشعر بحاجة العرب والعربيات الى العون، وقد فتحت ابواب السجون، فزجت في ظلماتهـا المرأة حيث يرمى بالرجال، من دون ما استعداد لفترة الانتقال. فجـاء تعيين صديقتي مفتشة في ابان الحاجة الى مثل ما قامت به من اصلاح، من كل قبيل، ولا سيما من الناحية الصحية الخاصـة بالمرأة، من حيث مراعاة المقتضيات العرفية والطبيعية، ولا غرو، فالمحكوم عليها، قبلاً، كانت تحبس في بيت المختار، فتكون موضعاً للرفق، لقربهامن اهل بيته؛ فلم تكن السجون معدة للنساء، ومنهن الحامل. تلك كانت الحالة التي دعتني الى التطوع لزيارة السجن، طبعاً، بالاذن، وبعدما اوجدت السجانة للقسم المخصص للاناث

وما ألفت المرأة العربية الاجرام وحياة السجون، فكانت بالرفق أولى. وان مثلت قلت: تلك حبست – كما حبس زوجها ايضاً – لدخولها فلسطين من دون جواز. والى جانبها لبآنة، وجد حليبها مشوباً بالماء، ولم ينفعها دفاعها انه كان ماء صافياً. وهذه صبية، تقضي مدة سبع سنوات، تخفيفاً من ١٥ سنة، لانها دست السم في طعام زوجها الشيخ الظالم. وبينهن واحدة حجوت هي وصاحبها لانهما هربا معاً من البيت الوالدي من دون ان يكونا مخطوبين.

ومرة رأيت اربعاً غير عربيات، ولم يقفن لي، فما باليت. وسألت، فأعلمت انهن روسيات. واتفق ان كانت احداهن تحسن الفرنسية فحادثتها، فاذا هن شيوعيات

الفصل ٢١

الانتداب الفلسطيني

قصة الانتداب الفلسطيني – الصلة التاريخية – المولود الاحول الهجين – العرب وهذا الانتداب

قصة الانتداب الفلسطيني

الانتداب الفلسطيني موضوع خطير، طرقت ابوابه بكثير من التأويل والتفسير. ولا بدلي من التصدي له، لما اتصل به من الشرف البريطاني ومصيره. وأول ما يلزمني من أموره هو أن أبين الاسباب التي من اجلها انتقض العرب علينا وتنكروا لنا. واستهل بعبارة عربي قروي من اهل الجبال، لقيته في سنة ١٩٣٧، وسألته، فقال: «او حقاً تظنين اننا نحب ان نحارب البريطان، لعداء بيننا وبينهم؟ لا، يا سيدة. ولكنها سنوات طوال، منذ الاحتلال، انقضت اقوالا على اقوال، وكلت الالسنة، ولم يسمعوا لنا كلمة، فلم يبق في اليد حيلة، فقمنا نخاطبهم من افواه البنادق. ولئن عد تصريح بلفور لسنة ١٩١٧، ومشروع صك الانتداب لسنة ١٩٢٢، مساً للعرب بالسياط، فصك الانتداب لسنة ١٩٢٣، انامهم على العقارب

حتى سنة ١٩١٨، كان حق الفتح اساساً تقام عليه الامور بعد الحرب على مبدإ السيادة. وزعموا في سنة ١٩١٩ انهم احلوا الوصاية على شعوب الاقطار المفتوحة محل السيادة، وجعلوا خير تلك الشعوب وتقدمها الغاية المنشودة، وسموا هذه البدعة انتداباً. على ذلك تعاهدت الدول الكبرى، فيما بينها. ثم احدث عهد جامعة الامم، وكان حدثاً عظيماً. وادرج النص عن هذا المبدإ القويم في صلب العهد العظيم. وانضوت الدول والامم والحكومات تحت هذا اللواء المرفوع

فالفقرة الاولى من المادة ٢٢ من العهد تقول: «فيما خص المستعمرات والاقطار التي بنتيجة

Digitized by Birzeit University Library

الحرب الاخيرة بطلت تابعيتها لسيادة الدول التي كانت تحكمها من قبل، والمأهولة بشعوب ليست بعد قادرة على القيام لوحدها تحت شديد احوال العالم الحديث، يجب اعمال المبدإ القائل بأن حسن حال هذه الشعوب وتطورها (ترقيتها) يشكلان امانة حضارة (تمدن) مقدسة. وضمانات القيام بحق هذه الامانة تدرج في هذا العهد .» والفقرة الرابعة من نفس المادة انما اشارت الى العرب حيث قالت :

« مجتمعات معينة كانت من قبل تابعة للامبراطورية العثمانية قد وصلت من الرقيّ الى درجة يستطاع عندها الاعتراف وقتياً بقيامها بصفة أمم مستقلة تبعاً لاسداء المشورة والمساعدة الاداريتين من قِبَل منتدب، وهذا ريثما تستطيع هي القيام لوحدها. ومشيئات هذه المجتمعات يجب ان تكون اعتباراً رئيسياً في اختيار المنتدب »

فهل اقيم وزن لمشيئة العرب في اختيار منتدب ؟ اكان لهم قول في الانتداب الفلسطيني ؟ ام حنث الحالفون بعهدهم، فاختاروا بمحض مشيئاتهم هم، حتى كأن لم يكن ختام هذه الفقرة الا حبراً على ورق ؟

لفلسطين امر قضي في يوم ٢٥ نيسان من سنة ١٩٢٠ . هو يوم شهدته في سان ريمو فرنسا، وايطاليا، واليابان، وقدّمن رأس العرب لبريطانيا، على طبق، كما قدّم رأس يوحنا المعمدان لابنة هيروديا التي رقصت فعجبت هيرودوس والمتكئين. والذي حصل في سان ريمو هو ما قاله الصهيوني البارز، ليون سيمون، في شهر ايار سنة ١٩٤١، في اجتماع لندني، لما قال :

« وكان من اثر النفوذ اليهودي، ولاسباب متصلة بمصالح استراتيجية ان قبلت بريطانيا العظمى ان تتولى الانتداب على فلسطين لتكون بيدها امانة لشعب لم يكن بعد فيها(*) »

(اي لشعب غير الشعب العربي الذي فيها) . فاين ما قالته الفقرة الاولى من المادة ٢٢ من العهد العظيم ؟

وانما عنت الفقرة الصالحة عرب فلسطين أنفسهم شعباً آهلاً لهذا القطر . ولكن الانتداب نفسه جاء، اذ جاء، مناقضاً للعهد، ومغايراً لمصلحة اهل فلسطين. وقد صدق ما قاله فيه ليون سيمون؛ ولم يصدق ما زعمه عنه اورمسبي غور (اللورد هرليخ) عندما خطب في مجلس النواب في مناقشة دارت حول تقرير اللجنة الملكية لسنة ١٩٣٧ ، فقال :

« الانتداب بمواده الثماني والعشرين هو الدستور المكتوب الحاكم لتصرف الحكومة،

* مجلة « جوش كورو نيكل » - ليوم ١٩٤١/٣/١٤

والضابط لمشيئة هذا المجلس، في امر فلسطين وادارة شؤونها، بل انه وثيقة البلاد المقدسة الكبرى»

فمن ، ترى ، هم الاشراف النبلاء الذين احدثوا هذه الوثيقة الكبرى ؟ أما النواب الممثلون للامة، فلم يكن لهم في صيغة الانتداب من يد او قول . فانهم لم يبحثوا في صكه ولا دققوه، شأن البرلمان البريطاني في اشتراع يسنه . وكل ما كان هو ان وضع ذلك الصك بين يدي المجلس بمثابة الامر الواقع، للاطلاع والعلم

اما ان هذه الوثيقة قدمت لمجلس جامعة الامم، فذلك ظاهر من مقدمتها . وأما نصها ، ومن سبكه وصاغه، فسؤال جوابه في محفوظات القصر الابيض ، واضبارات الجمعية الصهيونية. وعن ذلك السر المكتوم ، زحزح الستار، بعض الشيء، في تقرير اللجنة الملكية حيث جاء : « ان الجمعية الصهيونية . . بعد مؤتمر باريس (المنعقد في ٣٠ كانون الاول ١٩١٩) بثلاثة ايام، رفعت نص قرار تضمن مشروعها الموضوع لتنفيذ تصريح بلفور . . وان زعماء هذه المنظمة مثلوا امام المجلس الاعلى في ٢٧ شباط سنة ١٩٢٠ فأوضحوا ذلك المشروع* هنالك سئل الزعيم الصهيوني الدكتور ويزمن عما انطوى عليه المشروع، فاجاب : ان المقصود هو ان تحدث في فلسطين وتقام احوال تؤول في آخر الامر الى جعلها يهودية « بقدر ما انكلترة انكليزية ، واميركا اميركية » . ثم استطرد التقرير الى ذكر « مشروع اكثر تفصيلا مؤرخ في ٢٨ اذار ١٩٢٠ قدمه الزعيم الشهير الاخر ، فيلكس فرنكفورتر . وقالت اللجنة الملكية : « فالظاهر، حكما على هذه الوقائع وغيرها من المستندات، ان المشروع الصهيوني كان، منذ تلك الايام الاوائل، قد اتخذ شكلا شبيهاً بشكل الانتداب الذي نعرفه اليوم »

فحاصل هذا كله هو ان هذا الانتداب ولد في سنة ١٩١٩ قبل انعقاد مؤتمر الصلح . وللمستر امري قول قاله وهو وكيل وزارة لا يخلو من فائدة . قال : « زعموا ان كل دولة ابتدعت انتدابها، ورفعته الى جامعة الامم . وليس ذلك بصحيح؛ فالانتداب انما كان نشوءاً من مادة من مواد العهد عن طريق المفاوضة والبحث » * . فقوله « المفاوضة والبحث » قول مفيد . وانما الفائدة والعبرة بمعرفة المفاوض الباحث ، ومن فاوض ومن باحث . والمهم هو ان المقصود من بحث ومفاوضة لم يكن مع العرب، في حين انهم هم وحدهم المعنيون بالمادة المشار اليها من مواد عهد جامعة الامم، وقد تقدم ايرادها . ولله در ذلك الكبير من كبراء وزارة المستعمرات اذ قال في ختام اجتماع مع وفد عربي، وسمعته باذني : « ولم لا تذهبون الى الصهيونيين ؟ هم القائمون بهذا الامر كله، دونكم الصهيونيين انفسهم، فاسألوهم، تعلموا ما تشاؤون علمه »

* تقرير اللجنة الملكية : ص ٢٨ * كتاب جفريس ص ٥٧٧

Digitized by Birzeit University Library

ولحكومة فلسطين المدنية جريدة رسمية؛ فهل نشر الانتداب على صفحاتها ؟ ولم لم ينشر ؟ بل كيف ينشر، وهو اشبه ما يكون بالعقرب ؟ واي عقرب مقدمة الانتداب الفلسطيني، واي ذنب عقرب مواده الثاني والعشرون !

رأس العقرب وحتها في المقدمة . وقوام المقدمة : ان بريطانيا اختيرت منتدبا ؛ وان عرض الانتداب تطبيق المادة ٢٢ من عهد جامعة الامم ؛ وان المنتدب ملزم ان ينفذ التصريح الصادر عنه في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، ومقتضاه ان يسهل انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي . وكل ما في المواد الثاني والعشرين انما هو ذنب العقرب التابع لهذا الحكم الرئيسي المثبت في المقدمة

الصلة التاريخية

وعلة هذا الالزام : « الاعتراف بما للشعب اليهودي من الصلة التاريخية بفلسطين» — والعبارة من كلام المقدمة — والاعتراف « بموجبات اقامتهم من جديد لوطنهم القومي في تلك البلاد » وهذا ايضاً من كلام رأس العقرب

وقد قلب العرب الانتداب الفلسطيني ليروا ذكراً لما لهم من الصلة التاريخية بأرض آبائهم واجدادهم، او اعترافاً بحقهم هم ان يقيموا لهم كياناً في دارهم، فما عثروا على كلمة تتحمل مثل هذا المفاد . وكانوا يومذاك ٩٣ في المئة من سكان فلسطين، وجرفوا جرفاً بعبارة « المجتمعات غير اليهودية» القائمة في فلسطين . فأما كلمة « عرب » فلا ورود لها قط في هذا الانتداب العجيب . والانكى ان عدم الاجحاف بما للمجتمعات غير اليهودية من « الحقوق المدنية والدينية » جعل مقابلاً لنص ايجابي صريح عن «الحقوق والاحوال السياسية» مما يتمتع به يهود في اية بلاد اخرى

واذ نظر العرب الى هذا الانتداب راوا كل ما فيه . فوجدوا انه اتاح لليهود ان يحدثوا لهم دولة يهودية تحت ستار « الوطن القومي » . والا فما معنى : اقامتهم من جديد لوطنهم القومي ؟ ولقد حدثت عن جهاد الزعماء الصهيونيين في سبيل هذه الصيغة لهذه العبارة . فما الذي ارادوه ان لم يكن تجديد كيان سياسي كان لهم في ايام داوود وسليمان ؟

وحسبنا دليلاً على هذا المقصود بالتجديد، ما جاء على لسان المستر لويد جدرج (الذي كان رئيس الوزارة البريطانية في زمن وضع الانتداب) امام اللجنة الملكية، عند ما سئل عن الملابسة بين « وطن قومي للشعب اليهودي » و « دولة يهودية »، فقال :

* الكلمات المحصورة عن كتاب « الانتداب الفلسطيني باطل ومحال » ص ١٨٩

« كان المقصود — وهو التفسير الذي عُوّل عليه عندئذ — ان لا تقام دولة يهودية، حالا بنص عنها في معاهدة الصلح من دون الرجوع الى رغبات اكثرية السكان . ولكنه كان المنتظر من الجهة الاخرى، انه عندما يحين الحين لمنح فلسطين تشكيلات تمثيلية، اذا كان اليهود قد اغتنموا الفرصة الميسرة لهم بفكرة وطن قومي فاصبحوا اكثرية، فعند ذلك تصير فلسطين دولة (كومونولث) يهودية » *

فالحكومة البريطانية منذ البدء نظرت نظرة العطف على نشوء دولة يهودية نشوءاً تدريجياً وقيامها على اساس الزعم الصهيوني ان للشعب اليهودي صلة تاريخية تسوغ هذه النظرة، وتجيز هذا العطف . ولا وجه لانكار هذا الاستنتاج، وهذه شهادة رئيس تلك الحكومة . ولئن صح القول ان فريقاً من اهل الارض يتاح لهم ان يتصرفوا على مقتضى مبدإ لاحق فيه الا ما ابتدع ابتداعاً ، ولم يكن بحق، فهذا هو مثاله . فان الباحث عن تلك الصلة التاريخية، لا يجد لها اثراً الا في ذكر ابراهيم، جد العبرانيين . قصة قبيلة، تطاولت ذيولها حتى عهد يشوع، قبل الميلاد بألف وثلثمئة سنة . وما بلغت تلك القبيلة حد الكيان القومي اليهودي الا بعد انقضاء ٣٠٠ سنة . وكان للامد القصير المعروف بأيام داود وسليمان . وبعدهما، انحسر الحكم اليهودي . وحتى، وهو في اوجه، لم يكد يتجاوز الاصقاع الجبلية . وما جاءت السنة السبعون بعد الميلاد، الا وقد استؤصلت الدولة اليهودية من جذورها، ولم يبق لها في ارض فلسطين من أثر . ذلك كان عهد الفتح الروماني على يد طيطس . فمدى الوجود — مجرد الوجود — اليهودي في فلسطين، لم يتجاوز ١٠٠٠ سنة . والوجود غير الحكم

وما كان العبرانيون الا قبيلة من قبائل عديدة، وشجت عروقها وصارت اقواماً وشعوباً قبل ابراهيم، وبعده . وهاتيك الاقوام والشعوب، انما كانت « عرباً » ولكن ازمنة التاريخ سمتها بأسماء مختلفة . فالعرب في فلسطين منذ خمسة آلاف سنة *

فالعرب، لا اليهود، اصحاب تلك « الصلة التاريخية » الثابتة المتمادية، غير المنقطعة . وعند العلامة المحقق المشهور، السير جيمس فريزر : «ان الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين هم ذراري القبائل التي استوطنت فلسطين قبل الغزوة الاسرائيلية، وانهم ما زالوا متصلين بالارض، لم ينفكوا عنها، ولا اقتلعوا منها . ولئن طغت عليهم للفتوح موجات، فانهم ثبتوا واقاموا»*

فقصارى القول : انه ان صح لليهود وجود مداه مئات من السنين، فللعرب في فلسطين اقامة مستمرة مداها الوف، لامئات . ثم ان ذلك الوجود اليهودي انقطع العهد به منذ ١٨٠٠ سنة . وقد

* تقرير اللجنة الملكية : ص ٢٤
* كتاب جفريس : ص ١٢

Digitized by Birzeit University Library

دام العهد العربي من دون ما انقطاع . فهم ، لا اليهود، اصحاب تلك « الصلة » واصحاب ذلك « الحق »

المولود الاهول السهجين

الانتداب الفلسطيني جنين تصوّر في « العهد » ولكنه خرج هجيناً، احول . ابوه اليهودي الصهيوني السياسي النزعة؛ وأمه السياسة البريطانية؛ وعرابه اثنتان وخمسون دولة . فلا غرو وهذا أصله في الوجود أن جاء احولَ، يريد ان ينظر الى حسن حال يوفره لاهل البلاد؛ بحكم الوصاية المفروض في عهد جامعة الامم، فاذا هو ناظر الى تسليط شعب غريب، ليس بعد في البلاد على شعب فيها هو شعبها المعنيّ بما زعم في الوصاية من خير

فان هو الا خرق لحرمة ذلك « العهد » وعبث بسلطانه، قبل ان تثبت لذلك السلطان قدم وقبل ان يجف حبره على ورقه . وما خفي الامر على لجنة الانتدابات في جنيف . ولكنها اكتشفت السوأة، ونامت عنها . وربما كان ذلك هو السبب الذي آلَ، في آخر الامر، الى تبديل الايمان كفراً، والرجاء يأساً، حتى باتت تلك الجامعة عنوان الحبوط والفشل، وسخرية في السخريات

العرب وهذا الانتداب

وهذا الانتداب القائم على سياسة وطن قومي للشعب اليهودي في عقر دار العرب، أثار العرب ثورات عولجت بالقمع، افظع القمع؛ وبئس العلاج . وما اغالي ان اقول عند استعراض تاريخ الجزر البريطانية : ان امتنا لم يدنس بوصمة اشنع مما لوثه ولطخه هذا الانتداب الوبيل بما تقدم ظهوره وما لحقه من مآت واحداث. وخير لنا ان نسدل ستار النسيان على ما صحب اعمال القمع من مخاز . وقات النسيان، والاولى ان اقول السكوت عما هيهات ان ينسى او يغتفر، وقد نزل في بطون التقارير الرسمية . وحسبنا تصويراً لخطورة العبرة ان نجتزىء بعبارات قلائل نوردها من تقرير اللجنة الملكية التي قضت بتأليفها حوادث سنة ١٩٣٦ للتفحص عن اسباب الفتنة ، واعلانها بصورة لا تحتمل المراء والجدال . فما جاء في ذلك التقرير، نتيجة للتحقيق العميق :

« منذ اول الامر وجد التناقض بين طرفيه . وان نصوص الانتداب بنفسها لناطقة بذلك التناقض المستقر في الامر من اوله » * . . . . . .

« . . . واننا لمقتنعون ان لا سبيل الى اقامة السلام والامن والنظام واستتباب الحكم، ولو الى حين . الا باسلوب شديد من اساليب القمع بالقوة » . . . « اما الاعتراضات الادبية على نظام للحكم قوامه القمع، فظاهرة من تلقاء ذاتها » . . . . . « وليس بسهل ان يسار على طريق

* تقرير اللجنة الملكية : ص ٣٧١

القمع المظلمة من دون ما امل بالوصول الى فجر بعد المسير في هذه الظلمة» *

واين نحن الان من ذلك الفجر ؟ ام نقول مع اللورد كورزون : ان عظمة الامة انما تقوم على اساس راسخ من الحق والعدل ، وليس على قمع الثائر طلباً لحقه ، ودفعاً لظلم لحقه

* تقرير اللجنة الملكية : ص ٣٧٣

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٢٢

القضية الفلسطينية

الظلامة – المندوب الاول – وفد عربي الى لندن – العهد المقطوع لشريف مكة – منطقة الاستقلال العربي – أفلسطين بمنطقة الاستقلال – الرد على زعم الحكومة البريطانية – المراوغة المفضوحة – الكتاب والانتداب – بين الكتابين

الظلامة

ظلامة العرب ظلامة صارخة فاضحة؛ قوامها :

١ : ان الحكومة البريطانية نقضت عهدها المقطوع في سنة ١٩١٥ – ١٩١٦ بالاعتراف باستقلال اقطار عربية كانت واقعة في الحكم التركي

٢ : ان الحكومة البريطانية في سنة ١٩١٧ اصدرت تصريح بلفور الذي تعهدت به ان تسهل احداث وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي؛ فخانت العرب، بعد التعاهد معهم، لان احداث هذا الوطن نكث لعهدها بالاستقلال العربي في الاقطار العربية

٣ : ان الحكومة البريطانية في سنة ١٩٢٢ اعدت وثيقة تعرف بالانتداب الفلسطيني، باحكام مناقضة لمبدإ « الوصاية » والقيامة على خير اهل فلسطين انفسهم، وهم عرب من العرب الذين لزمها ان تعترف باستقلالهم في ديارهم

فلننظر الى هذه الظلامة بعين الحق المجردة عن الهوى . وقبل البدء من تأمل الحقائق التي تقوم عليها دعوى العرب، يجدر بنا ان نذكر ما تقدم به القول : وهو ان عرب فلسطين منذ اوائل عهدهم بالاحتلال البريطاني رفعوا أصواتهم عالية بالاحتجاج على سياسة الوطن القومي، ولم

يتركوا وسيلة من وسائل الاعتراض المشروعة الا تذرعوا بها. ولكن مساعيهم تلك خابت جميعها؛ ولم تزدد ظلامتهم الا ظلماً واظلاماً

المندوب الاول

كان اول مندوب يندب لفلسطين السير هربرت صموئيل : فهلل اليهود وكبّروا وقالوا : صموئيلنا . . نحن . وكان ذلك اليوم من سنة ١٩٢٠ مطلع فجر ودغشة معاً، حتى ان احدهم قال : لا بدّ له من جيش يهودي يحميه من العرب عند وصوله، وجيش من العرب يحميه من اليهود عند قفوله . وكان بهذا القول شيء كثير من الفطنة المستترة. فان السير هربرت، على صحة يهوديته كان صهيونياً عملياً، لا صهيونياً متهوساً متعصباً، فلم يكن مرضيا عنه كل الرضى عند اهل الغلو والتشدد من رجال الطغمة الصهيونية . وكفى به ان كان يهودياً

وفد عربي الى لندن

وجد العرب ان مظاهراتهم في الشوارع، واحتجاجاتهم المكتوبة، لم تجدهم نفعاً، فارتأوا ان يوفدوا وفداً الى لندن يعرض قضيتهم لدى الحكومة في مقرّها . واقترح مقترح ان اكون في ذلك الوفد عضواً من اعضائه، فاكبرته شرفاً، واعتذرت دونه، اكتفاء بان أصحب الهيئة بمثابة صديق يستشار . وكان الرئيس ذلك النبيل الشريف، الحسيب النسيب، موسى كاظم باشا من الاسرة الحسينية العريقة، والسكرتير السيد شبلي جمل من اسرة مسيحية معروفة في القدس . وليس المقام مقاماً لتفصيل ما قام به الوفد من أعمال . ولكنني ذاكرة من الامور صغائر تدل على كثير كبير . والاشارة للبيب، تكفيه

دعي الوفد للاجتماع بوزير المستعمرات، وهو يومذاك المستر ونستون تشرشل، في دار مجلس النواب . وأوعز اليّ أن احضر معي من يقوم بتدوين ما يدور من بحث بالكتابة المختزلة . وعند الدخول، على الباب، عدّ الداخلون وأحصيت الاذون (وكانت ايام « السن – فين » والتشديد على اشده) . فقال الدليل الموكل بنا من رجال الوزارة : « لاحاجة الى من يدون » . فتظاهرت بالانسحاب، وابرز المدون اذناً، ودخلنا بسلام . فاذا القاعة كبرى، والهواء طلق، وقد ربض الوزير الى جانب نافذة، والى جانبه كبير من اعوانه؛ واستقر المقام بالوفد، فاذا هم شبه هلال، وانا والمدون من خلفه . وتجدد الاعتراض على حضور مدون، فاحتج الباشا الرئيس بجهله وجهل آخرين من وفده باللسان الانكليزي، وبحاجتهم جميعاً الى محضر يضبط ما يقال بحرفيته، للتبصر فيه وتدقيقه بعد ترجمته الى العربية . فبقي المدون وبقيت . واقتصرت الفائدة من بقائي على شهادتي، وانا ابنة اللسان الذي كتب به تصريح بلفور ان مقابل « National Home » بالعربية هو « الوطن

Digitized by Birzeit University Library

القومي » ويفيد بلاداً لاهلها، عن آبائهم من قبلهم فيهـا، وهو مفاد اقوى واشمل من مفاد « Home » المعتاد بالانكليزية. ولعل الوزير كان في غنى عن مثل هذه الفذلكة؛ ولكن مجال القول اقتضاها

وبعد محادثة تبودلت فيها الاقوال، مصوغـة صيغـاً ودية، رقيقة الحواشي، قام الوزير، فصافح، وهرول خارجاً. واذا برجل الوزارة مقبل علي يقول: « امرت ان اضبط ما بيدك من اوراق » وكان الوفد قد خرجوا؛ فما وسعني الا ان اسلم كل ما كان بيدي، ممـا دون، وحتى ظرفاً عتيقاً كان يحمل بعض مذكرات على ظاهره. ولكنني سجلت في اذن الضابط: ان قد ضبطت اوراقنا، وحفظنا لانفسنا الحق باعلان ما قد فعلت. ولحقت الرفاق، والوزاري يقول ها انا اعيدها على ان ترسلي بنسخة عنهـا الى وزارة المستعمرات. فجعلت الاوراق في يد الباشا ولمـا جهزت النسخ، ارسلت بواحدة الى الوزارة، طالبة السماح بتسليم الاخر الى الوفد. فجاءني مشافهة على التلفون، ومرت ايام دون تثبيته كتابة

فبعد هذين المشهدين من مشاهد التعنت في التعاطي مع وفد جاء يحمل املاً ورجاء في العدالة البريطانية في بيتهـا، ماذا عسى ان يكون نصيبه من النجاح في رد الحق الى نصابه، وكشف الظلامة ؟

على ان المسئلة ليست مسئلة حق عرب فلسطين فحسب: بل انها قضية الصدق والكرامة البريطانيين في نظر العالم العربي باسره، قضية عهد قطعته الحكومة البريطانية لشريف مكة؛ ولا اجل ولا اخطر

العهد المقطوع لشريف مكة

قصة هذا العهد، بسيطة واضحة، ولو طالت ذيولها. فمن قبل انفجـار بركان الحرب ١٩١٤ كانت للعرب جمعيات سريـة تسعى وتتحين الفرصة للتحرر وخلع النير التركي. وكان شريف مكة — الذي صار فيما بعد الملك حسين — ممن حمل الفكرة، فجعل على رأس النهضة. ونمي الينا ان الشريف يكون هو بنفسه زعيما لثورة عربية وحليفاً يحارب الى جانبنا اذا نحن تعهدنا له ان نعترف باستقلال العرب في الولايات العربية من الامبراطورية التركية. وكان الشريف فطنا ذكياً في مفاوضته ومساومته، فعين حدوداً معلومة للاقطار التي يعترف لاهاليها بالاستقلال المنشود. وانتهت المفاوضة بدخول الجيوش العربية في معارك الحرب، وعلى رأسها الامير فيصل، احد انجال الشريف. وهذه القصة المشهورة مثبتة في وثيقة رسمية اصدرتهـا حكومة بريطانيا *

* الكتاب الابيض رقم C. M. D. 5957

اشتملت على ما تبودل من رسائل بين الشريف والسير هنري مكماهون

وقد اوجز الاتفاق الذي جـرى بين الفريقين في كتاب قيم ألفه صديقي السيد جورج انطونيوس بانكليزية رصينة، على أنه من ابناء العروبة؛ فأجله حيث قال *

« كان اتفاقاً لا يتعذّر اجمال الجوهري من احكامه بخلاصة وجيزة. اما الحربيّ منها، فلم يسطر على ورق، واكتفيَ فيه بامانة الرسول في الاداء. وجوهره انه توجب على الشريف ان يحشد ما لديه من قوة، وما ملكه من نفوذ، وما وصلت اليه يده من جند وعتاد، في سبيل الغلبة على تركيا. وفي هذا السبيل لزم بريطانيا العظمى ان تمين الشريف بتقويـة جانبه، وتزويده بالسلاح والعتاد والمال. ومن الجهة السياسية فرض الشريف على نفسه ان يعلن ثورة عربية، وان يجهر بانتقاضه على الاتراك ومناصبتهم العداء، اعداء الاسلام. وفي ازاء ذلك التزمت بريطانيا العظمى التزامين صريحين: الاول ان تعترف بالخلافة العربية اذا نودي بها، والثاني ان تعترف بالاستقلال العربي في منطقة معلومة وتؤيده. وكم من الاقطار العربية وقع في حيز هذا الالتزام الثاني، سؤال نشأ في اثر الحرب، وكثر فيه الأخذ والرد. ولكن الجدال احتدم وبلغ اشده في امر ارض الانتداب الفلسطيني. فالجانب العربي يقول بوقوع فلسطين ضمن المنطقة المعلومة الواجب الاعتراف باستقلالها. والحكومة البريطانية تنكر ذلك. والطريقة الوحيدة للحكم بين الطرفين انما هي تمحيص ما تبودل بينهما من رسائل »

منطقة الاستقلال العربي

عين شريف مكة حدود هذه المنطقة في رسالته الموجهة للسير هنري مكماهون المؤرخة في ١٤ تموز ١٩١٥، حيث قال :

« تعترف بريطانيا العظمى باستقلال الاقطار العربية المحدودة شمالا : من مرسين الى أطنه حتى الدرجة ٣٧ من خط العرض؛ وشرقاً : حدود العجم حتى خليج البصرة؛ وجنوباً : المحيط الهندي، ويستثنى مركز عدن؛ وغرباً : البحر الاحمر والبحر المتوسط، حتى مرسين » * *

وفي ٢٤ تشرين الاول، ١٩١٥، قال السير هنري مكماهون في رسالة منه للشريف:

« لم أتوان في ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى محتويات رسالتكم (لشهر تموز ١٩١٥) وانه ليسرني ان ابلغكم باسمها البيان التالي، وانا واثق انكم تتقبلونه بالرضى : ان قضائي مرسين والاسكندرونة وأقساماً من سورية واقعة غربي اقضية دمشق وحمص وحماة وحلب،

* كتاب جورج انطونيوس : ص ١٧٦

* * الكتاب الابيض المذكور رقم ٥٩٥٧ : ص ٣

Digitized by Birzeit University Library

لا يصح القول انها عربية صرفاً؛ وينبغي اخراجها من الحدود المطلوبة . وبهذا التعديل، ومن دون اجحاف بمعاهداتنا القائمة مع رؤساء عرب، نقبل بتلك الحدود »

فالمدار على ما هو « المقبول » به حدوداً لمنطقة الاستقلال العربي، اشمل فلسطين أم لم يشملها هذا هو ما اختلف فيه وزير المستعمرات والوفود العربية. فهل شملت الحدود المقبولة فلسطين، وهذا قول العرب، أم لم تشملها، وهذا قول الحكومة. فأما حجة العرب فواضحة كل الوضوح. وهي ان فلسطين هي القسم الجنوبي من سورية، وان الذي أخرجه التعديل انما هو مما يقع غربي دمشق في شمال سورية، فما يصح على ما هو فلسطين؛ فهي اذن من منطقة الاستقلال . وهذه حجة جغرافية لا تقبل تأويلاً، ولا يستطاع دحضها

افلسطين بمنطقة الاستقلال

اجاب السيد جورج انطونيوس على هذا السؤال جواباً مفحماً، حيث قال (على ص ١٧٧ من كتابه):

« لم يعرض السير مكماهون لتعيين هذه المنطقة. ولكنه قبلها بجملتها سوى ما اخرجه عنها، وذلك بتحفظ تقدم به للشريف حسين . ومن ثمة، ففلسطين من منطقة الاستقلال العربي، ان خلا التحفظ من كل ذكر لفلسطين

واول ما يظهر للمدقق في هذه الوثائق هو خلوها جميعاً من ذكر فلسطين. وفي حين ان بعض البلدان العربية، مما استدعى معاملة خاصة، قد ورد ذكره، ولو بصورة مائعة، فليس هنالك اي ذكر لذلك الجزء من سورية الذي كان يعرف بسنجق القدس في الاصطلاح الإداري العثماني. وفلسطين بحدودها الحالية، انما هي ذلك السنجق ومـا جاوره من ولاية بيروت. والسير مكماهون البادية عنايته في هذه المراسلات لتسمية البلدان المعنية بتحفظه، تعييناً لما قصد اخراجه، لا يذكر سنجق القدس تصريحاً، ولا تلميحاً. وهذا الحال وحده كاف لدحض الزعم القائل باستثناء القطر الفلسطيني نصاً وتعييناً من المنطقة التي الزمت بريطانيا نفسهـا ان تعترف لها بحكم عربي مستقل وان تؤيده»

وهذا جواب سديد . وللقارىء جواب الحكومة البريطانية، كما تلقاه الوفد في اوائل حزيران، ١٩٢٢ :

« كان هذا الوعد مقيداً بتحفظ أخرج عن مداه البلاد الواقعة غربي ولاية دمشق. وتلك الولاية ضمت كل ما هو شرقي الاردن، ولكنها لم تشمل سنجق القدس، ولا تلك الأجزاء التابعة اذ ذاك، لولاية بيروت وليست بداخلة في ما هو فلسطين. وهكذا، ففلسطين كلها اخرجت عن نطاق عهد السير هنري مكماهون »

فما الذي صنعته الحكومة ليصح جوابها هذا ؟ غيرت، وبدلت، وزادت من عندها، وأهملت الكلمات الجوهرية الواردة في صيغة التحفظ نفسه. ومن ذلك انها اختلقت كلمة « ولاية » وتعامت عن كلمة « اقضية »، فقالت « ولاية دمشق » لاشتمالها على شرقي نهر الاردن، ولوقوعها كلها شرقي نهر. الاردن على ان التحفظ انما ذكر « اقساماً من سورية ». وعينها فقال « واقعة غربي اقضية دمشق، وحمص، وحماة، وحلب ». ولم يقل « غربي ولاية دمشق ». فالاختلاق، تغييراً وتبديلاً، ظاهر للعيان

الرد على زعم الحكومة البريطانية

فند السيد انطونيوس حجة حكومتنا، مستنداً الى حقيقة ما جاء في تحفظها ذاته، فقال :

« كلمة « أقضية » الواردة في عبارة السير مكماهون، كلمة قائمة بذاتها، وغير ممكن الاحتمال ان القصد كان « الولاية » اذ لم يكن من وجود البتة لولايات اسماؤها : « ولاية دمشق »، « ولاية حمص »، « ولاية حماه ». وانما وجدت ولاية اسمها « ولاية سورية ». ودمشق عاصمة هذه الولاية، التي عدت كل من دمشق، وحمص، وحماة، من مدائنها الكبرى، المسماة الاقضية باسمائها . فعبارة السير مكماهون عبارة لا يستقيم لها أي معنى الا اذا فهم من كلمة « أقضية » حقيقة ما يراد بها، اي ما حول هذه المدائن الاربعة : دمشق وحمص وحماة وحلب. وعلى هذه الصورة، يكون المقصود بالاقسام الواقعة غربيها، كل ما هو غربي خط يخترق هذه المدائن وأقضيتها. وذلك انما يكون : من صيدا الى الاسكندرونة : » *

المراوغة المفضوحة

ولما لفت الوفد العربي نظر وزير المستعمرات الى ما وقع فيه من التضليل بابتداع « ولاية »، تراجعت الحكومة، فوقعت في تضليل اشدّ افتضاحاً؛ اذ جعلت عبارتها في الصيغة النهائية : « اقساماً من سورية واقعة غربي « قضاء » دمشق : ثم قالت : « ان هذا التحفظ، قد اعتبرته حكومة جلالته تحفظاً شاملاً ولاية بيروت وسنجق القدس ». وهكذا تكون فلسطين كلها، غربي نهر الاردن، خارجة عن عهد السير هنري مكماهون » **

ولكن كلمة « قضاء » في عهد السير مكماهون واردة بصيغة الجمع. ومثل هذا التحوير الى صيغة المفرد، عند الاستشهاد، لا يمكن ان يعدّ من قبيل السهو، والمقام مقام أخذ ورد مع وفد رسمي . فالعهد عين تصريحاً أقضية اربعة، ثلاثة منها (حمص، وحماة، وحلب) شمالي رابعها، وهو : دمشق. والواقع غربي هذه الاقضية الاربعة هو ما بين صيدا، جنوباً، والاسكندرونة،

* كتاب السيد انطونيوس، ص ١٧٨

** المستند رقم ١٧٠٠، ص ٢٠ (الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢)

Digitized by Birzeit University Library

شمالا . وليس ذلك « فلسطين » . فالمراوغة ظاهرة، مفضوحة

« الكتاب » والانتداب

وتتمة الرواية: ان وزارة المستعمرات انما ارادت التمهيد لصك الانتداب، باصدار ذلك الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢، وقد بنته على تأويل فاسد لوثيقة رسمية، كتمتها، واعتبرت لها نصاً لم يكن منها، وتفسيراً غير قائم على شيء من نصها. وما تلك الوثيقة الا العهد المقطوع للعرب باسم الحكومة البريطانية، يوم كان وزير الخارجية السير ادوار غراي (لورد فلودن) هو المصدر الذي صدر عنه كل عهد من هذا القبيل. وكان هذا الوزير الخطير نفسه في طليعة المرتابين في التفسير الذي عولت عليه وزارة المستعمرات، فقال في خطبته بمجلس اللوردات في ٢٧ اذار، سنة ١٩٢٣ :

« ومن تلك الالتزامات ما لم ينشر رسمياً، ولكنه قد ظهر البعض من وثائقه. واني لأقترح جدياً على الحكومة ان خير وسيلة لتبرئة كرامتنا انما هي نشر كل ما التزمناه في غضون الحرب حتى اذا كان سليما من التناقض سلمت الكرمة. والا فالاولى ان يعرف مبلغ التناقض، ونوعه، ووجهه، وان يعلن بصراحة ان الحرب باضطراراتها قضت علينا بالدخول في تعهدات متناقضة. انه لا يصون الكرامة ان نغطي العهود، وان ندعي ان لا تناقض ولا تعارض بينها . انني لعلى ثقة تامة ان الصراحة اشرف سبيل للخروج من المأزق. ومن دون مقابلة الالتزام الواحد بالاخر، لا مخرج من مصاعب تصريح بلفور نفسه، عهداً التزمناه واعلناه . فهذا التصريح وعد بوطن صهيوني من دون اجحاف بما لاهالي فلسطين من حقوق مدنية ودينية. وقولنا «وطن صهيوني » ولا ريب، يعني، صراحةً او تأويلاً، حكومة صهيونية لذلك الوطن . فأن يكن ثلاثة وتسعون في المئة من اهالي فلسطين عرباً، فما ارى كيف يمكن ان تقام حكومة غير عربية، ان اريد عدم الاجحاف بالحقوق المدنية . فتلك العبارة وحدها من تصريح بلفور تتضمن مصاعب جمة قائمة في طريق الانجاز. وانما الوعود انجازها »

وفي تلك الجلسة نفسها قال اللورد بكنهاستر :

« لا أزعم انني عليم بالسياسة الخارجية . ولكنني اعتقد انها كلمتان : ان نقول ما نعني، وان نفعل ما نقول . . . وقد عنينا ما قلناه في سنة ١٩١٥ . ولم نفعل ما قلناه في سنة ١٩١٨ . وها انا ذا، حتى اليوم، اسأل الحكومة ان تعود بنا القهقرى رجوعاً الى الوعد الذي صدر عنا، يوم كنا محفوفين بالمصاعب، فأقبل العرب فخففوا من أثقالنا »

بين الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢، والآخر المنسوب لسنة ١٩٣٩، بون شاسع في الزمن وغيره . صدر الاول والحجاب مسدل على المراسلات الرسمية التي تبودلت بيننا وبين العرب، وصدر الثاني بعد رفع ذلك الحجاب . وللعربي السيد جورج انطونيوس كان الفضل الاول في هذا الفارق، يوم أصدر مؤلفه النفيس باللغة الانكليزية، وقد أثبت فيه تلك الرسائل التي كانت الحكومة البريطانية ترفض اعلانها، وتعتذر في كتمانها . يومئذ كان المستر ملكرلم مكدونلد وزير المستعمرات، فدعا الى مؤتمر لندني، شهده ممثلون للعرب ولليهود، والف لجنة، برئاسة اللورد موغهام لفحص تلك الرسائل (الحسين — مكماهون) وبضع وثائق اخر، حتى كأن المعروض للدراسة كان شيئاً من الكتابات الهيروغليفية، والمراد حل رموزه

والى تلك اللجنة تقدمت الحكومة البريطانية بقولين، بمثابة النتيجة لما دار من المباحث: « (١) ان ما تشبثت به الحكومة البريطانية من حيث تعيين البلدان التي لم تكن حرة في شأنها نظراً لما اتصل بها من مصالح لحليفتها، فرنسا، بقي كما كان (٢) ان كلام اللورد غراي بمجلس اللوردات في سنة ١٩٢٣، كان قولا قاله في خطبة من دون ان يكون نص تصريح بلفور بين يديه ». وجاء في تقرير اللجنة قول آخر :

« ان ممثلي الحكومة البريطانية افادوا ممثلي العرب ان براهين العرب، على ما بُسطت امام اللجنة، في صدد تفسير الرسائل، ولا سيما براهينهم المتصلة بمعنى العبارة : « اقساماً من سورية واقعة غربي اقضية دمشق وحمص وحماة وحلب » براهين لها من القوة اكثر مما كان يظهر من ذي قبل »

« ثم ان ممثلي الحكومة افادوا ممثلي العرب انهم يوافقونهم على ان فلسطين داخلة في المنطقة التي طلبها الشريف في رسالته المؤرخة في ١٤ تموز، ١٩١٥، وعلى دخولها في المنطقة التي التزمت بريطانيا العظمى الاعتراف باستقلال العرب فيها الا اذا كانت قد اخرجت عنها بصورة الاستثناء. وعندهم ان ذلك الاستثناء قد وقع بحكم التأويل الصحيح للرسائل. ولكنهم يسلمون بان الصيغة الكلامية ليست على ما كان يظن قبلاً من التعيين وامتناع الغلط »

وكانت خلاصة الامر كله في الجزء الاخير من الفقرة الختامية لذلك التقرير :

« فتي رأي اللجنة، انه لظاهر من هذه البيانات ان حكومة جلالته ليست بحرة ان تتصرف بفلسطين من دون ما نظر الى رغبات اهالي فلسطين ومصالحهم، وانه لا بد من اخذ جميع هذه البيانات بعين الاعتبار في اية محاولة لتقدير المسوولیات التي التزمتها حكومة جلالته نحو اولئك

Digitized by Birzeit University Library

الاهالي، بسب هذه الرسائل، كائناً تأويلها ما يكون »

فالناقد البصير يرى لنفسه في هذه الاقوال نفسها تناقضاً متلجلجاً في عباراتها. ومع ان المستر مكدونلد كان هو نفسه صهيوني النزعة، فانه لم ير بدّاً من الحكم على صك الانتداب — الذي مهد له بالكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ — بأنه كان انتداباً غير قائم على وجه صحيح، بل كان منافياً لوعودنا المقطوعة للعرب، ومخالفاً للالتزامات المفروضة علينا بعهد جامعة الأمم. ومن ثمة كان الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩، نتيجة ذلك المؤتمر اللندني الذي دعا اليه هذا الوزير

وعن هذا الكتاب الابيض قيل انه كان « تسكيناً » للعرب، والتماساً لمرضاتهم، وهم ثائرون. والحقيقة انه لم يكن سوى اعتراف متأخر جداً بشيء من حقوقهم، طال انكاره

الفصل ٢٣

المحاباة المقصودة

بعد ربع قرن — زيارة بلفور — آثار تلك الزيارة — صوت بريطاني — اسمع تفرح، جرب تحزن — مشروع روتنبرغ — مشروعية المشروع — الشروع في المشروع — ليكن نور — ما وراء الاكمة — تكثير الاقلية

بعد ربع قرن

بانقضاء ربع قرن على الحرب الاولى انقلبت حالنا مع العرب، من صداقة خالصة لبريطانيا العظمى الى اتهامنا اياهم بتمني الفوز للالمان؛ وشتان. وقد تقدم بنا القول ان ميول العرب كانت مثة بالمئة بريطانية في سنة ١٩١٧؛ فما جاءت سنة ١٩٤٢ الا وقد استحكم شعور العداء ضدنا، في معاشر العرب كافة، لا لعلة سوى سياسة الحكومة البريطانية تجاه المآرب الصهيونية. ففي عدد جريدة « التيمس » لتاريخ ٤ شباط من تلك السنة العصيبة جاء: « ان ذلك المقت الناجم عن حوادث السنين الخمس والعشرين، استغلته، بالطبع، دول معادية لبريطانيا العظمى، واستغله ايضاً زعماء اقوياء متنافسون ... على ان المقت شيء، والايمان في الالمان وتمني النصر لهم، شيء آخر؛ وما هما سيان »

ومن امثال العرب: وافق شن طبقه. ومن قبله حكمة وافقته ذهاباً الى ان المرء انما يحصد ما زرع. فنحن زرعنا في اواخر سنة ١٩١٧ بذور ذلك المقت عندما أصدرنا تصريح بلفور، فكان الحصاد ما قد اريق مذ ذاك من زكي الدماء البريطانية والعربية. والمقارنة تعود الى رسالة نشرتها جريدة التيمس نفسها في ١١ كانون الاول ١٩١٧؛ وقد جاء فيها: « في ١٧ اذار، سنة ١١٥٥، سلم هرقل، بطريق بيت المقدس، الى الملك هنري الثاني، مفاتيح «كنيسة القبر المقدس»

Digitized by Birzeit University Library

(القيامة) وراية المملكة ، وقال له : عليك بعد الله اتكال اهل البلاد . واجابه الملك هنري قائلاً : ليكن سيدنا يسوع المسيح، ملك القوة، هو حامياً لشعبه ، ولنكن نحن اعوانه، جهد ما بنا من طاقة» . ولليوم قد بقي هذا العهد مفتقراً الى ملك انكليزي يفي به . فليكن المالك الحالي على الامبراطورية ذلك الموفي . فاني اكتب الان ومن حولي اجراس الكنائس تقرع حمداً وفرحاً وابتهاجاً لنصر اوتيناه بعد عديد القرون ، وما بنا شيء من كبرياء الفاتح . بل الحبور والسرور ملء افئدتنا اذ نشعر اننا نستطيع ان نفيض الامن والسلام على من في البلاد فادي الانسانية ، من شعبٍ ، كائناً عنصره ودينه ما يكونان » . وكان كاتب الرسالة رئيساً كنسياً

فأين ما تأمله أحد رؤسائنا الروحيين، في غد احتلال القدس، مما انتاب البلاد المقدسة بأثناء ربع قرن شهد ثورة العرب المسلحة في وجهنا، وشهد ما اتيناه في قمعها من نسف بيوتهم واحراق مؤنهم ومواعينهم وغلالهم . تلك مشاهد مآس، نشرت تفاصيل بعض ما وقع منها، في حينه، فما أنا بعائدة الى ذكرها . وحسبي هنا ان أدون مثالا او مثالين على ما دفع العرب الى الثورة

زيارة بلفور

على اثر عودتي، في سنة ١٩١٩، كان أخٌ للدكتور ويزمن (الزعيم الصهيوني) ثاني الزائرين، وضيفي للعشاء، ليلتئذ، صديق عربي . وبعد العشاء دخلنا في حديث بلغ حداً من الاحتداد، ونحن نتناول القهوة وندخن . وسألت شقيق الزعيم سؤالا ختامياً عما ينتويه الصهيونيون متى استولوا على فلسطين، أيعيدون شعائرهم الى ساحة الهيكل ؟ فقال : كلّا، ثم كلا، بل تكون الجامعة القائمة على الطور هيكلنا . وكانت حجار الإساس الاثنا عشر لتلك الجامعة وقد وضعت قبلما برح اللورد ألنبي البلاد المحتلة

وفي سنة ١٩٢٥ اتخذت العدة للاحتفال بتدشين تلك الجامعة العبرية . وكان بين عظام المدعوين، بل في طليعتهم، اللورد بلفور . وأقيم ذلك الاحتفال في اول نيسان ١٩٢٥، وحضره اللورد بلفور، صاحب التصريح المشهور . وكان لاشتراك الوزير البريطاني فيه في نظر العرب معنى سياسي ومغزى خطير، ولم يكن شعورهم بخاف على احد . ولاح لي انه حق علي أن اواجه المندوب السامي، واصور له عواقب مثل هذا التحدي لعواطف العرب . واذ كنت افضي بغرضي من المقابلة لموظف كبير من اعوانه، فهمت منه ان كل وسيلة اتخذت لدى السير هربرت صموئيل، للحيلولة دون قدوم اللورد بلفور لهذه الزيارة، فلم يكن من سبيل الى اقناعه . واشار علي ان اواجه رئيس دائرة التحريات الجنائية، بدلا من مكالمة المندوب . وعملت بالمشورة، ومن هذا

الرئيس علمت ما كان يدور في خلد المندوب السامي حتى انطلق عن لسانه، حيث قال : « لقد حان للعرب ان يعلموا ان اليهود سادة في بلادهم » جواباً على النصح لفخامته حكماً على ما في نفوس العرب من امر هذه الزيارة . فانقلبت الى اصدقائي العرب، اعلمهم بما هنالك، وأنا مشفقة ان يخرجوا باستنكارهم الى ما لا تحمد عقباه، وما به من جدوى . وكان الزعماء العرب على جانب كبير من التعقل وحسن التبصر، فاكتفوا باضراب دام ثلاثة ايام ، وبشارات حداد سوداء على محالهم، ومقاطعة عامة للورد الوزير البريطاني، الا من كان منهم مضطراً مجبراً بحكم وظيفة

ومن ذلك ان القيمين المسلمين على ساحة الهيكل [1] ابوا السماح للورد الوزير بزيارة هذا المكان، ورفضوا الاذن الذي يمنح لزائر البلاد المقدسة، غير اليهودي، رفضاً أحس به الوزير الخطير نفسه وكل موظف بريطاني في حكومتها . ومنه ان جوقة الصبيان المرتلين العرب اعلنوا استعدادهم للاضراب ان كلف اللورد بلفور التلاوة في كنيسة القديس جورج؛ وكان المطران ينوي تكليفه، فارعوى

آثار تلك الزيارة

« لو كان اللورد بلفور على علم بحقيقة الحال في فلسطين، لما وقع على ذلك الكتاب (الى اللورد روتشيلد) الذي عرف فيما بعد بتصريح بلفور» . هذا ما قاله موافق للورد الوزير في هذه الزيارة . قاله لصديق من اصدقائه كان مقيماً عندي؛ نقله الي الصديق، واللورد بلفور بين الصهيونيين المحتفين به ذات ليلة قضاها على جبل الكرمل

وخرج اللورد الوزير من فلسطين بسلام، قاصداً دمشق الشام . وما خيم الظلام الا وقد احتشدت اقوام حول الفندق الذي نزل فيه؛ فبات وخيبته في زيارة هذه المدينة القديمة اشد نكاية في نفسه . فما اصبح الا وقد بلغ تحرج الامور حد الخوف على سلامة الزائر الخطير، حتى ان السلطة الفرنسية اضطرت الى ترحيله سراً بسيارة انزلقت به انزلاقاً خفياً، في مسارب خلفية، الى مدينة بيروت . فما رأى من دمشق شيئاً غير مظاهر السخط الصاخب . ولا رأى شيئاً من بيروت ، بل مر فيها خفية، تواً، الى باخرة فرنسية راسية في ميناثها . وهناك اقام مخفوراً محروساً ثلاثة ايام، ريثما قامت الباخرة، ووجهتها مرسيليا

فأية آثار، هذه الآثار لزيارة اللورد بلفور لهذه الاقطار ؟

---

(١) يعتقد اليهود ان قسماً من الجدار الغربي لساحة الحرم الشريف هو بقية باقية من هيكل سليمان . وفي ذلك القسم مكانهم المعروف بالبراق . وسيأتي تفصيل ذلك كله في موضعه من هذه الفصول

Digitized by Birzeit University Library

صوت بريطاني

وكان عدد يوم ٢٥ آذار ١٩٢٥ ، من الصحيفة العربية « فلسطين » عدداً خاصاً « صدر بالانكليزية لمناسبة زيارة اللورد بلفور لفلسطين، من حيث هو السياسي الذي عرف باسمه ذلك التصريح الذي قضى على ما كان للعرب من آمال تعلقوا بها عندما دخلت البلاد الجيوش البريطانية، في سنة ١٩١٨ » . وشاء رئيس التحرير ان يسمع صوت بريطاني لتلك المناسبة، فلبيت رغبته بكلمتي التالية :

« اشكو »

١ : الحكومة البريطانية : اذ رضيت ان تصبح آلة في يد اليهود مسخرة لمآربهم القومية في فلسطين

٢ : جامعة الامم : اذ انها عاملة على تنفيذ انتداب في فلسطين مخالف للبند ٢٢ من عهد الجامعة الذي ابتدع الانتدابات

٣ : حكومة فلسطين : اذ انها بعيون مفتوحة تتبع سياسة هي، بتفضيل الاقلية اليهودية وتمييزها، سياسة ظالمة للاكثرية العربية في فلسطين

واطلب :

من البرلمان البريطاني
ومن شعب الامبراطورية البريطانية
ومن جامعة الامم

} ان يفوض على حكومة فلسطين احترام البيان الملكي والتصريح الانكليزي الفرنسي

وهما :

١ : البيان السامي الذي قرأه المندوب السامي في شهر تموز سنة ١٩٢٠، اولا في القدس وثانية في حيفا

٢ : التصريح المشترك، المعروف بتصريح تشرين الثاني ١٩١٨، الذي اعلنه في فلسطين اللورد ألنبي بذاته

ونص ذلك البيان :

« الى الشعب في فلسطين

اود ان تطمئنوا الى ان السلطة الانتدابية ستمارس بالابتعاد التام عن كل محاباة، والى اعتزام حكومتي ان تحترم ما لكل عنصر وملة، منكم من حقوق »

وجاء في التصريح الانكليزي الفرنسي :

« ان الغاية التي تتوخاها فرنسا وبريطانيا العظمى في مواصلتها لهذه الحرب في الشرق، وهي الحرب التي حل عقالها الطمع الالماني، هي تحرير الشعوب التي طال ما استبد بها الترك، تحريراً كاملاً نهائياً واقامة حكومات وادارات قومية تستمد سلطتها من مباشرات السكان الوطنيين الاصليين، وحر اختيارهم » . . . « وهما، أي فرنسا وبريطانيا، بعيدتان عن فرض نظام مخصوص على سكان هذه الاقطار ،وهمها الوحيد ان تضمنا ،بتعضيدهما ومساعدتهما الفعالة، السير الطبيعي لما يكون قد اتخذه السكان لانفسهم بمحض اختيارهم من حكومات »

اسمع تفرح جرب تحزنه

البعد عن المحاباة، واحترام الحقوق، ومراعاة رغائب الاهلين – اقوال جميلة قيلت، وسرت وطمأنت . فهل اعملت، امذهبت ادراج الرياح؟

وهذا التصريح المشترك الناطق صراحة بحكم وطني اهلي - امن اثر فعلي له في فلسطين التي ابتليت بمحاباة اليهود، وتمييزهم، وترجيحهم؛ وهم اقلية غريبة، على العرب، وهؤلاء اهلها واكثرية سكانها ؟

هذه هي الاقوال؛ فلننظر تفسيرها بالافعال، مما جرى حتى في قليل السنوات الاولى للاحتلال البريطاني على يد الحكومة البريطانية

مشروع روتنبرغ

أراد المندوب السامي الاول ان يتعلم العرب كيف « ان اليهودي سيد في بلاده » فكان الدرس الاول الامتياز الذي منح لشركة فلسطين الكهربائية، وعرف، واشتهر باسمه الاوفى دلالةً : مشروع روتنبرغ : اذ كان امتيازاً لليهودي الروسي « بنحاس روتنبرغ » . على انه هو المشروع الصهيوني صرفاً، ولو انه مشروع كهربة فلسطين بكاملها، زراعياً، وصناعياً، ومنزلياً. وكنت قد عرفت بهذا المشروع قبل منح الامتياز بسنين، وشهدت له تمثيلاً بالجفصين معروضاً بلندن، شمل نهر الاردن، من مصدره في بانياس، حتى مصبه في البحر الميت، وشمل ايضاً نهر الليطاني . ولوقوع هذا النهر كله، ومصدر الاردن في منطقة النفوذ الفرنسي، اقتصر فيما بعد على ما وقع في حدود الانتداب البريطاني

وقل ما عرفه العرب او غيرهم من الناس عن هذه الصفقة، حتى تمت، وباتت لغرابتها وأهميتها، موضوعاً للبحث في مجلس النواب في سنة ١٩٢٢ . ومنذ ذاك كان الكلام حول هذا الامتياز مثالاً ناطقاً بالتمييز والمحاباة . وكثيرون أمنوا على قول اللورد برنتفورد (وهو بعد

Digitized by Birzeit University Library

السير وليم جونسون هكس) اذ قال : « عرفت كثيراً عن شركات الاحتكار في هذه المدينة، ولكن هذا العقد المعقود مع روتنبرغ تضمن شروطاً، عمري، لم اسمع بمثلها. هو عقد سلم عمران البلاد برمته الى المستر روتنبرغ ». ولئن صح هـذا الاستغراب الشديد على شروط المشروع، فأغرب منها وأعجب الكيفية التي تمت بهـا تلك الصفقة. هي الحكومة الأم، في القصر الابيض، شاءت تنشيط الرخاء والبحبوحة في فلسطين، وحرصت ان تبقى بعيدة عن مذمة المحاباة، فجادت على شركة صهيونية بحق احتكار « عمران البلاد برمته » من دون ان تأبه لعربيّ واحد، او تحسب لعرب البلاد اقل حساب [1]. أم كيف يكون الاحتكار ؟

وان يقل ان الصهيونيين فاقوا النحلة اجتهاداً ونشاطاً ودراية وحسن تدبير، بما بذلوه من مساع وجهود لدى اصحاب الحل والعقد، حتى فازوا بامنية طالما صبت اليها نفوسهم، فذلك شأن آخر، هو بشأنهم هم، وهو دأب اليهود كافة في غير فلسطين ايضاً من انحاء هذه الكرة . وانما بحثنا عن العدل، وعن الحق، وعن الكرامة، وعن العهود والمواثيق ... اين غدت من هـذه الصفقة وما انطوت عليه من محاباة شائنة، واحتكار اشد شيناً

مشروعية المشروع

انه لمشروع غير مشروع . ولا غرو، فالعدل للجميع، اما المحاباة فلا تعرف المساواة . وتلك حكومتنا كانت تعلم ما لزمها من بنود معاهدة الصلح مع تركيا، ولم يفتها العلم بصحة ما منح من الامتيازات لرعايا عثمانيين او رعايا حلفاء. وكانت الحكومة العثمانية قد منحت امتيازاً لتوليد الكهرباء في فلسطين، وكان صاحبه يونانياً. واودع هذا الامتياز — بل المشروع المشروع — لدى وزارة المستعمرات في حينه (قبلما منح الامتياز لبنحاس روتنبرغ بسنة كاملة) وقدمت جميع الضمانات المالية الكافلة للقيام به . وعبثاً جاهد صاحب هذا الحق المكتسب الاسبق في سبيل حقه . تعارض مشروعة مع مشروع روتنبرغ، وهو اذ ذاك قيـد المفارضة، فسدت في وجهه الابواب . وكل ما حظي به من عطف، كان النصح له والمشورة عليه، أن يتفاهم مع الصهيونيين. واخيراً، تقدم بقضيته لمحكمة العدل الدولي في لاهاي؛ وثبت امتيازه؛ ولكنه حصر بمنطقة القدس. صدته المحاباة، فلجأ الى تلك المحكمة . وانما مهدنا بقصته لما هو ادهى وامر

واي شيء امرّ وأدهى من المواربة والمراوغة، ومجانبة الحقيقة، اذ اسئل السؤال وحق الافصاح؟ فلما تمت الصفقة الرابحة لروتنبرغ في سنة ١٩٢٢، وقامت الكرامة تسأل بلسان بعض النواب ، كان الجواب، من فم وزير المستعمرات : انه لم يكن لدى حكومة جلالته من طلب

(١) في سنة ١٩١٩ تقدم المرحوم فواد بك سعد بمشروع لانارة حيفا بالكهرباء، ووافق عليه الحاكم العسكري، الا ان السلطة المركزية بالقدس أجلت المصادقة . وتمادى التأجيل حتى صودق على مشروع روتنبرغ

سوى الطلب المقدم من قبل المستر روتنبرغ. ذاك هو مبلغ الاستهتار بالحقيقة، ان يعتبر الامتياز الاسبق المودع في حينه لدى وزارة المستعمرات اقل من طلب. وبقانونية ذلك الامتياز الاسبق صدر الحكم، فكان طلباً واكثر من طلب

الشروع في المشروع

بني المشروع على توليد الكهرباء من قوة الماء، وشمل كل ماء. وعلى مقربة من تل ابيب — المدينة اليهودية كلها — نهر العوجا. وبادر المحتكر الى استغلال ما فاز به من شروط « لم يسمع بمثلها » فانار هذه المدينة على اهون سبيل ، اذ اقام محركات دزل، فولد الكهرباء والماء ماء، والنهر نهر، ولا اثر لشيء اسمه العلم او المهارة، علة لامتياز يمنح . وقد اعانه على ذلك كله كلمتان في النص : « واسطة اخرى » معناهما: الاحتكار وليد المحاباة

ليكن نور

قال الله : ليكن نور؛ فكان النور . وقالها المندوب السامي، فكان الظلم وظلامه. ذلك ان مدينة يافا القديمة العربية، كرهت المحاباة، وانكرت الاحتكار، فأبت بلديتها ان تنار شوارعها بنور هذا ابوه، وتـلك امه. حقاً بدافع وطني طبيعي، ولسبب سياسي، لا يخفى، واملة مالية، في محلها، رفضت بلدية يافا ما عرضته شركة روتنبرغ من شروط واسعار. على الرفض اجمع مجلسها، رئيساً واعضاء. وافاقت المدينة العربية، واذا بعمال يهود، يحفرون في جوانب الشوارع، لاعمدة تركز، فاسلاك تمد، وقد انتشر رجال الشرطة لحماية العمال. حتى اذا نصبت الشبكة، اقبل مندوب صاحب الجلالة، قادماً من « دار السلام » (القدس الشريف) وقد اصطف لاستقباله يهود تل ابيب، فأدار مفتاحاً : « ليكن نور »... وكان يوماً مظلماً شديداً ظلامه، يوم انبثق النور في يافا، ظلماً وعدواناً، وعلى رغم مشيئة بلديتها ... حباً في تسويد اليهود، واعلاء كلمتهم

وبعد النور، ثمن النور. أما البلدية فرفضت الدفع . وانقضى العام، ويافا تنـار بنور غير مدفوع ثمنه. وجاء العام الثاني، وقد تدخلت الحكومة، بتهديد مبتكر؛ فانذرت رئيس البلدية بتظليم الشوارع على ان يتحمل المجلس كل مسؤولية عما قد يقع من اعتداء في الظلام . وما أذعن المجلس، ولا تهيب الرئيس. وانتهى المشكل باحتيال واغفال. تغيب الرئيس عن المدينة لشأن عرض؛ وفي غيبته، ويوم احد، هبط يافا من اعالي القدس موظف رفيع المنصب؛ فانصب على وكيل الرئيس بوسائله الدامغة؛ وعاد وقد دفع الحساب، وقطعت جهيزة كل خطاب

وما اظنني مخطئة اذ اقول ان الكهرباء، لكلتا المدينتين يافا وتل ابيب، القريبتين من نهر

Digitized by Birzeit University Library

العوجا، مازالت وليدة الديزل. غير ان ماء النهر ما زال خاضعاً لامتياز روتنبرغ، فما يستطيع العرب ان يرفعوه بطلمبة ليروا اراضيهم، ويزيدوها عمراناً بتوسيع ما عرفوه من زراعة وغرس اشجار. تلك نعمة الاحتكار!

ما وراء الاكمة

مثل هذا الاحتكار، وما انطوى عليه الامتياز من تسهيل لأصحابه وتضييق على غيرهم، أكمة مريبة، ووراءها ما هو شرٌ وأدهى. وخطر لدولة الولايات المتحدة، ذات الحول والطول، ان تتساءل وتسأل عن المساواة في استثمار موارد البلاد، فتلقت جواباً يضن بمثله على كل سائل دون دولة اميركة خطراً وشأناً: «لكيما يمكن اتباع سياسة انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، بما يحق لهذه السياسة من نجاح وإنجاح، ليس بالممكن ان تضمن المساواة في تيسير الاستفادة من موارد البلاد لأشخاص او هيئات مأخوذين بغير هذه الدواعي» *

هذا الذي هو وراء الأكمة، هو السر الحقيقي في حجب العرب عن توليد الكهرباء، للإنارة، ولمقاصد الزراعة والصناعة، وكل مقصد آخر في سبيل ما حق لهم من ترقية وطنهم، وتحسين مرافقه. ان وطنهم المعمور ذاك يكون وطنهم هم، وليس الوطن القومي المراد إحداثه للشعب اليهودي

ولا بد من إيضاح أوفى لما وراء الاكمة فنقول: فلسطين، منذ كانت، بلاد زراعية، ولا يضيرها أن تزداد تقدماً في هذه الناحية من نواحي الفلاح والعمران. ولكن الامتياز، على طوله وعرضه، خلا من كل نص عن فائدة عامة من قبيل الزراعة، الا حيث عنت فئة موحدة لعديد الأغراض، فذكر «الري» الى جانب الإنارة، إنارة الشوارع، وجانب الغرض الاكبر — «الغرض الصناعي». وذلك في فقرة من البند ١٩، في مقابلة البند ١٨ الفياض العجاج بتعداد المصانع والصناعات. وبيت القصيد تخويل صاحب الامتياز الحق «أن، يبني، ويشغّل مصانع ومعامل تستهلك كميات كبيرة من الكهرباء المولدة». فهذا النص الموجز، إنما أوجده مبتكرو مشروع روتنبرغ الصهيونيون، ومن ورائه القصد الأكبر، وهو ان يحولوا بلاد فلسطين الزراعية الى بيئة صناعية ترتبط بسائر البيئات الصناعية في العالم

وللتمويه، قامت قياماتهم بالدعاوة المضللة من تبويق وترمير وتطبيل لفتيان وفتيات تعرض صورهم، وهم يعملون في الارض، زرعاً او غرساً، ليفهموا الدنيا، ويوهموا اليهود في الخارج: ان هذي هي امة اسرائيل عائدة الى ارض اسرائيل بروح اسرائيل. تلك سبلهم المطالبة بفتح

* كتاب حفريس: ص ٤٦١

باب الهجرة على مصراعيه. وما انكر ان بعض من قدموا انصرفوا الى شيء من الزراعة، وعلى جوانب الطرق العامة مستعمرات تشهد لهم بذلك. ولكن سوادهم الاعظم، بل نحو ثلاثة أرباعهم، احتشدوا في المدن، فما تخطر لهم الزراعة في بال

ادرك الصهيونيون ان الفحم الحجري، مولد القوة لادارة آلات المعامل والمصانع، معدوم، لا وجود له في ارض اسرائيل، فاختلقوا الكهرباء — هذا الفحم الابيض — ليوجدوا البيئة الصناعية، بابتكار هذا المشروع، وتوسيع بنود امتيازه واحكامها، وليضمنوا السيطرة على الموارد الطبيعية، وعلى سائر المرافق. ووراء هذه الاكمة، السيطرة السياسية

تكثير الاقلية

ولو كان الامر أمر وطن قومي، ثقافي او روحي، لهان. ولكن القوم انما أرادوه وطناً سياسياً، ودولة يهودية. ومن ثمة صيحاتهم المتعالية، بلا انقطاع، لفتح ابواب الهجرة اليهودية، سعياً حثيثاً الى تكثير الاقلية، استعداداً للمناداة بالدولة. وقد برح الخفاء، فقال زعيمهم الاكبر، الدكتور ويزمن، وهو اليهم قولاً، واوفاهم تؤدة، واظهرهم اعتدالا: «ان انشاء دولة يهودية في فلسطين، خطوة صريحة، قصداً الى التحرير الصحيح، وهو الضالة المنشودة، سيكون هدفاً اساسياً يرمى اليه، عند النظر في شؤون ما بعد الحرب... ولقد اتضح من تجارب العشرين عاماً الاخيرة، في معالجة مشاكل الاقليات، ان هذه المشاكل لاتؤتى بعلاج محلي، وان حلها فيما خص اليهود انما هو التهجير.... وستعظم استفادة العرب من انتصار بريطاني، فيستقلون في سورية وفي ليبية، وينعمون بما قد يستطيعونه من توحد قومي. ومن الجهة الاخرى، لن يكون بد من اتيان مسألة فلسطين بتسوية تيسر حلاً للمشكلة اليهودية، التي ما زالت من اعقد مشاكل العالم واشدها ازعاجاً. فلن يكون هنالك بد من افهام العرب بالصراحة والوضوح ان اليهود سوف يشجعون على الاقامة في فلسطين، وسوف يضبطون هم امر المهاجرة اليها، وان اليهود اذا جاءوا فلسطين، فلهم، ان شاءوا، ان يحرزوا حريتهم وحكم انفسهم بانفسهم باقامة دولة يهودية تكون دولتهم هم، ليخلصوا من حالة الاقلية، والتابعية لمشيئة غيرهم من الامم» *

وكان العرب قد فطنوا لاخطار مذهب «الاستيعاب الاقتصادي» الذي اتخذ قاعدة ذهبية في سياسة تنظيم الهجرة الى فلسطين. ولم يفتهم ان يدركوا، من اول الامر، ان مشروع روتنبرغ، غير المشروع، من مواليد المحاباة والاحتكار، انما قصد به الى تكثير المصانع، لطلب عمال يعملون في المصانع. ومن وراء ذلك كله، تكثير الاقلية اليهودية لتطغو على الاكثرية العربية. وما كان العرب بحاجة الى ان يسمعوا هذه الفذلكة من الزعيم الصهيوني

* عن عدد «المجلة الصهيونية» (Zionist Review) لتاريخ ٦ شباط، ١٩٤٢

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٢٤

المسيحية المحجوبة

العمران والمعالم – نور ونور – مهد المسيحية الاكرم – الخطر على المسيحية

العمران والمعالم

تقدم الكلام على تحويل فلسطين الى بيئة صناعية. وفي ذلك ما فيه من القضاء على كيانها الطبيعي القديم الكريم من روعة وجمال تساوقا مع محاسن الحياة الوطنية ومقتضياتها مما الفه اهاليها العرب، وراقهم، وراقنا وشاقنا، نحن الذين نقرأ اسفار العهدين، القديم والجديد، من الكتاب المقدس. وقد وجدنا ان لذلك التحويل غرضاً سياسياً، هو تكثير الاقلية اليهودية، وتحويلها الى اكثرية، ليتسنى للشعب اليهودي ان يحول الوطن القومي الى دولة يهودية، فيستقل بارادته عن مشيئة الامم، ويتم خلاصه وتحريره. وهي الغاية التي لم تخف بوادرها على العرب، فقاوموها وناهضوا طلابها واصحابها، لما انطوت عليه من تقليص ظلهم، والعمل على اضمحلالهم. وعرب فلسطين عنصر من عناصرها، وقوم من اقوامها، على حد قول البيان الملكي السامي. بل هم، بالحقيقة، أحق عناصرها واقوامها بها، ارضاً، وماء، وسماء. اما لهم الكلام الملكي بحكم عادل بعيد عن المحاباة العنصرية، وجاءهم مشروع الكهرباء، باسم النور والضياء، باخطار الاحتكار، وبوادر البوار

والآن، فلنر الى معالم المسيحية، في بحيرة طبرية، كيف يعبث بها هذا المشروع، ويعيث بطهارتها وقدسيتها. وما من احد يذم النور ولكن «ليس بالخبز وحده يحيى الانسان». وما النور الذي يولده هذا المشروع من محركات الديزل الا حجة في القول. وحتى لو اقتصر في توليده على ماء الاردن، فانه نهر مبارك، ينصب في بحيرة مقدسة، على

شواطئها، وفوق امواجها، معالم للمسيحية، ليس هذا «الفحم الابيض» عندها الا الظلام والسواد الاظلم. ومنذ ١١ كانون الاول، ١٩١٧، كتب ريدر هغرد الى جريدة التيمس، يقول: «المسيحيين، كما لليهود، مصالح وشؤون في البلاد المقدسة» وكان ذلك على اثر اعلان الوعد البلفوري بالوطن القومي اليهودي في فلسطين. وما مان ذلك الصهيوني الكبير اذ قال لمسيحي اشفق على شواطئ بحيرة الجليل من عواقب مشروع الكهرباء: «الخراب والتدمير رائدان لكل عمران وتحضير» وقد اراد انه لا بد من هدم القديم ليقام الجديد على انقاضه. تلك جرأة وجسارة، ابعد مدى من الصراحة في تصوير المصير. وانه لمن حق المسيحية ان تجرؤ هي فتقول كلمتها في ايثار معالم النهر والبحيرة القديمة على كل ما يتبجح به العمران المادي من خيرات وبركات. فقد يعد توليد الكهرباء، بقوة انحدار الماء، عملاً هندسياً مجيداً في نظر الصهيوني. ولكن لهذه البقعة حرمة خاصة، ولامواهها كرامات، ما بعد امجادها من مجد. فما يعجبنا تحويل ماء اليرموك المنحدر من اعالي جلعاد عن مجراه. ولا يعجبنا البتة ذلك السد الحائل دون انسياب نهر الاردن في واديه، على عهده في العصور. ولا يرضينا ما يحدثه ذلك السد من رفع مياه بحيرة الجليل عن مستواها، ليغمر شواطئها العامرة بمجيد الذكريات. ان يوحنا المعمدان لينكر الحمأة والوحلة اطاراً لجمال البحيرة، كلما فتحت حواجز ذلك السد في الصيف او في الخريف، فتراجعت امواه البحيرة، وانحسرت، لتنصب في انابيب مولد قوة كهربائية، للمقاصد الصناعية؛ ولا سيما بعد انكشاف الغطاء عن تلك المقاصد. وكل مسيحي معمود هو ذلك المعمدان. فبئس المشروع، الطامس على تلك المعالم، باسم التحضير والعمران

نور ونور

هنالك، حيث بُنيَ لتوليد الكهرباء، بالحجر والحديد، هنالك وُلد الضياء ونور الأنوار. على شواطئ بحيرة الجليل اختار السيد المسيح تلاميذه، من معشر الصيادين، وأرسلهم رسلاً يحملون رسالته نوراً للقلوب والارواح. ووقع الاختلال، وحل الانتداب، ومن العرب صيادون بشباكهم وسفنهم، يمثلون المسيحية، بعد عشرين قرناً، حال بحيرة طبرية في زمن المسيح وتلاميذه. يشاهدهم المسيحي فيبتهج قلبه، وتجذل نفسه. وجاء مشروع روتنبرغ، فأقلق البحيرة وما حولها وكل ما هو منها واليها. كانت الاسماك، على انواعها. تتسرب من عجيج الاردن الهدار، وأحشاء البحيرة الباردة، الى دفء سواحلها وسكونها، للتوالد والتكاثر، جرياً على سنّة خلقها، منذ خلق الماء وخلائقه. وعلى الارتزاق بصيدها عاش صيادون، زماناً بعد زمان. سنّة الله في خلقه من حيوان وانسان

والعهد أننا انما تسلمنا المكان بمثابة أوصياء لنصون تخومه ومعالمه ونولي أهله ما يصلح لهم

Digitized by Birzeit University Library

من معونة وارشاد. فما بالنا نغير معالم البلاد، ونسكت عن قطع الارزاق ؟ وقد رأى القارىء ما بالفصول السابقة من المام بمعايش العرب في منازلهم وحقولهم، يجلو لنا الكثير من الذكر الحكيم في العهد القديم. وها نحن الآن حيث نشهد العبث بما يطيب لنا من ذكريات « العهد الجديد » وامجاده

ولقد آل انشاء الوطن القومي للشعب اليهودي الى اضمحلال العشرات من القرى العربية، وحرمان الألوف من القرويين العرب من معايشهم التقليدية. ونحن أولاء الدائنين بالمسيحية أولى الناس بالمحافظة على عرب البلاد المقدسة، وتأمين حريتهم واختيارهم ان يحتفظوا بتراثهم من عادات ومرتزقات

والمسيحية مثل ما للعرب في فلسطين من حقوق جديرة بكل صيانة. فلا يطغون نور روتنبرغ على نور المسيحية المتلألىء في المعاشر العربية في الديار الفلسطينية. انها البلاد المقدسة قبل ان تكون بلاد الانتداب البريطاني

مهد المسيحية الاكرم

وليكن بما تقدم الكفاية اظهاراً لما هو جار بفلسطين مما يتنافر والشعور المسيحي، وينافي كرامته . ومن يحسب ان بما بيناه غلواً او مغالاة، فحسبه النظر الى ما جاء في تقرير « لجنة التقسيم » الصادر في سنة ١٩٣٨ :

« ان العواطف الدينية المسيحية لتمتعض امتعاضاً شديداً اذا بلغ المستوى الاعلى لمياه بحيرة الجليل (عند اقفال السد) حيث يطغو على الاماكن المتصلة اتصالاً وثيقاً بالدين المسيحي، او اذا راح مستواها الادنى (عند فتح السد) يعيث بصورة فعالة بما لشطوط البحيرة من جمال طبيعي »

جاء هذا الكلام على الصفحة ١٤٨ من ذلك التقرير الرسمي، فكان تأييد صريحاً لتوصية اللجنة الملكية حيث قالت في تقريرها الاسبق الصادر في سنة ١٩٣٧ (ص ٣٨٢) :

« نوصي بان تؤتمن الدولة المنتدبة على ادارة قضاء الناصرة، وان تخول السلطة التامة لصيانة ما لمياه بحيرة طبرية وشواطئها من القدسية »

ولا بدع، فالناصرة، وما حولها من الجليل، مهد المسيحية الاكرم

الخطر على المسيحية

وما قل، في هذا الزمن، المسيحيون المفتقرون الى التبصرة والتنبيه، قبل ان يحل المكروه،

ولعلة، بانت وجوهها، اوصت اللجنة الملكية ببحيرة طبرية، وبالناصرة المكرمة، خيراً، وجاءت لجنة التقسيم فأشارت الى مواطن الخطر، دعوة الى الحذر . وهذا الدكتور كرستي، العلامة في اللاهوت، الذي قضى نصف قرن بين اليهود في روسيا وفي فلسطين يشير الى صلاتين من صلواتهم اشارة فيها البلاغ لكل ذي بصر :

« برح الخفاء، ورفع الغطاء، فظهر وبان، ان ذلك الصراع المتمادي ليس لاجل استئصال العرب، بل لاقتلاع ما المسيحية من عروق واصول . فمنذ ايام قلائل وقفنا على كتاب طبع في القدس، وقد احتوى صلاتين قديمتين، كانتا، في سالف العصور، مبعثاً لقلق المسيحيين . وبطبعها من جديد بعث لذلك القلق. تعرف الواحدة ببركة هامينيم ويقال للاخرى آلومي وهذه من وضع أبا آرقا البابلي (١٧٥ — ٣٧٤ م)

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٢٥

الثروات المنهوبة

الثروات الدفينة – الامتياز الاكبر – قصة الامتياز – النفط والبحر الميت

الثروات الدفينة

انقضت الحرب العالمية، ولأهمية الأقوات والأطعمة، صدىً تجاوب في انكلترة، دعوة الى وجوب تحسين الانتاج الزراعي. وفي معرض ذلك التحسين، تردّد ذكر البوتاس، في مقدّمة لوازم الأسمدة، فضلًا عن الحاجة اليه في صنع بعض الذخائر الحربية. وفي تلك الايام كانت المانيا مستولية على هذه المادة المعدنية استيلاء المحتكِر لمنافعه، في الزراعيات، وفي الحربيات جميعاً

فانصرف العلماء الى البحث. واذا بالدكتورة أنّي هومر، الضليعة في الكيماويات، تحول لأنظار الى البحر الميت وثرواته، فتعلن للملاء انه يمكن استخراج مليون طن من البوتاس، سنويًّا، طيلة ألفي سنة، من مياه هذا البحر المهجور. وأيدها الكيماويّ الشهير، الدكتور نورتن، الاميركي، فقدر ثروات هذا البحر وما حوله برقمٍ هائل « ٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ليرة استرلينية »

الامتياز الاكبر

وقد بحثنا عن مشروع روتنبرغ وامتياز الكهرباء، وعن وقوعه لليد الصهيونية، أداة فعّالة تنتج قوة سياسية، وحاولنا تبيان مساوىء ذلك كله، مثالاً على المحاباة وأخطارها لا على أهل البلاد، فحسب، بل على الكرامة المسيحية. ففي قصة هذا الامتياز الاكبر لاستثمار عناصر البحر الميت، المثال الآخر على أخطار المحاباة وتفضيل الصهيونيين. وقبل ايجاز تلك القصة من طوال دخائلها وتعاريجها، نقدم لها بكلمةٍ جاءت على الصفحة ١٤٨ من كتاب عنوانه « الصهيونية »

بقلم الصهيوني ل. ستين :

« مشروعان عظيمان انصرف اليهما اليهود بعظيم الجهود : استثمار القوة المائية في فلسطين، على يد شركة الكهرباء، واستغلال معادن بحرها الميت على يد شركة البوتاس. في كلا المشروعين أعمل اليهود ما أُوتوه من حسن المبادرة، ومزية الاقدام، وما أحرزوه من حذق ومهارة، في تطبيق العلم، ومن وراء ذلك كله، قوة المال اليهودي. وان ذلك لدورٌ فاصل من ادوار الاحداث لمرافق، كبيرةٌ اقدارها في تقرير مستقبل فلسطين الصناعيّ »

ومثلها كلمة عضو من اعضاء الوكالة اليهودية قالها في مؤتمر صحافي عقد في تل أبيب في اوائل سنة ١٩٤٢ (نأخذها عن المجلة الصهيونية (The Zionist Review) لتاريخ ٢٠ شباط ١٩٤٢ :

« في فلسطين اليوم ١٨٠٠ مشروعاً صناعياً، كلفت ١٤،٠٠٠،٠٠٠ من الجنيهات، وتنتج سلعاً بمثل هذه القيمة، سنوياً. وقد اصبح ٤٥٠٠٠ من ابناء اليهودية المشتتة يعيشون بفضل هذه الصناعات... وقد وجهت نسبة عظيمة من رأس المال القومي الى انجاح مشروع البحر الميت ومشروع الكهرباء ... ولو امكن اصطناع السلع من مواد البحر الميت في مصانع محلية، بدلا من تصديرها، لازدادت صناعاتنا اضعافاً، فتوسعت طاقة الاستيعاب، فانفتحت الابواب لمئات الالوف، بل للملايين من المهاجرين »

قصة الامتياز

منح الامتياز، وقضي الامر. وقد يتبادر الى الذهن ان وقوعه لليد الصهيونية كان ضربة لازب لعدم تقدم احد بطلبه. وهذا وهم يجدر بي تبديده بايجاز قصة التمييز والمحاباة هذه، المباينة للبيان الملكي السامي، وللعدل والانصاف على الاطلاق. فلقد كانت الدكتورة المذكورة، أني هومر، اول طالب، ومعها المستر بكنل؛ وهذا هو « الفريق البريطاني. » وتألف الفريق الثاني من الماجور هنري، والمستر و. ميتلند ادوردس؛ وكلاهما بريطاني. والفريق الثالث كان المستر موزس نوفومسكي (واسمه يدل عليه) والماجور طولوخ، وهذا اسكتلندي. وقد مر ذكر الدكتور نورتن الاميركي، فهذا وشركة املاح البحر الميت الاميركية، فريق رابع. وكل من الفرقاء الاربعة طلب، وطالب؛ وكان السبق، زمنا، للفريق البريطاني؛ فانه شرع في مباحثة في سنة ١٩١٨، وواصل السعي، فتقدم، بتقاريره لدوائر الحكومة البريطانية، وقدم الضمانات المالية الكافية، وكان يلقى تشجيعاً وتنشيطاً

وفي سنة ١٩٢٥، دعا وكلاء التاج الى تقديم العروض؛ وقيل للفريق البريطاني ان عرضه كان افضلها. ولكن الحكومة عادت فدعت الى تقديم عروض معدلة، وعينت آخر سنة ١٩٢٦

Digitized by Birzeit University Library

موعداً اخيراً، واوعز الى الفريق البريطاني ان يدمج الفريق الصهيوني ويخلطه بنفسه. وعندئذ بدأت فصول الرواية. فان نوفومسكي اتخذ موقف الاصرار على ان يكون له ولجماعته الماليين اليد العليا وحق السيطرة التامة

وما حل شهر نيسان ١٩٢٧، الا وقد فاز بالامتياز الفريق الصهيوني، فريق نوفومسكي. فاين غدا الفريق البريطاني، الاول، وفريق هنري وادوردس، وكلاهما بريطاني؟ هذا ما نجمله، الان، عبرة وذكرى

ضمنت معاهدة الصلح التي عقدت في لوزان في سنة ١٩٢٣ مشروعية الامتيازات الممنوحة لرعايا تركيا ورعايا الحلفاء. وبحكم الانتداب، حلت بريطانيا محل تركيا. وكانت الحكومة التركية قد منحت امتيازاً لاستثمار املاح البحر الميت لثلاثة من رعاياها، وذلك بفرمان سلطاني لسنة ١٩١٢، وحالت حرب البلقان، ثم الحرب العالمية دون الشروع في الاعمال. ففي سنة ١٩٢٣ بيع هذا الامتياز التركي الى المستر و. ميتلند ادوردس. وفي حينه بادر هذا المشتري الى مراجعة وزارة المستعمرات، طالباً الاعتراف بالحقوق المنتقلة اليه، وكان ذلك قبل عقد معاهدة لوزان، فاجيب بعدم امكان النظر في الامر ريثما ينعقد الصلح مع تركيا. وبمثل ذلك كان الرد على الفريق البريطاني الاول؛ وكان رداً وجيهاً. ولكن وزارة المستعمرات لم تذكر اي سبب او علة عندما ابلغت المستر ادوردس رفضها النهائي ان تعترف بالامتياز التركي، لما اعاد الكرة بعد عقد الصلح

والعلة المقدرة لذلك الرفض أن كلاً من المأجور طولوخ وموزس نوفومسكي، على حدته، كان قد طلب مثل هذا الامتياز في شهر كانون الثاني ١٩٢٣، والاول اسكتلندي، والثاني يهودي روسي مولداً (واليوم يحمل الجنسية الفلسطينية)؛ واوعز اليهما رسمياً ان يتفقا، ويكونا فريقاً واحداً. وتم الاتفاق، على ان يتولى المفاوضات نوفومسكي، ويكون فيها مطلق الحرية وخلياً من كل مسؤولية. وسعى نوفومسكي سعيه؛ فاذا بالفريق البريطاني (هنري — ادوردس) قد اتفق مع هذا الموفق، على اساس المساواة؛ وكان اتفاقاً موعزاً به. ولكن القرار جاء بقبول عرض نوفومسكي وطولوخ، باعتباره عرضاً مستقلاً بذاته فاضطر ادوردس الى بيع امتيازه الى شركة فرنسية، ليصح له التقدم الى محكمة العدل الدولية. وخشيت الحكومة البريطانية التعرض لاحتمالات المحاكمة، فعرضت التحكيم؛ وعادت فاشترطت للسير فيه استعداداً من جانب الحكومة الفرنسية لدفع التعويض عما لحق البريطانيين من اضرار ضرب دمشق، فتراجعت حكومة الانتداب السوري عن نصر الشركة الفرنسية

وهكذا آل هذا الامتياز الاكبر الى يد صهيونية. ومما يستوقف النظر ان كلا من روتنبرغ

ونوفومسكي يهودي روسي، واشتهر الاول بنزعته الثورية، حتى انه عد مسؤولا — الى حد — عن اقتلاع ابن عم ملكنا جورج الخامس، عن عرشه

وعن حظ الفريق الرابع — الاميركي — قل ما علم سوى ما سبق به القول الرسمي الصريح من تعذر المساواة، نظراً لما اقتضاه الوعد بتجييد الوطن القومي اليهودي من التأييد الخاص لمشاريعه، ومطالب دعاته

النفط والبحر الميت

وعلى ذكر البحر الميت وثرواته المعدنية، المقدرة بارقام فلكية، يحسن بي الاستطراد الى خبر البحث عن النفط في منطقة هذا البحر العجيب. وقد ورد في كتاب ازرق لسنة ١٩٣٥ نبأ احتمال وجود هذه المادة الزيتية في جبل اسدوم من جوار البحر الميت وكانت صديقتي الدكتورة أني هومر قد طلبت اذناً بالبحث والتنقيب؛ واطلبها هذا الآخر قصة جديرة ان تدون، ولو ايجازاً، لان حجة الحكومة البريطانية في الرفض ما زالت موضعاً للريبة. ففي جلسة ١٥ تشرين الاول ١٩٤١، لمجلس النواب، كان الجواب — والحرب يومذاك في ابانها — «لا، يا سيدي، لم يثبت بعد ان في منطقة البحر الميت حقول زيوت «اقتصادية»؛ وخير لنا الانفاق على حقول عامرة». فهذا جواب لا يصح السكوت عنده لسببين. الاول: عظم بعد كركوك، الواقعة على ٧٠٠ ميلاً من حيفا، بالقياس الى ٧٥ ميلا، هي كل مابين غزة والبحر الميت من مجال. والثاني: انه لابد من التفريق بين امر وجود النفط، من حيث هو، وبين امر النفقة اللازمة لاستثماره. فهل لشركات الزيوت العالمية النفوذ من دخل في الموضوع؟ سؤال لا يستغرب عند الالمام بما صادفته الصديقة من مماحكة واعنات

ففي سنة ١٩٢٨، وقف في سبيلها اذن سابق لغيرها؛ وكان مقيداً بشرط العمل الجدي، وبمدة سنتين. وتكرر تجديد ذلك الاذن، برغم اهمال العمل به، حتى سنة ١٩٣٤، فسقط وزال. فقامت في السبيل عقبة جديدة، وكانت «وجوب تسجيل الطلب شخصياً في القدس». وفي القدس، أحلنا [1] على عمان، لوقوع قسم من الاراضي المقصودة في حدود الامارة. وقصدنا عاصمة الأمير، وحظينا بإقباله وترحيبه. وما عدنا الى القدس الا لنعلم «ان أمر طلب الدكتورة أني هومر لرخصة مباحث في فلسطين وشرقي الاردن قد رُفع من يد حكومة فلسطين، وجُعل في يد وزارة المستعمرات، بلندن». ولما حسبنا الأمر أمراً يقضى في لندن، وجدنا البحث دائراً حول تأليف لجنة للنظر في تعديل قانون المعادن الفلسطيني، وأن لا بد من تأجيل

(١) المراد الطالبة الدكتورة هومر وأعوانها وفي طليعتهم المؤلفة وشقيقتها المسز فوكس سترنغ ويز

Digitized by Birzeit University Library

البت ريثما يصدر القانون الجديد. دوران سبب الدوار. ويقول الوزارة المسؤولة : « لم يثبت بعد ان في منطقة البحر الميت حقول زيوت اقتصادية » سرّ الأسرار

فهل لشركات الزيوت العالمية الكبرى من دخل في الموضوع ؟

وكيف تكتم هذه القصة، ولاليوم لا من يعلم علم اليقين ان لا نفط في بلاد «عَمق السديم»[1] وبريطانيا العظمى في حاجة ١٠،٠٠٠،٠٠٠ طنًا سنويًا، تستورد ٩٥ في المئة منها من الخارج، وهذه الحرب، حرب نفط، وقد احرق العدو خزانات البترين في حيفا، وما زال يهدد الانابيب؟ أم كيف أتغالك فما أدوّن هذا الدين على ذمة حكومة بلادي البريطانية، وأنا أكتب ذكريات خمسين عاماً في بلاد بحيرة الجليل والبحر الميت ؟

(١) في العدد ١٠ من الفصل ١٤ من سفر التكوين « وعمق السديم كان فيه آبار حمر كثيرة فهرب ملكا سدوم وعمورة وغرقا هناك »

الفصل ٢٦

فتنة فلجنة

البساط السحري - يد الحكومة البريطانية في النول - الوكالة اليهودية - لكل فتنة لجنة، فحسب - مسير التقرير

البساط السحري

تراءى الحلم الصهيوني لليهود بساطاً سحرياً يمثل دولة يهودية؛ فاعتزموا ان يحيكوه. فقامت المنظمة الصهيونية بمثابة النول، والمجتمعات اليهودية بمثابة السدى، وكانت اللحمة ارض العرب في فلسطين. واعوزهم المكوك فكان صك الانتداب المصنوع من تصريح بلفور. وطلبوا المادة، فيسّرها « الصندوق اليهودي القومي » (كرن كيمت) و « صندوق التأسيس (كرن هيسود). ودار النول؛ فاذا وقف المكوك، لمعارضة او اشتباك، يقول لهما القلق والاضطراب، تداخلت الحكومة بلجان التحقيق وتقاريرها، ووصلت الخيوط، واستؤنف النسج على هذا المنوال

ما طرحت الحرب العالمية الاولى اوزارها الا وقد ادخل في روع وزرائنا ان يحلوا مشكلة اليهودي التائه الابدية ببعث الدولة اليهودية من قبرها. اعجبهم الحلم الصهيوني ببساطه السحري فاصطنعوا لحياكة الدولة اليهودية تصريح بلفور والانتداب. وكان رئيس الوزراء، يومذاك، المستر لويد جورج؛ وهو من قال امام « اللجنة الملكية » :

« ... بلى، كان المنظور، انه متى حان الحين لقيام حكم تمثيلي في فلسطين، وكان اليهود قد لبوا نداء الفرصة المتاحة لهم بفكرة وطن قومي فاصبحوا اكثرية قاطعة حاسمة، ففلسطين اذ ذاك صائرة دولة يهودية »

وقال تقرير اللجنة :

Digitized by Birzeit University Library

« فالظاهر، اذن، ان حكومة جلالته كانت على بصيرة من ان المصير هو الى قيام دولة يهودية . . . وكان الزعماء الصهيونيون مؤمنين ان تصريح بلفور لم يحجب قيام دولة يهودية في آخر الامر . . وفي ٢ آذار، ١٩١٩، قال الرئيس ولسون: « انني لمقتنع ان الامم المتحالفة، بموافقة حكومتنا وشعبنا التامة، على اتفاق في أمر وضع الأسس في فلسطين لقيام دولة يهودية. وكان الجنرال سمطس عضواً في وزارة الحرب، عندما صدر تصريح بلفور، وهو من قال، في خطبة، ألقاها في ٣ تشرين الثاني ١٩١٩، في حديثه عن تعاظم سيل الهجرة الى فلسطين، ان الأجيال المقبلة ستشهد دولة يهودية عظيمة جديدة فيها. وكل من اللورد روبرت سِسِل، والسير هربرت صموئيل، في سنة ١٩١٩، والمستر تشرشل، في سنة ١٩٢٠، كان يتكلم ويكتب بما نم عن انتظار هذه الدولة. وما كانت أمهات الصحف لتتورع عن ابداء مثل هذا التوقع في تعليقها على تصريح بلفور واحتمالاته » *

ومثل هذه الأقوال، صادرة عن مثل هؤلاء الرجال، بعثت في المنظمة الصهيونية أحر الآمال، فاندفقت سيول الأموال الى « الصندوقين » المذكورين. وكان « القومي » منها قد أنشيء منذ سنة ١٨٩٧ في زمن ثيودور هرتسل، أثراً من آثار مؤتمر بال. وكانت غايته، منذ البدء « استرداد ارض اسرائيل بشراء الاراضي في فلسطين على ان يؤيد بقاؤها ملكاً للشعب اليهودي كافة، فما يحل نقل هذه الملكية، ويكتفى بتأجيرها لمن يستقر في فلسطين من اليهود » ** وعن اغراض « الصندوق » الثاني، صندوق التأسيس، جاء في عدد ١١ تشرين الاول ١٩٤٠، من « المجلة الصهيونية » : « مهام الكرن هسيود هي المهام المعهودة في دولة قائمة. فإن ما تقوم به حكومة في بلادٍ تضطلع به الوكالة اليهودية في فلسطين عن طريق مؤسستين، احداهما هذا « الصندوق » والأخرى « الصندوق القومي ». وجدول أعمال مؤسسة « التأسيس » هذه، ولا ينقص شيئاً عن برنامج حكومة وطنية. فإنها تُحدث المشاريع الصناعية، وتنشيء المستعمرات (القرى) الزراعية، وتمول الاشغال العمومية، من طرُق وجسور، وتساهم في الشؤون الصحية، وشؤون التعليم، وتتحمل قسطاً هاماً في ولاية الأمن. وما من شأن عامّ حيويّ الأهمية ذي اتصال بحياة فلسطين اليهودية الاّ وللكرن هسيود يدٌ فيه ». وهي مؤسسة أُحدثت في سنة ١٩٢٠، وهذا مدى أعمالها، كما وصفه كاتب ذلك المقال، بعد عشرين عاماً

---

* براجع تقرير اللجنة الملكية (الفصل ٣ ص ٣٤)

** كتاب هايمسون، ص ١١

يد الحكومة البريطانية في النول

ولقد كانت مهمة الحكومة البريطانية في نسج البساط، تأليف اللجنة بعد اللجنة، للتحقيق والتقرير، كلما قامت في البلاد فتنة، طلباً للحق وتقرير المصير. ولم يكن من حدوث الفتن بدٌ. فانّ العرب تنبهوا لما كان يحاك لليهود من دولة خلال ديارهم، فهبوا الذود عن ذمارهم، أولاً، في القدس، في ١٩٢٠، ثمّ في يافا، في ١٩٢١ . وتعاقبت لهم بعد ذلك نهضات وقومات، أعمّ وأشدّ. وكل قومة أعقبت لجنة تنظر في اسبابها، ولكل لجنة اسمها وعنوانها. وبُلغت الذروه باللجنة الملكية، في ١٩٣٦، والاسباب هي نفس الاسباب، ولو تنوّعت صورها، فما اختلف جوهرها، وما خفيت يوماً على محدثها وموجدها. ولكنه، وذرّ الرّماد في العيون

ولا بأس بسرد اسماء تلك اللجان، تذكيراً بالحوادث :

السنة	اللجنة
١٩٢٠	لجنة بالين : وكانت قضائية، للتحقيق في فتنة القدس . وبقي تقريرها في طي الكتمان
١٩٢١	لجنة قاضي القضاة، السير توماس هيكرافت : للتحقيق في فتنة يافا. ونشر تقريرها، كاشفاً عن مقاومة العرب للوطن القومي اليهودي وجاء فيه : « وشهد الدكتور ايدر، وكيل رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية، وكان صريحاً في اعرابه وافصاحه عن الهدف الصهيوني، فما اخذ بما يقوله وزير المستعمرات او المندوب السامي عن « الوطن القومي » بل ارتأى انه لا مجال بفلسطين الا لوطن قومي واحد، هو الوطن اليهودي، بارجحية يهودية ومن دونما مساواة بين اليهود والعرب. وبوصفه نائباً للرئيس الصهيوني، بسط هذا الشاهد، بصورة صادقة، العقيدة الصهيونية من جميع نواحيها، فلاقواله من الاهمية اعظمها »
١٩٢٩	لجنة شو، البرلمانية : للتحقيق عن فتنة « المبكى » (البراق) . وهذه اللجنة اشارت بلزوم التحقيق العلمي في مشكلة الاراضي
١٩٣٠	تقرير السيرجون هوب سمبسون : فصل مشكلة الاراضي
١٩٣٢/١٩٣١	تقرير المستر لويس فرنش : وكان قد عين للنظر في تحسين العمران الزراعي، وتلافي نقص الاراضي عن حاجة العرب

Digitized by Birzeit University Library

١٩٣٦ اللجنة الملكية : للتحقيق عن اسباب الاضطرابات الخطيرة التي وقعت في هذه السنة، على اثر ما كان في ١٩٣٥ من العود الى تأليف مجلس تشريعي، على اساس اقتراح تردد العرب في قبوله، واجمع اليهود على رفضه. وهي اللجنة التي عظم تقريرها حجماً، وخطورة، اذ قررت : « ان لا توفيق بين ما وعد به اليهود، وما تعهد به للعرب » و « ان إعمال الانتداب بصيغته المعهودة غير ممكن » . فأوصت « بتقسيم البلاد الى قسمين، مستقل احدهما عن الآخر، قسم عربي، وقسم يهودي »

١٩٣٨ لجنة التقسيم : وهذه قسمت البلاد الى ثلاثة أقسام، بريطاني، ويهودي، وعربي، فما اعجبت اقتراحاتها من الثلاثة أحداً

١٩٣٨ مؤتمر المائدة المستديرة: دعى اليه وفود عن عرب فلسطين، ودول عربية مجاورة، ومندوبون عن الوكالة اليهودية. فما امكن الجمع بين اليهود والعرب حول مائدة واحدة، فصار المؤتمر الى مؤتمرين. وانتهى بمقترحات تقدمت بها الحكومة البريطانية، ورفضها الفريقان

١٩٣٩ الكتاب الابيض : اصدرته الحكومة في ١٧ ايار ١٩٣٩، وضمنته مقترحاتها الرامية الى احداث « دولة فلسطينية » تتعين صلتها بجريطانيا العظمى عن طريق معاهدة. وهو الكتاب الذي تلقاه الصهيونيون بمرارة لا هوادة فيها، ووقف العرب تجاهه موقف التحفظ، ريثما يظهر مصيره، أالى إعمال وتحقيق ام ليلقى به جانباً، كما كان يصنع بما سبقه من توصيات انطوت على شيء من الخير

الوكالة اليهودية

قد يعجب الناظر الى ترتيب هذه اللجان والهيئات الزمني لطول الامد بين فتنة يافا وفتنة المبكى. وانما العبرة بماهية فتنة المبكى، وبخطورتها، اذ انها لم تكن بنت الساعة، بل تقدمها ما يتقدم العاصفة من سكون. ولئن نسب سكوت العرب الى شيء من التحسن في معاملتهم في بعض النواحي الادارية، فان نفوسهم ما برحت يتزايد قلقها لمشاهدة الحكم الذاتي يحدث في امارة شرق الاردن، ويزداد تمكناً وتوسعاً في العراق، وفي مصر، من دون ان تلوح له اقل بادرة في فلسطين. ومن الجهة الثانية، جاءتهم سنة ١٩٢٩ بالوكالة اليهودية، وكانت المادة الرابعة من صك الانتداب قد نظرت الى « هيئة يهودية » عالمية معها يكون التعاطي في تنشئة الوطن القومي اليهودي. ولزمن طال سنوات، كان الصهيونيون الاشد صخباً لوحدهم في الميدان، وكان الناس

يميزون بين الصهيوني واليهودي. ففي شهر آب ١٩٢٩ اسفر المؤتمر الصهيوني عن قرار قضى ببقاء المنظمة الصهيونية، اسماً وتشكيلاً، على ان تستقر السلطة المنشودة في هيئة جديدة، تعرف بالوكالة اليهودية، المنوه عنها بالانتداب الفلسطيني، ويكون نصف اعضائها من المنتمين الى المنظمة الصهيونية والنصف الآخر من « غير الصهيونيين » . وعن هذه الهيئة الجديدة قال كتاب هايمسون « فلسطين سياسة » (ص ١٢٠) : « لا قدمت ولا اخرت؛ فما كانت الا ستاراً » . ولكن اللجنة الملكية ذكرت في تقريرها (ص ٦٤) ان العرب ادركوا اهمية تألب اليهودية العالمية، واشتداد ساعد الصهيونية بما جرى في اميركا من التقاء يهودها مع الصهيونيين في صعيد واحد، ورأوا في ذلك الحدث « تجدداً لثقة سكان الوطن القومي اليهودي في انفسهم، بل تحفز اقلهم ضبطاً لنفسه لاتيان العدوان »

وكان روح التحفز قد بدأ منذ « التاسوع » الماضي (اليوم التاسع من شهر آب اليهودي) وهو يوم صيام لذكرى سقوط اورشليم (ووافق ٢٨ ايلول ١٩٢٨) . وكانت لليهود عادة في تاسوعهم هذا ان يقيموا صلاة على رصيف، تجاه جزء من الحائط الغربي للحرم الشريف. وهو المكان المعروف بالمبكى. وفي هذه المرة، خرجوا على ما مارسوه قروناً متوالية، فجاءوا بمقاعد وبكراسي، جعلوها على الرصيف، وبحجاب نقّال اقاموه بين الرجال والنساء. وبالطبع تدخلت السلطة البريطانية، فازال شرطي ذلك الحجاب، والصلاة بعد قائمة، لانه كان خروجاً على « القديم » المعهود. وكان للحادث بشقيه صدى شديد من اصداء الاحتجاج في كلا الجانبين اليهودي والاسلامي

واستعد اليهود لهذا التاسوع، الموافق ليوم ١٥ آب ١٩٢٩ . فلايام قبله واصلوا التعرض للقرويين العرب، يقذفونهم بالقشور والخضر، دون ابواب المدينة. وعشية يوم الصيام اتخذ عدوانهم شكل مظاهرة، مؤلفة من ألوف شبانهم وشاباتهم، احتشدوا من تل ابيب وغيرها، ومشوا في شوارع القدس بنظام مدبر، وفوق الرؤوس علمهم ملفوفاً بالسواد، حتى اذ بلغوا « المبكى » نشروا العلم، وانشدوا النشيد الوطني اليهودي، بحماس عظيم. وعلت اصواتهم بالهتاف : « الحائط حائطنا؛ الويل لمن يدنس اماكننا المقدسة؛ لتسقط الحكومة » *

وكان يوم ١٦ آب ١٩٢٩، يوم جمعة، وعشية المولد النبوي، وقد خالج نفوس المسلمين الخوف ان لا تستطيع الحكومة وقوفاً في وجه هذا الاختراق المتعمد لحرمة « البراق » (وهذا هو الاسم الاسلامي الديني لهذا الجزء من حائط حرمهم الشريف) فألفوا مظاهرة مضادة. وتفرقت المظاهرتان، بعد ما بدد كل اثر لذلك العدوان

* تقرير لجنة شو — ص ٥٦

Digitized by Birzeit University Library

وكاد الحادث يقف عند ذلك الحد ولكنه تجدد عنفه بسبب طفيف؛ اذ كان فريق من الاحداث اليهود يلعبون الكرة بضاحية، ويتكرر عبثهم بالخضر في بستان قريب . فانتهرهم صاحب البستان، فضربوه؛ وجرح في المهاوشة فتى يهودي. ومات الجريح بعد بضعة ايام؛ فاتخذ اليهود من جنازته فرصة لمظاهرة سياسية دبروهـا . وتداخل البوليس، ودخل العرب، فحصل الاشتباك، وشبت للفتنة نار عم دخانهـا البلاد؛ فوقعت من الجانبين حوادث مؤسفة. واقتضت الحالة مدداً للبوليس، استقدم من الجيش البريطاني بمصر

لكل فتنة لجنة

وما خمدت الفتنة، الا لتؤلف لجنة. وكانت هذه المرة برلمانية، ووزير المستعمرات يومذاك اللورد بسفيلد. وجعلت مهمتها « البحث في الاسباب المباشرة لهذا الانفجار الجديد، والايصاء بما يلزم لمنع تكرره ». وكان المظنون انها تكون بريئة من شوائب الغرض والحزبية، ولو انه روعي في تشكيلها تمثيل الاحزاب الثلاثة في البرلمان البريطاني. وكادت تسلم من كل ريبة لولا ما ابداه اللورد سِنَل من تحفظات وقعها بمفرده، وشفت عن ميوله اليهودية؛ ومـا عجب لذلك العارفون بما سبق تعيينه عضواً في هذه اللجنة من انتدابه لمهمة صهيونية

عينت هذه اللجنة في ١٨ ايلول ١٩٢٩، ووصلت فلسطين في الشهر التالي، وباشرت عملها في غرفة صغيرة فاشبهت محكمة جزائية، لولا انها خلت من « القفص». اما الاعضاء الاربعة — والرئيس منهم السير وُلتر شو، قاضي قضاة سابق في احدى المستعمرات — فكان مجلسهم على منصة مرفوعة. والى الجانبين اصطف اثنا عشر من رجال القانون، بالنيابة عن حكومة فلسطين واللجنة العربيـة، والوكالة اليهودية . وتتمة المشهد الشهود، وكنت منهم؛ وللشاهد كرسي وراء منضدة

وصدر تقرير اللجنة في آذار ١٩٣٠؛ وقد عالج القضية في شقيها، الماضي والمستقبل . فقال في تعيين الاسباب قولا قل اختلافه عما قالته اللجنتان السابقتان اللتان حققنا في فتنتي ١٩٢٠ و١٩٢١، اذ جعل العلة الاساسية تخوف العرب عواقب الهجرة اليهودية، وتسرب الاراضي الى الايدي اليهودية، وخشيتهم ان يحرموا مرافقهم ومعايشهم، وأن يؤول ذلك كله الى السيطرة اليهودية التي قال بها الدكتور ايدر. وصرح التقرير « ان الهجوم العربي لم يكن نتيجة تحريض، ولا كان مسبوقاً بتدبير، ثم انه لم يكن موجها ضد الادارة البريطانية »

وفيما يلي خلاصة التوصيات :

١ — ان تصدر الحكومة البريطانية بياناً جلياً عن سياستها يوضح حقيقة ما تريده من معنى

العبارة الواردة في انتدابها عن صيانة ما للمجتمعات غير اليهودية من حقوق، ويتضمن تعليمات اكثر جلاء عن خطتها في مثل المهاجرة وملكية الاراضي من الشؤون الحيوية

٢ — ان يعاد النظر في أمر الهجرة اليهودية، سعياً الى ضبطها، وتمثيل المصالح غير اليهودية في تنظيمها

٣ — ان يقام ببحث علمي في أمر الاراضي، وامكانيات استقرار المهاجرين في ما هو بعد للعرب منها؛ وان يوقف اخراج الفلاحين العرب من الاراضي ريثما يتم ذلك البحث

٤ — ان تعود الحكومة فتؤكد ما جاء في البيان الصادر في سنة ١٩٢٢ من ان ما للمنظمة الصهيونية من مركز خاص لا يخولها الاشتراك في حكم فلسطين

٥ — ان تؤلف لجنة خاصة لتعيين ما لكل من الفريقين من حقوق في « المبكى » (الهراق)

مصير التقرير

صدر هذا التقرير موصياً بما انبغى للحكومة ان تعلنه من سياسة، وتتبعه من خطة، وتتخذه من اجراءآت، ولبث العرب ينتظرون ما عسى ان يكون من اثر فعلي لما تخلل هذه التوصيات من اعتراف بأحقية مطالبهم . فما كانت النتيجة الا ما ألفوه، من قبل، من الاكتفاء بتعيين لجان واجراء مباحث

اما اليهود، فقاموا ينتقدون ويفندون، ويزعمون ان اللجنة تعرضت لمسائل متصلة بالسياسة العليا، خلافاً لصلاحيتها المحدودة، وانها عالجت تلك المسائل بصورة مجحفة بالقضية الصهيونية. وقدموا مذكرتهم المفندة للتقرير الى لجنة الانتدابات في جامعة الامم، فما انقضى شهر الا وهذه اللجنة قد عقدت جلسة فوق العـادة، اسفرت عن التنديد بالتقرير، وعن استنكار الكيفية المتبعة من قبل الدولة المنتدبة في القيام بما التزمته من احداث الوطن القومي للشعب اليهودي

وهال الحكومة ما هب على تقرير هذه اللجنة البرلمانية من عواصف الانتقاد، فاقتصرت عنايتها بالثانوي من توصيه. فاعادت تنظيم قوة البوليس، واستبقت في البلاد عدداً اوفى من الجنود البريطان . ولأن التقرير عين قضية المبكى سبباً مباشراً للاضطراب، بادرت لجنة الانتدابات الى تأليف لجنة دولية للنظر في هذه القضية . اما سائر القضايا الحيوية، فكان نصيبها التسويف والتأجيل

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٢٧

الحق المصطنع

بيت المقدس – الحرم الشريف – البراق، المبكى – الحق المصطنع

بيت المقدس

« اورشليم الجديدة » مدينة سماوية من الذهب والحجارة الكريمة. ذلك وصف شعري. على ان بيت المقدس [1] اليوم مدينتان : الجديدة الناشئة خارج السور، ذات المباني الحديثة الطراز، كاحدى حواضر اوربة الشرقية، وذات الاحياء المكتظة البشعة مما يعهد بجوار اية قاعدة عظيمة؛ والمدينة القديمة ذاتها، بشوارعها الضيقة اللولبية، وطرقها المدرجة، وبحوانيتها الشرقية، زاهية الالوان، بما حوته من سلع، او فواكه، وبمن يمر بها من الزوار، وذوي الحاجات

الحرم الشريف

وقد قل في المدينة القديمة ما لم يبن عليه من ارضها، الا ساحة عظيمة في شرقيها تواجه جبل الزيتون. فهذه الساحة الرحبة هي الحرم الشريف. وقد شرفت بمسجد « قبة الصخرة » احد المباني الفريدة الجمال في العالم؛ قائماً على موقع هيكل سليمان، العظيم في زمانه. وشرفت ايضاً بالمسجد الاقصى، حيث قامت، من قبل كنيسة شهيرة. والشرقي والجنوبي من جدران هذه الساحة، هما من سور المدينة القديمة. والاخران يفصلانها عن الدور والمنازل. والغربي منهما مبني بحجارة ضخمة، يقال انها من ايام الملك سليمان. وجزء من هذا الجدار الغربي يعرف بحائط

(١) سمى العرب دار اولى القبلتين وثالث الحرمين بيت المقدس، ثم القدس الشريف، في العهد التركي، بخلاف الفرنج فما عرفوها بغير اسمها العبري : اورشليم : وقد مر تفسيره بدار السلام

البكاء؛ وشهرته « المبكى »، اي « مبكى اليهود »، واسمه عندهم « كوتل ». وهو نفسه الجزء المعروف بالبراق الشريف

البراق – المبكى

على هذا الجزء، من الجدار الغربي للحرم الشريف، وقع النزاع الذي ادى الى فتنة، فالى لجنة، حققت فوجدت :

« ان الجدار الغربي هو جزء من الحرم الشريف، الذي هو مكان اسلامي عظيم الحرمة، يلي مسجدي مكة والمدينة، في الشرف والتقديس. فهو ملك المسلمين. والرصيف المباط، المحاذي له، حيث يقف اليهود، للعبادة (تجاه الجدار) وقف اسلامي. وداخل الحرم مسجد قبة الصخرة – ويقال له مسجد عمر – والمسجد الاقصى. وفي الاول الصخرة التي يقال ان النبي صعد عنها الى السماء. وقد بولغ في الانفاق على هذا المسجد حتى اصبح من اجمل المباني في العالم. وجميع هذه المباني ما زالت في ملكية المسلمين طيلة القرون الثلاثة عشر الماضية، وتعد من أكرم ممتلكات العالم الاسلامي واعزها. ولذلك الجزء من الجدار الذي بازائه اعتاد اليهود ان يقفوا للبكاء والصلاة، حرمة خاصة عند المسلمين، بسبب مخدع، هو ثغرة فيه، كانت، على المأثور عندهم، مربطاً لمطية النبي، عندما عرج الى السماء من عن الصخرة. واذ كان البراق اسماً للمطية، فذلك الجزء من الجدار يعرف بالبراق عند المسلمين »

هذا ما وجدته لجنة شو اساساً لدعوى المسلمين الحقة

أما دعوى اليهود، فقد أقيمت على حجتين : دينية وسياسية. وعن الاولى قالت اللجنة : « هذا الجدار من الهيكل القديم. ولانه آخر بقية لذلك المكان المقدس، فهو عظيم الكرامة عند اليهود المتدينين الجارين على عادة بالصلاة عنده، يرجع العهد بها، بالاقل، الى القرون الوسطى ». ولا بأس بإيراد عبارة تلك الصلاة، أخذاً عن الحاخام جوزيف كارو : « من اجل المكان المهجور، نجلس بوحشة وننوح؛ من اجل الهيكل المهدوم، نجلس بوحشة وننوح؛ من اجل الحيطان المنقوضة، نجلس بوحشة وننوح ». فلا بدع ان يعد « المبكى » عند اليهود المتمسكين بمثابة معبد، تهتز له المشاعر بالعاطفة الدينية؛ فان حجارته القديمة ليست آخر بقية من الهيكل فحسب، بل ان جلالها يكمن « البهاء [1] » الذي كان لذلك الهيكل، وهجره

ومن الحجتين، انما يهمنا الحجة السياسية، وكيف اصطنعت ذريعة للقول بصلة تاريخية،

(١) استعملت المؤلفة هنا كلمة « ساشينا » العبرية الواردة في العدد ٣٤ من الفصل ٤٠ من سفر الخروج وأرادت به المجد الالاهي. وهذه الآية بالطبعة البريطانية : وبهاء الرب ملأ المسكن؛ ومراد المؤلفة ان ذلك البهاء فارق هيكل اليهود وهجره منذ جاء المسيح عليه الصلاة والسلام، ولم يومنوا له

Digitized by Birzeit University Library

جعلت حجر الزاوية في بناء الوطن القومي. ولا خفاء، ان العرب المسلمين، طيلة عصور حكمهم، كانوا يحترمون تعبد اليهود لدى الجدار، في تاسوعهم (التاسع من شهر آب في السنة اليهودية) وفي كل يوم آخر. ولم يكن الداعي الى الفتنة الا ما اراد اليهود احداثه مما لم يسبق به عهد من اقامة حجاب، ووضع مقاعد، في مكان ليس بملك لهم، ليحدثوا لانفسهم فيه سبباً جديداً لحق يتمسكون به فيما بعد. وحسبنا في ذلك النظر الى قولين الكاتبين من كتابهم

« لقد بات المبكى في نظر اليهود رمزاً لقوميتهم. وانما تشبثوا بما اعتقدوه حقاً من حقوقهم، لا لدواعي التقوى فحسب، بل لانهم تصوروا انفسهم يدافعون عن صلة ظاهرة بماضيهم التاريخي »*. فهذا صدى عما بتصريح بلفور وبصك الانتداب من هذه النغمة واشد منه القول الاخر: « تلك الحجارة القديمة القلائل ليست بذات معنى مطلق للصهيوني العملي . . . ولكنها رمز حقوق اليهود في ارض آبائهم »**

الحق المصطنع

بهذين القولين صراحة مفادها ان اليهود يتصورون لهم حقاً، ويتمسكون برمز الى حق. وهما قولان يعذر صاحباهما، لصدورهما بعد ان صمحت حكومة فلسطين بتسمية البلاد « ارض اسرائيل » في عنوان الجريدة الرسمية، وفي الجواز، وفي طوابع البريد، ولو بالحرفين الاولين من كلمتين عبريتين تفيد ان هذه التسمية. ولولا صك الانتداب الذي قضى باستعمال العبرية لغة رسمية، لما كانت هذه التسمية. والنكتة الغريبة هي ان صك الانتداب نفسه انما بني على ما سمي « صلة تاريخية ». ومن قبله، في ذلك، تصريح بلفور. جاء في الوثيقتين ذكر « وطن قومي في فلسطين ». وفهم اليهود « وطناً » سموه « ارض اسرائيل » هو فلسطين كلها؛ كذلك، تغليباً للجزء على الكل. وها هي الحقيقة، نطق بها تقرير لجنة تحقيق، ان الجدار ليس ملك اليهود. ولكن الناطقين باسم هذا الشعب يجعلون الحق ما يشاء لهم تصورهم ان يزعموه، حتى انهم ادعوا البلاد كلها لان آباءهم كانوا فيها، في زمن قديم عهد وغبر، ولو لم يبق لهم فيها الا الوقوف على رصيف، واللطم على حجر، بفضل تسامح وتساهل من المالكين الشرعيين طوال القرون. سموا ذلك رمزاً الى الماضي المنصرم، وعدوه « صلة تاريخية »، ولوحوا به رمزاً الى وطن مستقبل، يكون وطنهم هم لوحدهم من دون غيرهم. ومن ذا يحد من تصور المتصورين، ولو كان سخرية وهزؤاً، في محاله وبطلانه، كأن يدعي الانكليز حقاً في مدينة كالي، او العرب ملكاً في الاندلس

---

* كتاب ل . ستين (Zionism) ص ١٦٤

** كتاب زيف (The Rape of Palestine) ص ١٢٢

فلاجل جعل الرمز الى الشيء الشيء بعينه، احدث اليهود عدواناً على ما ليس لهم، فأحدثوا فتنة، انقلبت عليهم، وباءوا بالخسران. فان اللجنة الدولية، المؤلفة من اسوجي، وسويسري، وهولندي ايدت تقرير اللجنة البلمانية، وثبتت القديم الراهن على قدمه. فما بقي من حق اليهود الا انه رمز الى حق كان، وزال، وحق يريدونه ان يكون، وما هو بعد بكائن. ان هو الا الاصطناع والاختلاق، ما انزل به للحق من سلطان

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٢٨

المؤامرة المفضوحة

الفضيحة – مشكلة الاراضي – عرب بلا ارض – بيع الاراضي –
ليس الخبر كالعيان

الفضيحة

اخذ على تقرير اللجنة البرلمانية ان اصحابه تجاوزوا صلاحيتهم، فكشفوا الغطاء عن اسباب متصلة بالسياسة العليا، سياسة الانتداب الفلسطيني. ووجه الانتقاد ان عهدتها انما اقتضت البحث عن « السبب المباشر » للفتنة. والرد هو ان العهدة اقتضت التوصية بما يحول دون تكرر الفتن؛ وهذا اطلاق لا يقبل التقييد. وعند التدقيق يرى ان اللجنة انما اومأت ايماء الى شر الهجرة اليهودية، وشر انتقال الاراضي من الايدي العربية، فاوصت بضرورة التحقيق في هذين السببين من اسباب الاضطراب الفكري والنفسي المتأصل في الاكثرية العربية، فضلاً عن السبب المباشر الذي تقدم تفصيله، وكان العدوان اليهودي على مكان مقدس. وما كان الا عدواناً حادثاً عارضاً، كفته قومة لرده، بخلاف كل من هذين الشرين المتمادين خطراً تدريجياً خطيراً، ولا بد في معالجتهما من تدابير تزعزع الانتداب الفلسطيني من اساسه

وقد قيل ان عشية الثالث من آذار ١٩٣٠ (وكان يوم الاثنين) كانت عصيبة، لدنو الموعد المضروب لنشر التقرير. « وكان رئيس الوزارة، رمزي مكدنلد، قد اجتمع، يوم الجمعة، بوزير المستعمرات، اورمسبي غور، وحضر الاجتماع من اقطاب السياسة اللوردان ردنغ وملنشت، والدكتور ويزمن، وفيلكس وربورغ، المليوني، رئيس اللجنة الادارية في الوكالة اليهودية في اميركا »* وقد اقلقهم ان التقرير اشار الى العلة الاساسية المستقرة في الانتداب نفسه، سبباً

* كتاب جفريس، ص ٦١٧

حقيقياً معقولا لمخاوف العرب. وما اعيى مؤتمرين، هذه اغلبيتهم الصهيونية ان يلتمسوا من المأزق مخرجاً، فارتأوا ان يوفدوا فردا على رأس اعوان له، للاتيان بمعلومات عن امكانيات البلاد في بابي الهجرة والاراضي. ووقع الاختيار على السير جون هوب سمبسون، الشهير بخبرته والمجرد من كل ميل وهوى. وبذلك كان التفادي من التعرض لصك الانتداب نفسه، ليبقى غير مزعزع ولو الى حين

مشكلة الاراضي

لا بد لوطن قومي من ارض يقوم عليها. اما الوطن القومي للشعب اليهودي، فلا بد له من ارض تحرز، ولو شراء؛ وهذه غرابة في الاوطان. وأين يغدو أهل الارض، اذا اشتراها الغريب لتكون وطناً له هو ؟ ومتى كانت الاوطان سلعاً تباع وتشرى؟

وقد صدق السير جون شهرته حيث بين ما مآله: « ان صح ان العرب استفادوا من قدماء المستعمرة اليهود الذين عاملوهم وآجروهم، فإن المستعمرات الصهيونية الجديدة انما هي انشاآت سياسية آخذة في خلق « عرب بلا أرض». وما ينكر ان الهيئات الصهيونية الآخذة في احراز الارض قد أتت البلاد بمال كثير، فدفعت للمزارعين تعويضاً نقدياً، وربما بذل بعضها فوق ما لزمه قانوناً. ولكن النقد رحال، سريع الاضمحلال؛ وانما حاجة الفلاح، اذا رفعت يده عن أرض، الى ارض غيرها، بقدرها، بل أكثر». * وقد جاء على الصفحة ٥٤ من تقريره : « ونتيجة شراء شركة راس المال القومي اليهودي (كرن كيمت) الارض في فلسطين، هي ان الارض المشتراة تصبح خارجة عن قطريتها الفلسطينية؛ فانها تصبح ارضاً ليس للعربي ان يفوز منها بادنى منفعة في الحال ولا في الاستقبال؛ فلا هو يأمل ان يستأجرها ولا ان يزرعها، بل هو محروم حرماناً ابدياً من الاستخدام للعمل فيها.. وذلك لانها مصبحة « ارضاميتة » ممتنعاً انتقال حق الملكية فيها. وهذا هو السبب في قلة اركان العرب الى دعوى الصداقة وحسن النية من ناحية الصهيونيين». وعلى الصفحة ١٤٢ يقول: «فقد نتج بصورة قطعية ان لا مجال الان، واساليب الزراعة العربية الحالية حيث هي، لاستيعاب مهاجرين جدد، سوى ما بيد الشركات اليهودية من اراض تملكتها وما زالت غير عامرة... ولليهودي النازل بارض اعدت له، مايعينه من راس مال، وعلم، وتنظيم، بخلاف العربي، فانه مفتقر الى مثل هذه المعونات، توسلاً لتحسين زراعته ومستوى معيشته. ثم ان عرب فلسطين يزدادون بسرعة عظيمة، ومذ الآن قد نقصت الاراضي اللازمة لمعاشهم مليون دونم انتقلت الى اليهود »

* كتاب جوفرس، ص ٦٢١

Digitized by Birzeit University Library

ومما اسفر عنه تقرير هذا الخبير ان كيفية تملك اليهود للارض بفلسطين آلت الى خلق طبقة « العرب بلا ارض». ومن المغالطة ان يقصر مفاد هذه التسمية على من فقد ملكية ارضه ببيعها للغير. فان المراد الاعم هو عدم تيسر ارض للعرب للارتزاق من العمل فيها، باطمئنان وبصورة الامان. ولا بد من ايضاح خاص لهذه الحالة الغريبة الجديدة. فقد كثر التقول ان عرباً اخرجوا من اراض كانوا هم فلاحيها فما تقدموا لتسجيل اسمائهم في جدول هذه الطبقة، بل ان بعضهم يسرت لهم ارض ليتعاطوا الفلاحة فيها، فاعرضوا، وان احياء المدن قد استوعبت جميع من اجلوا عن الاراضي الزراعية. وقد وجدت بالاستعلام والاستقراء ان من اصبحوا «عرباً بلا ارض» ضعيفو ايمانهم في حكومة بينة مجاملاتها للصهيونيين. فان تقدموا للتسجيل عوملوا معاملة المتهم بجريمة اعناتا وارهاقاً بمقتضياته وان عرضت عليهم ارض، فخوفهم ان لا يطول المدى حتى يحين انتقالها الى اليهود. ومن اراد ان يتعاطى الفلاحة، من زرع وغرس، فلا بد له من الاطمئنان الى ديمومة ذلك التعاطي

بيع الاراضي

كثيراً ما يؤخذ على عرب فلسطين انهم يبيعون اراضيهم لليهود بمحض اختيارهم حتى كأنهم هم اكبر المحبذين لقيام الوطن القومي اليهودي. فبعد ما تقدم من ايضاح المقصود بالعرب بلاارض يحسن بنا ان نفهم شيئاً عن حال الاراضي بفلسطين. فندرك ما وراء المطالبة بدفع هذا الخطر من امور ادت الى هذا الوبال. واول ما تجب معرفته هو ان الأتراك، بعدما تمادى تأخرهم وسوء حكمهم، احدثوا قانوناً للاراضي ملك الحكومة رقبة الاراضي الزراعية واقتضى التسجيل، وفرض له رسوماً، وفرض ضرائب جديدة علاوة على ضريبة العشر التي كانت بمثابة زكاة تستوفى عيناً. وسمي هذا النوع « الارض الاميرية » (كذا بالعربية [1]) وقيد انتقالها بالارث، ومنع الايصاء بها، ومنع غرس الشجر فيها، والبناء بالحجر عليها. وكره كثيرون ان يرضوا بتسجيل اراضيهم على اسمائهم، اذ اعتبروا التسجيل مقدمة للرديف (اي الاكتتاب الروماني القديم) والخدمة العسكرية الاجبارية في الجيش التركي. وكان اهالي هذه الاقطار العربية قد بدأوا يتنكرون للاتراك، ويتحينون الفرصة للتحرر من نيرهم. ونص هذا القانون عن ضرورة التسجيل لتصح الملكية. ولما انقضت سنوات، وتراكمت الرسوم والضرائب الجديدة، بيعت

(١) وعند التدقيق للميرية من لفظ « مير » الروسي. فما هو من الأمير، ولا من الميرة. وللتشابه اللفظي والمعنوي عرفت الارض الميرية بارض الحكومة

لاستيفائها القرى والضياع بالمزاد، وكان اهم المشترين السلطان نفسه وبعض الاغنياء المقيمين في لبنان وسورية. وما قدمت هذه البيوع ولا أخرت، اذ بقي الفلاحون بالاراضي يزرعونها، ويدفعون للمشترين المالكين المسجلين شيئاً في المئة من الغلة، كالزكاة القديمة. ولم يكن للمالكين غنى عن مواطنيهم المزارعين. وانما نشأ الشر، واستفحل الخطر، لما قسمت الاقطار العربية بين الانتدابين الفرنسي والانكليزي، ففصلت فلسطين، وخصت بادارة مسؤولة عن احداث وطن قومي فيها للشعب اليهودي. عند ذلك كره المالكون المسجلون اللبنانيون والسوريون ان اصبحوا غرباء عن ممتلكاتهم، وغرهم الصهيونيون باثمان عرضوها، فتتالت الصفقات الكبيرة، واذا ببرج ابن عامر، وقد تقدم الكلام على خصبه، وكثرة قراه، وبوادي الحوارث وما جاورها، قد انتقلت ملكيتها الى شركات يهودية؛ فليخرج مزارعوها العرب، ليحل محلهم المهاجرون اليهود. فالبائعون افراد قلائل، هذه كيفية تملكهم، والمبيع قرى وضياع، ضاع اهاليها، بحكم قانون طرأ طروءاً، وحكم انتداب فرض فرضاً، ليشيء في وطنهم وطناً لغيرهم

وقسم آخر بيع، وكان بائعوه من سكان فلسطين؛ وما غرهم الثمن، الا قليلاً وحجة بعضهم الاكثر الى حكومة فلسطين نفسها هي التي دفعتهم الى الاذعان لشيطان النقد المعروض. وقولهم حق اذ يقولون ان الحكومة التركية كانت حكومة عدو، ولا سيما طيلة سنوات الحرب. فمن لم يقتل في محاربتها الى جانب الحلفاء، قتل وهو يحارب مجبراً في جيشها، او قتله الجوع. وكان اولئك المقاتلون في معظمهم هم المزارعين. ومن كان منهم فلاحاً ملاكاً، وسلم، لم تسلم حيواناته الزراعية. وتتمة الشكوى ان حكومة فلسطين، بقصد قضى به الانتداب الفلسطيني اصرت على المطالبة بتسديد القروض المستحقة للبنك الزراعي العثماني، ولم تنشيء بنكاً عقاريا يسلف الفلاح ويمده بقروض لآجال معقولة بفوائد محمولة. ومن ثمة بات الملاك شبه مرغم على التخلص من ضنك خلفته الحرب. فلما عرض عليه ثمن غرار، باع بيع اختيار، اوجبه الاضطرار

ابس الخبر كالعيان

كنت قد عرفت قرية معلول العربية الاسلامية المسيحية قبل الاحتلال البريطاني بعديد السنوات، اذ كنت أتفقد المدرسة التبشيرية فيها، وقد تقدم ذكرها في موضعه من ذكريات الخمسين عاماً. واذ ذاك كانت اراضي هذه القرية الجليلية قد نقلت الى اسم مشتريها اللبناني العثماني من السراسقة المقيمين في بيروت، أما أهاليها فظلوا هم مزارعيها، ومساحة السهلي المفتلح منها عشرون ألف دونم. وبين ليلة وضحاها من سنة ١٩٢١ نقل القيد في سجل الاراضي الى اسم شركة يهودية، ورفعت أيدي أهالي معلول عن تلك السهول، الا ثلاثة آلاف دونم أبقيت

Digitized by Birzeit University Library

لهم بصورة موقتة. فما حال من حرم ستة أسباع من أسباب معيشته ؟

وبعد الاحتلال، مصدر الوبال لأهالي تلك السهول والجبال من البلاد المقدسة، شهدت العفولة، أم قرى مرج ابن عامر الخصيب، وقد هدمت دورها، وبعثرت انقاضها، وشتت عربها، فما بعد عينها من أثر، الا أزيل او اندثر. وكنت لما حل بها شاهد عيان، ولقارئي الخبر. كنت في طبرية للاستشفاء بمياهها المعدنية؛ فشهدت جمهوراً من العرب يساقون مخفورين للتوقيف. وما ذنبهم ؟ حدثني بأمرهم صديق ضابط من ضباط البوليس، وقد جمعتنا مائدة العشاء في الفندق. قال : خرج الرجال باكراً بمحاريثهم، وبين ايديهم ثيرانهم، للحرث والزرع، وقد انصرفت النساء الى كنس، وترتيب، وعجن، وطبخ، شأن القرويين وزوجاتهم، كما تمهدين. وبينا الفدادين تحرث، اقبل يهود يحلون الثيران المقرونة، وينهون الحراثين عن كل عمل بالارض، اليهودية بحق شرائها من مالكها المسجل. وتبودلت صيحات وضربات، وجاءت نجدات، ونشب عراك قتل فيه عربي برصاصة يهودية. وحضرت قوة بوليسية. فمن ترين، هذا هو أمرهم

وباسم القانون سلمت اراضي العفولة الى من نقل قيدها الى اسمه، واجلي عنها أهاليها. وذلك بادت العفولة، وعفت آثارها، بل عفيت تدميراً. وحيث عهد عرب آمنون، ساد الخراب والسكون؛ وقد وقف نفر بوليس بريطاني يحرس الانقاض، ربما تزال، وتقوم المستعمرة اليهودية الجديدة. وبعد امد علمت من الموظف المسؤول عن تلك البقعة النادرة الخصب ان عدد من اخرجوا من ديارهم واراضيهم، بسبب بيع مالك الارض المسجل الى اليهود، تراوح بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ وما هذا بقليل

وانما خصصت العفولة بهذا الذكر الأليم، لوقوعها على طريق القوافل، في قلب سهل ازدرلون، الشهير قديماً وحديثاً (وقد تكرر ذكره في الفصول السابقة) وعلى طريق المسافر من حيفا الى القدس مروراً بنابلس (شكيم التوراة). وعن هذا السهل ردت جيوش نابوليون الذي رام ملكاً يمتد الى الفرات. وعنه اندحرت الجيوش التركية الالمانية. وبالعفولة ذاتها قام في الزمان حصن من حصون الصليبيين. وأم قرى المرج الخصيب، هذه، طالما أراد الصهيونيون قاعدة لما جاءوا به من حضارة وتجارة وعمران تحت لواء الوطن القومي. وما ضاهى شدة مصاب العرب بضياعها، الا شدة فرح اليهود بالفوز بها

وطريق المسافر من حيفا الى يافا، في الجنوب، تخترق سهل شارون، ومنه براري فلسطين (المزمور ٨/٦٠) والمزمور ٩/١٠٨ . وهذا هو القسم الاهم من ساحل فلسطين الزراعي ومما اشتراه اليهود بعد احتلالنا، الذي خيب آمال حلفائنا العرب فينا، اراض شاسعة تعرف بوادي الحوارث،[1]

(١) فصلت المؤلفة زيارتها لعرب وادي الحوارث وقد اقتضى السياق في التعريب ايجاز اوجب هذا التنبيه

عربها بدو يسكنون الخيام، ولكنهم اهل حرث وزرع، واهل ضرع، خلفاً عن سلف، وعدتهم الوف، والاف مواشيهم، من الركائب، وبقر الزراعة، وقطعان الغنم والماعز. وما ذنبهم الا ما سلف تبيانه من مساوىء الحكم التركي، اذ آلت اراضيهم الى التسجيل باسماء اغنياء يقيمون ما وراء الحدود التي عينت لفلسطين، ثم الى النقل في السجل الى اسم المشتري الصهيوني، وهذا في عهد احتلالنا؛ وفيه ايضاً وقعت الكارثة، فنقلوا، بقوة بنادق البوليس، من بجبوحة اربعين الف دونم الى خمسة الاف منها؛ وما حال من يحرم سبعة اثمان من اسباب رزقه ومعاشه ؟

زرت عرب وادي الحوارث، على أثر اجلائهم الجبري، بصحبة محاميهم محمد علي بك التميمي، وجارهم السيد عبدالله سمارة، وشهدت بعيني مشاهد فواجع، تحز في النفس ألماً مراً، حاولت تخفيفه بتدوينه في رسالة طويلة مني الى اختي (تاريخها ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٠) وهي من تشاطرني حبي لفلسطين واهلها، وما انا بكاتبة نقلاً عن الذاكرة، بل عن تلك الرسالة اذ اورد هنا ارقاماً ناطقة ببلاغة تلك الكارثة

بعد محاكمة طال امرها، غلب التسجيل كل قول يقال، وصدر الحكم بتسليم الاراضي للصهيونيين، ونفذ الحكم جبرا وقهراً. وقفت بنا السيارة امام خيمة؛ وتقاطر اهل الخيام، فاذا هم جم غفير يعلوهم الوجوم. واقبل الشيخ، ومن خلفه مئة عام، وقد سبق الدمع لسانه « مشيئة الحكومة، حكومة الانكليز ». واستأذنت فدخلت على النساء، وقد لزمن الصمت، فما فهن بشكوى. وبعد صبر البدو على الشدائد ما من صبر. اتلفت في معمعة التخلية مواعينهم وسائر منقولاتهم وحتى مؤنهم من زيت وسمن وجبن ورز؛ وقطعت شقق المضارب واطنابها، فبات اهل ١١٨ خيمة بلا مأوى. ومن المحاريث ٢٦٠ محراثا حطمت تحطيما، واضرم اليهود فيها النار. وكانت لمواشيهم كهوف، فوقعت في الاراضي المسلمة، وتركت المواشي للعراء، وما قلت عن ٨٠٠٠ عدداً. وكان ذلك التسليم الجبري بمعونة البوليس البريطاني. وما ذنب شرطي منا أمر فاطاع؟ فالمسؤول من فصل فلسطين عن سائر سورية، لتصبح وطناً قومياً لغير اهلها، وما برىء من ذلك البريطان! بل صدق الشيخ الناطق بالحق ألماً، فما تزيد على كلمته الا كلماً؛ والصمت اولى تسليماً بالحق، ووقوفاً عنده

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٢٩

تفسير الحق بالباطل

الكتاب الاسود – تفسير الحق بالباطل – المشروع الانشائي – لا عرب بلا ارض – ولا ارض لليهود – الجرة في ابريق – واين المشروع

الكتاب الاسود

فضح الانتداب بتقرير لجنة شو البرلمانية . وسترت الفضيحة ريثما يظهر تقرير الخبير الفرد، السيرجون هوب سمبسون . وتسلمته الحكومة في آخر آب ١٩٣٠، وارجأت اصدارة حتى ٢٠ تشرين الاول، عشية الدورة البرلمانية . وقد اعدت كتاباً ابيض اصدر معه ليكون « البيان السياسي » الذي اشارت به اللجنة المذكورة التي حققت عن فتنة المبكى . جاء تقرير الخبير مفصلاً حقائق شكوى العرب في بابي الهجرة وبيع الاراضي . فما امكن حكومة لندن ان تبقى على تجاهل طال امده، فضمنت بيانها من القول ما مآله :

١ : تقييد الهجرة اليهودية بطاقة الاستيعاب

٢ : اشراف الادارة على بيوع الاراضي

٣ : التحري الدقيق عما هنالك من ارض تباح للاستعمار اليهودي من دون اجحاف بحقوق العرب، افراداً، او بمركزهم كافة

٤ : التقدم الدستوري : « وقد استقر رأي الحكومة على ان الوقت قد حان لمعالجة مسألة قسط من الحكم الذاتي، رعاية لمصلحة المجتمع بجملته، من دون ايما تأخير »

وقليلاً ما عاش هذا الكتاب الابيض . ذعرت له الصهيونية، حتى كأنما كان قنبلة ذرية .

فكتب ثلاثة من اقطابنا : المستر بلدوين، والمستر اوستن تشمبرلين، والمستر اموري الى جريدة التيمس، يقولون، معاً، وصوتاً واحداً انهم « شاعرون باشتمال الانتداب على التزام مزدوج » وختموا المقال بنغمة كئيبة : « لاخفاء ان وقع هذا الكتاب الابيض على الرأي العام في المعاشر اليهودية الاميركية سيحدث شعوراً اسمه تضاعف الثقة في الصدق البريطاني، وهو أثمن موجوداتنا في سياستنا الخارجية الامبراطورية » . وكل من اللورد سيمون، واللورد هاليشام، راح يبدي شكه في قانونية هذا الكتاب، زاعماً انه قد يكون مخالفاً للانتداب

فلا غرو، وهذ ما قوبل به هذا الكتاب من المعارضة من قبل مثل هؤلاء من رجالنا، ان قامت الصهيونية تقاومه، فاستقال الدكتور حاييم ويزمن من رياسة المنظمة الصهيونية ومن رياسة الوكالة اليهودية، واستقال اللورد ملتشت، وكان رئيس المجلس ورئيس اللجنة السياسية في تلك الوكالة . وكان فيلكس وربورغ، المليوني اليهودي الاميركي، رئيس اللجنة الادارية، فاستقال . وقضت المجاملة للوطن القومي اليهودي ان يقع التراجع من جهتنا نحن، فكتب رئيس الوزارة، المستر رمزي مكدونلد، كتاباً مسهباً، سود بياض ذلك الكتاب الابيض في عيون العرب، فسموه « الكتاب الاسود » . وكانوا قد اوشكوا يقبلون على التعاون، فعادوا الى يأسهم منا . وعاد دولاب السياسة الصهيونية الى الدوران

تفسير الحق بالباطل

وسمى رئيس الوزارة كتابه الى الزعيم الصهيوني « تفسيراً » للكتاب الابيض . ولكنه تفسير نقض « البيان السياسي » الذي طال انتظاره، وقلبه رأساً على عقب . وبحق وصفه العرب بالاسود . فما جاء فيه :

« ١ : مع ان المادة الثانية من صك الانتداب قضت على المنتدب ان يصون ما لاهالي فلسطين من حقوق مدنية، فان ذلك لم يرد به ان يبقى ما وجد من تلك الحقوق عند بدء الانتداب على حاله من دون ايما تغيير او تبديل

٢ : وقضت المادة السادسة « ان لا يجحف بما لسائر الفئات من السكان من حقوق ومركز » وانما اريد عدم الاضرار، وان لا يجعل الشيء اسوأ . ولكن تسهيل الهجرة الصهيونية، وتنشيط الاستعمار الصهيوني يمكن القيام بهما من دون اجحاف بما للعرب من حقوق ومركز

٣ : اما تقييد احراز الصهيونيين للاراضي، بسبب ما هنالك من عرب بلا ارض، فهذا لا يحد من مدى المشروع الانشائي الذي تنتويه حكومة جلالته وتعتبره افعل الوسائل في سبيل اقامة وطن قومي لليهود . وسيجري التحري عما هنالك من اراض حكومية وغيرها الاستعمار اليهودي بمقتضى المادة السادسة المتقدم ذكرها

Digitized by Birzeit University Library

٤ : وربما يتم ذلك التحري، انما اريد — ولزمن معقول فقط — شيء من الاشراف المركزي على معاملات انتقال الاراضي. وذلك بقصد التنظيم، لا لاجل المنع او الحظر، الا حيث تعتبر المعاملة متعارضة مع المشروع الانشائي المتقدم وصفه

٥ : اما امر المهاجرة فكان من قبل بيد الحكومة. ومن الخطأ ان يقال ان حكومة جلالته قد ارادت الآن ان لا يسمح بهجرة يهودية لئلا يمتنع على عربي ان يجد عملاً. ان غرض الحكومة الوحيد هو تطبيق مبدإ الاستيعاب. وحدود الاستيعاب مسألة اقتصادية صرفاً »

هذه خلاصات من « الكتاب الاسود » اقتطفتها من كتاب المستر جفريس : « فلسطين — وحقيقة ما هنالك »

المشروع الانشائي

في ١٧ تشرين الثاني ١٩٣٠، اعلنت الحكومة البريطانية استعدادها لأن تكفل وتيسر في مدى خمس سنوات قرضاً لفلسطين قدره ٢،٥٠٠،٠٠٠ جنيهاً لاجل زيادة الانتاج العام. ووعدت بمبلغ ٥٠،٠٠٠ جنيها بمثابة نفقات ابتدائية. وفي شهر تموز من السنة التالية عين المستر لويس فرنش مدير الانشاء، وعهد اليه بالامور الآتية :

١ — تيسير ارض للعرب الذين باتوا بلا ارض بسبب البيع على ان لا يكونوا قد وجدوا ارضاً بمكان آخر او عملاً غير الزراعة

٢ — معرفة ما هنالك من اراضي الحكومة او غيرها مما يمكن تيسيره للاستعمار اليهودي، عملاً بالمادة السادسة من الانتداب

٣ — تحسين عمران الارض الجبلية لضمانة مستوى معيشة اعلى للفلاح وأوعز الى المستر فرنش ان يرفع تقريره قبل آخر السنة (١٩٣١). وأنشئت له دائرة خاصة، فباشر العمل بمعاونة رؤساء الدوائر، ومن دون مستشار من قبل الوكالة اليهودية، لان اللجنة العربية العليا رفضت التعاون بسبب « الكتاب الاسود » وقيام هذا العمل على اساسه، فلم تسم مستشاراً من قبلها

لا عرب بلا ارض

زعم ولتر لودر ملك في كتابه . «فلسطين ارض الميعاد [1] » ان لا عرب بلا ارض، واعتمد

(١) كتاب دعاوة صهيونية اشتهر مؤلفه بتفصيله لمشروع استعمار صحراء النقب بتحويل الاردن عن مجراه الى البحر الميت، واحتفار ترعة من البحر المتوسط، تنصب في البحر الميت بانحدار عظيم، يستخدم لتوليد قوة كهربائية، تكفي لتوسيع النطاق الصناعي بفلسطين توسيعاً يجعل فلسطين ذات طاقة زراعية وصناعية صالحة لاستيعاب عديد الملايين علاوة على سكانها الحاليين

على تقرير هذا الخبير، فقال ان الطلبات لم تزد على ٣٠٠٠، وان ما قبل منها لم يتجاوز ٦٥٦، ثم ان نصف هؤلاء رفضوا العودة الى الارض، مفضلين ما وجدوه من اعمال في المدن. فأمارفض العودة الى ارض تيسرها حكومة صهيونية السياسة فلان العربي شق عليه ان يعيش عيشة العبودية لحكومة هذه صفتها. وقد أدرك ذلك وتحققه من حال نحو مئة من مثله يسرت لهم أرض على ان يدفعوا الاجار والضرائب ويسددوا اثمان الحيوانات والعتاد الزراعي، فما يبقى للواحد منهم الا سد الرمق. وأما قلة من قبل طلبهم من بين ٣٢٧١ عائلة، فلأن التعريف الحكومي للعربي بلا أرض ضيق النطاق، ولان كل طلب قبل مبدئيا احيل للوكالة اليهودية لترى هي رايها فيه. ومثل هذا التضييق والتدقيق ارهاق وازهاق. وما ادراك كم هم الذين أنفوا ان يتقدموا بطلب، لضعف ايمانهم في خصم هو الحكم

ولا ارض لليهود

وصدر القسم الثاني من تقرير المستر فرنش في اوائل سنة ١٩٣٢ ونتيجته ان ليس هنالك من ارض هي بالفعل خالية حاضرة للاستعمار اليهودي . « فالزعم ان الحكومة تملك مساحات كبيرة، وان الاراضي البكر كثيرة، وهم مضلل؛ فكل دونم مملوك او مؤجر، ولا بد من نزع ملكية صاحب الحق عليه ليخلو لغيره » * وعن اراضي الحكومة قال هذا التقرير (ص ٦١) « انها جميعها مسلمة لاغراض مخصوصة او مأجورة لمزارعين يهود او عرب، وان الوسيلة الوحيدة لايجاد ارض لمزيد من الفلاحين، (من يهود او عرب) انما هي حفر الآبار؛ مع العلم ان الصالح لمثل هذا الاحداث، من اراضي الحكومة، قليل ما هو، وعظيمة نفقته، وقد لا يتحقق امكانه »

الجرة في ابريق

مثل الجرة في ابريق محال به يشبه ما يدعيه الصهيونيون من اتساع فلسطين لاستيعاب اهل الوطن القومي، فضلا عن اهلها العرب، بعد ضيقها عن هؤلاء لوحدهم. وقد اجهد الخبير القدير المستر فرنش قريحته، واعمل خبرته في سبيل ايجاد ارض لمن يصبحون بلا ارض من جراء بيع الاراضي الزراعية لشركات يهودية، فاخرج مشروعاً يقوم على استملاك اراض مملوكة، وتيسير ريها الاصطناعي بحفر آبار، واعدادها للتشجير بالحمضيات، فيكون للعائلة العربية عشرون دونماً وتجمع كل خمسين عائلة معاً، في اكواخ تبنى، بمثابة قرية واحدة، على ١٠٠٠ دونم من الارض ولا بد من المداومة على امداد القرية بالعتاد الزراعي، والارشاد الفني، وبما يقوم بأود أهلها طيلة خمس السنوات الاولى، ريثما تنمو الاغراس فيؤمل انتاجها. ونبه الخبير فقال : وليكن البدء بقرية واحدة فقط على سبيل التجربة. وقدر ما يلزم للعائلة الواحدة بثمانمئة جنيهاً

* كتاب جفريس، ص ٦٤٢

Digitized by Birzeit University Library

وابه المشروع

رفع الخبير القدير تقريره بقسميه، وعاد الى بيته باجازة، واستقال. وبقي الكلام كلاماً فلا يسرت الخمسون الفاً، ولا المليونان ونصف المليون، من المال ولا عمل غير الاقوال تضمن التقارير الطوال. وتعود الفتنة، فتأتي اللجنة. وتمضي اللجنة، فتعود الفتنة

الفصل ٣٠

نصر الباطل بالقوة

الفتنة العائدة – آفات السلام – كيف حلت الفتنة من عقالها – الحكومة المخذولة – الطامة الكبرى – صوت مع العرب – تكذيب عجيب – النور الكشاف – الدفاع عن الجيش – الحكم على الحكومة – الابعاد عن البلاد – زعيم فلسطين

الفتنة العائدة

وبعد « الكتاب الاسود » الذي وصم سنة ١٩٣٠، تتالت ايام سود، ففتنة دامت سنين، منها سنة ١٩٤٠، فاذا نحن في شدة الحرب العالمية الثانية، وقد خسرنا الكثير من حسن ظن مسلمي الامبراطورية، ووقف العالم العربي متنكراً لنا بعدما عرفناه حليفاً الى جانبنا في الحرب الاولى

مساوىء حكم، فاستياء محكومين، فمظاهرات في المدن، فاعتداء على المواصلات، فعصيان علني، فعدوان على المستعمرات اليهودية، فعنف حكومي لقمع الفتنة، فاذا الفتنة ثورة مسلحة، وللعرب عصابات معتصمة بالجبال، وقد زيدت قوات البوليس، فما اغنت، وامدت بثلاثين الفاً من جنود التاج، بازاء اثني عشر الفاً من الثوار، فما اجدت. وباتت البلاد حيث يصطنع الامن اصطناعاً بمنع التجول، وحشد الابرياء في المعتقلات، بحجة الاشتباه، وباسم قوانين الطوارىء.. بل آلت الحال الى تحويل السلطة عن مندوب جلالته السامي في فلسطين الى قائد قواته فيها، فاذا الحكم عرفي، واسلوبه التنكيل والتقتيل في من احتملوا الحكم التركي اجيالاً، فما ثاروا، وكانوا اصدق المرحبين بقدومنا، انتظاراً لما كانوا يسمعون به من عدلنا وانصافنا

Digitized by Birzeit University Library

آفات السلام

فسد السلام في « دار السلام »، ومسخ امن البلاد اضطراباً، وعمرانها خراباً . وصدق الكتاب حيث قال ان قليلاً من الخميرة يخمّر العجين كله. ابتدع عهد جامعة الامم، وانطوى على بدعة الانتداب، وادخلت هذه البدعة على فلسطين مخمرة بالعجب العجاب من احداث وطن لقوم ليسوا فيه في وطن ملؤه اهله. ورفض عرب فلسطين انتداباً هذا شأنه، فانزل بهم حكمه انزالاً، لا تنزيلاً، وهم كمواطنيهم من حولهم، يطلبون الاستقلال ولا يرضون دونه بديلاً. وكادوا يقبلون على التعاون لما لوحنا لهم بمجلس تشريعي يملكون فيه شيئاً من القول، فصدر الكتاب « الاسود » نقضاً للأبيض. وصدرت مقررات المؤتمر الصهيوني لسنة ١٩٣٥ ملحقة ملحة بتزييد المهاجرة اليهودية، فكانت ضغثاً على ابالة، و« طفحت الكأس » من جديد. ومن رجع الى الارقام أشفق على النور من الظلام. ففي سنة ١٩٢٠ دخل ٥،٥١٤، ودخل ٣٣،٨٠١ في سنة ١٩٢٥، ولم يكفهم ٦١،٨٥٤ دخلوا في ١٩٣٥ (فبلغوا ٤٢٠،٠٠٠، بعدما كانوا ٦٥،٠٠٠ في سنة ١٩١٩) فطلبوا المزيد

ولمَ يحوم العرب في غربي الاردن ما حل لابناء قومهم في شرقيه، وفي لبنان وسورية، بعد العراق ومصر ؟

كيف حلت الفتنة في عفاربا

في ١٩ نيسان ١٩٣٦، قتل يهوديان، ولم يعرف القاتل. وفي الغد وجد عربيان مقتولين وجهل الفاعل. وعند تشييع الجنازتين في مدينة تل ابيب، هاجم يهودها من في حي المنشية المختلط من عرب. ورد عرب مدينة يافا بالمثل، ومن تلقاء انفسهم اقفلوا المحال، وعطلت الاعمال. وما غابت شمس ذلك اليوم الا والاضراب عام في ساتر المدن العربية. وفي اليوم التالي ارتأت لجنة نابلس ان يدوم الاضراب ويتمادى الى ان تلبى المطالب، وكانت مطالب يسيرة معقولة تقدم بها عرب فلسطين وعلى رأسهم مفتي القدس. فتمادى الاضراب ١٧٦ يوماً، بصبر وثبات لم يسبق لهما مثيل. وتخرص متخرصون فقالوا انه كان اضراباً قائماً بمال اجنبي؛ ولكن جريدة التيمس نفسها، بعددها ليوم ٢٤ ايلول ١٩٣٦، سلمت ان المال كان فلسطينياً عربياً، سوى اعانات صغيرة من العراق، وسورية، ومصر، عربية صرفاً. ولا عبرة البتة بقلة، لا تخلو منهم بلاد، ماتت قلوبهم، وعزت عليهم جيوبهم، فما ايدوا ذلك الاضراب بغير جبنهم وبخلهم وعجزهم عن فتح الفم او تحريك اليد في وجه الكافة المضربين، الراضين، العاملين على طلب الحياة بالاستعداد للموت. وبالفعل شلت البلاد، وبلبلت حكومتها. ومن حسبوا من قبل معارضين ظهروا مع

اخوانهم سواء بسواء، جبهة موحدة، وصوتاً واحداً، في لجنة واحدة الفت في الاسبوع الاول، فايدت المطالب القومية الثلاثة المعهودة :

١ : وقف الهجرة اليهودية

٢ : منع بيع الاراضي العربية لليهود

٣ : اقامة حكومة وطنية مسؤولة لدى مجلس تمثيلي

الحكومة المخذولة

اغفلت حكومة لندن مطالب عرب فلسطين، فانقلب اضرابهم العام الشديد الى ضرب اشد صحبته اعمال عنف وتخريب، فما زادت الحكومة الا الجيش، عدداً وعُدداً. وما انصرم شهر حزيران ١٩٣٦ الا « والضعف باد في هيئة الادارة (الحكومة) نفسها » على قول اللجنة الملكية، في كلامها على مذكرة رفعها الى المندوب السامي ١٣٧ من رجالها، هم قضاتها وسائر الكبار من موظفيها

واعتدلت اللهجة في عريضة القضاة وكبار الموظفين العرب، ولكنها اعربت بصراحة عن اعتبار الاضطرابات نتيجة لليأس « الناجم عن ضياع الثقة في الوعود والعهود الرسمية »، وعن عماوة الحكومة اذ تحاول ان تقمع الفتنة بالقوة بدلا من العمل على ازالة اسبابها. » وتمثل هذه الرزانة، انتهت المذكرة الى الايصاء بوقف الهجرة، والاحتجاج على سياسة العنف وعلى مواصلتها

وتلتها عريضة مثلها، وقعها ١٢٠٠ موظفاً عربياً آخرون

وكذلك باتت الحكومة مخذولة، مغلوبة على أمرها، واستمر الاضراب الى ان تلقت اللجنة العربية العليا نداء من الملك « ابن سعود »، والغازي، ملك العراق، والامير عبدالله، ان يثوب أهل فلسطين الى السكينة، حجباً للدماء واعتماداً على حسن مقاصد الصديقة، بريطانيا العظمى، وقد اعلنت انها تنوي ان تعدل

ولبت اللجنة العربية العليا هذا النداء السامي، فأنهي الاضراب، وسكن الاضطراب وخلا الجو، فقدمت اللجنة الملكية. وسنتناول اشياء من تقريرها في فصل لاحق

الطامة الكبرى

خرجت اللجنة الملكية من تحقيقها العميق بنتائج زعزعت اركان الانتداب المقلقلة، منذ كانت، بما قامت عليه من تناقض أعيى الموفق الملفق، طيلة ما مضى من سنيه المنكرات. وزادت

Digitized by Birzeit University Library

المنكر شراً، فأشارت بتقسيم فلسطين. فما زادت الطين الا بلة؛ فعاد الاختمار؛ وغلى المرجل وفار. عادت الفتنة، وكانت اشد وادهى، وعادت لقمعها اساليب من العنف والارهاق ما زادت الكرامة الا حطا، والهيبة الا هوناً. حلت اللجنة العربية العليا، واللجان القومية، وجرد مفتي القدس من رياسة المجلس الاسلامي الشرعي الاعلى. وألقي القبض على ستة من الزعماء، ونفي خمسة الى سيشل. ولجأ المفتي وجمال الحسيني الى لبنان، فسلما. وفاضت المعتقلات بمئات من الابرياء، من دون ما محاكمة او اسناد تهمة. ونظمت المحاكم العسكرية، وراحت تحكم بالاعدام لمجرد حيازة سلاح ناري، وبالسجون نحو الفين. ومضت الفرق العديدة المدربة من جنودنا، بعددها وأسلحتها الكاملة من طائرات ودبابات، تمعن فتكا وتقتيلاً في عصابات الثوار، وما سلاحهم الا بنادق عتيقة، وبضعة من المدافع الرشاشة. ولقاء ٨٠٠ قتيلاً عربياً ضحيناهم شهداء في سبيل حقهم المهضوم، ما كادت الخسارة من جانبنا تبلغ ٢٨ قتيلا من جنود وبوليس[1]. وما تنسى الغرامات المشتركة الباهظة تفرض على القرى من اجل اسلاك تلغراف أصبحت مقطوعة، او قطار انقلب عن سكته، من دون قيام اي دليل على الفاعل ومأتاه. وحيثما تأخرت الغرامة عن موعدها «نسفت مئات المنازل بمحتوياتها نسفاً» وهام أهلها من عجز ونساء واطفال، على وجوههم، يتضورون جوعاً، وقد أتلفت مؤنهم المذخورة، وضبطت مواشيهم وأغنامهم

صوت مع العرب

وكنت لزمن اشعر بالحاجة الى صوت انكليزي يرتفع بالانتصار للعرب، واختي، المسز فوكس سترانويز، ونخبة من فضلاء الاصدقاء يشاطرونني ذلك الشعور. ففي شهر تموز من سنة ١٩٣٦ لاحت الفرصة، وكانت تفاقم الفتنة في فلسطين واستفحال خطرها. وعرضنا الفكرة على وفد عربي اتفق وجوده في لندن، فأنسنا تشجيعاً، واسسنا ما سميناه «المركز الفلسطيني في لندن» وغايته:

١: تقديم المعلومات الصادقة لمن يتوخى فهما صحيحاً لمشكلة فلسطين، والدفاع عن حقوق اهلها العرب على اساس ما قطع من العهود، وصدر من الوعود من جانب الحكومة البريطانية

٢: تيسير مكان مناسب يلتقي فيه العرب القادمون من فلسطين باصدقائهم من الانكليز لمقاصد اجتماعية، ولتبادل المعلومات

٣: جمع المعلومات وتقديمها للصحف ولمن يهمهم الامر عن الشؤون العربية السياسية،

(١) كذا في الاصل. وابن هذا من كارثة فندق الملك داود، من حوادث الارهاب اليهودي

والاقتصادية، والدينية

والفت الهيئة العاملة من: السير ا. ن. بنت، رئيساً، والمسز سسل بروكس، والمس ا. بلث، والمستر ارشركسط، والمسز ستيودت ارسكين، والمسز فوكس سترانويز، والمستر روفون غست، والمستر ج. م. جفريس، والكولونيل س. ف. نيوكومب، والمسز ل. سونبرن، والسيد اميل الغوري (المندوب العربي). وجعلت سكرتيرة الشرف

وفتح المكتب في شارع فكتوريا. ومن جملة ما وزعه في سبيل غايته كان كتاب بالانكليزية عنوانه «الانتداب الفلسطيني باطل ومحال» بقلم السيد وديع البستاني. وواصل المكتب عمله بادارته البريطانية سنة او نحوها، حتى انتقل من محله الصغير الى آخر اكبر في ميدان «الطرف الاغر»[1] بانتقال امره الى يد عربية، اذ صار سكرتيره السيد اميل الغوري المذكور، ثم الدكتور عزت طنوس. وكان هذا التبديل بطلبي وموافقة الزعيم، مفتي القدس الاكبر، ثمرة وذكرى لزيارتي لسماحته والتحدث اليه في «المجلس الاسلامي الاعلى» في الحرم الشريف. وعرف فيما بعد بالمركز العربي. وممن استقبل فيه الامير فيصل، نجل الملك ابن السعود، وكثيرون من الزعماء العرب، والوفود الاسلامية من الهند وغيرها. وجلت خدمته بما نشره من البيانات، وما يسره للصحف، من المعلومات عن قضية العرب، تنويراً للرأي العام. وكان بحاجة الى مثلها، وقد ضللته الاوهام

تكذيب عجيب

ومما اذاعه المركز العربي في سنة ١٩٣٨ نشرة عن اسراف حكومة فلسطين في اعتقال العرب، وتدمير مساكنهم، وفرض العقوبات المشتركة، وغيرها من اساليب العنف، بحجة القمع والتأديب. وكانت تلك النشرة سبباً لسؤال في البرلمان، ردت عليه الحكومة بانكار، وتكذيب لما نسب الى الجيش والبوليس في فلسطين من «تصرف غير قانوني واغراب في القساوة». واجبت على ذلك الرد، فتمنيت لو صح وصدق. وقلت ان قوانين الطوارىء نفسها كانت اغراباً في الفظاعة واسرافاً في الارهاق، فوصف التصرف بموجبها بالقانوني صدق منكر، وغير مزيل لشيء من اسباب الشكوى. وما كان غرضي يومذاك، وقبله وبعده، الا ايقاظ ضمير الامة، وتنبيه بني قومي، حكومة وشعباً، الى طراز من الحكم في فلسطين شوه السمعة، وزعزع الثقة في العدالة البريطانية

(١) ميدان ترفلغر من اشهر ميادين لندن واسمه تصحيف العلم الاسباني العربي الاصل، الطرف الاغر

Digitized by Birzeit University Library

وبطلب صادق من مطراننا في القدس، طفت بعض الانحاء، وحققت ودققت فوجدت ما ضاعف حزني من صحة ما كان ينسب الينا من تعسف وارهاق في معاملة العرب باسم التأديب والتطويع ورد الامن الى نصابه. ورداً على رد الحكومة في البرلمان وضعت رسالتي « النور الكشاف » سلطته على اعمال السلطة في فلسطين، لتراها كل عين

وفي شهر ايلول من سنة ١٩٣٨، كتب الى صديق من فلسطين ينهاني عن القدوم، ويذكر من الحوادث كل مصداق لما كان يذيعه المركز العربي بلندن من المعلومات بمثل « النور الكشاف » وغيرها من النشرات. قال الصديق، وكان بريطانياً:

« تجدين ما لا يطاق، ارهاباً بريطانياً اشد من الارهاب، لا يصدقه بريطاني مدني مثلي لولا انه سامع بعينه. قتل بوليس بريطاني، فنسفوا بلدة جنين نسفاً، وما بالغ البيان الرسمي حيث احصى ما هدم من المساكن بمئة وخمسين. وما قولك في اشخاص ركضوا هروباً للنجاة. فأطلقت عليهم النار، فسقطوا؟ اما ذلك دأب النازية؟ اما التعذيب ابتزازاً للاقرار، فما تشمئز لوصفه نفس الأبي، وما اريد به الا القاء الرعب في نفوس الناس، لا عقاب المذنب. وما وقفوا عند تدمير الدور والبيوت، تنكيلاً، بل تسفلوا فنهبوا وسلبوا نقوداً ومجوهرات. ويستحيل علي ان اوقفك على كل ما هو جار من مثل ذلك. وما قولك في عمال عرب شجعان اوفياء. يقضون النهار في اصلاح اسلاك التلفون، عرضة لرصاص الثوار، عاد بعضهم مساء فوجدوا بيوتهم انقاضاً، وقد نسفها الجنود البريطانيون. تلك حوادث تزيد الثوار نقمة، وبأساً. ويوم السبت كان اطلاق النار هنا في يافا غريباً في بابه، فكل من لاح هدف. وكان من ضحايا هذا المروق من الانسانية، مهندس مساح مثقف لسانه الانكليزية، من الموظفين، وبنت صغيرة في السابعة، في يوم واحد. وهذا الصباح تأخرت علي جريدتي، وسألت فعلمت ان الصبي قتل وهو آت بها

منذ ايام الصليبيين، هذه اول حكومة مسيحية في البلاد المقدسة . . . اللهم اغفر لنا . . . »

الدفاع عن الجيش

في ٩ كانون الثاني سنة ١٩٣٩، نشرت وزارة الحربية « رداً على اراجيف لا اساس لها من الصحة يروجها اشخاص وهيئات من المعادين للبلاد » وقالت: « من الحق ان نحمي اولئك المفروض عليهم واجب رد الامن الى نصابه ممن يسلقونهم بألسنة حداد، افتراء، وعدواناً »

فمن يقرأ مثل كتاب الصديق البريطاني، شاهد العيان، فيعد اقواله افتراء وعدواناً من عدو

للبلاد؟ ولم يخص بالحماية من الانتقاد، جيوش هذه البلاد؟ وكثيراً ما الح كتّاب تلك النشرات الكاشفة عن الفظائع في طلب هيئة توفدها لجنة الانتدابات لتقوم بتحقيق مجرد عن كل هوى وميل، فيعرف الصدق في الشكوى والاخلاص في الانتقاد من التمويه وذر الرماد

الحكم على الحكومة

ولئن وصفت افعال جنودنا كما وقعت، تألماً من همجيتها، وضناً بالكرامة القومية ان يدوم تلطيخها، فانما اريد ردع الحكومة عن تماديها في خطة وبيلة، ابت التحول عنها، محاولة فاشلة شنيعة لمعالجة كل فتنة بلجنة، بدلا من ازالة اسبابها، ودخول البيوت من ابوابها. وما ذنب من يقول ان الجنود هدموا البيوت ان هم نسفوها نسفاً. ولا ذنب يؤخذ به اولئك الجنود، وقد اطاعوا حكومة هي الآمرة بالهدم والتدمير. ولكن الحكومة، ان أقدمت على شيء من ذلك، تسترت بكلام ظاهره حق، وباطنه الباطل، فتقول للهدم تنظيما وتجميلا

ففي ١٦ حزيران ١٩٣٨، صدر بلاغها الرسمي يعلن عزماً صح لها على تجميل مدينة يافا القديمة بانشاء شارعين « مفيدين لذلك الحي والمدينة كلها. وقالت ان الخطوة الاولى في تحقيق هذا المشروع تكون هدم بعض المباني وازالة انقاضها لشدة اكتظاظها وسوء حالتها الصحية، اغتناماً لفرصة سانحة، هي وجود فرقة المهندسين الملكيين، وسيعوض على المالكين. هذه هي عبارات البلاغ

ومجمل ما وقع بالفعل، ان سكان ٨٠٠ بيتاً باتوا بلا مأوى، وعدوا ٦٠٠٠ شخصاً، الى ان كثيرون في يواخير واصطبلات، او رفعت فوق رؤوسهم اشباه خيام من الخيش على الشط. وتم النسف في ٢٩ حزيران. وها نحن في تشرين الثاني، وكل ما اصابهم من تعويض خمسة بنسات للشخص الواحد، لليوم الواحد من الاسبوع الاول الذي تلا التخلية. وهذه عبارات بريطاني مقيم بفلسطين، عن الصفحة ٨ من رسالة له في سلسلة عنوانها: من الموفق المفلح في فلسطين؟

وما كان غرض الحكومة ما ابان عنه كلامها في بلاغها. فانها ادعت فيما بعد، لدى المحكمة العليا، ان ازقة ذلك الحي كانت تمكن ثوار العرب من الكمون للجنود البريطان، والاطلاق عليهم، فكان الهدم ضرورياً لفتح المدى لرشاشات الجنود. وحتى قاضي القضاة، السير ميخائيل مكدونلد، البريطاني، اخذ على حكومة فلسطين تمويهها، وتشويهها للحقائق، فقال في حكمه: « انها خلت من الشجاعة الادبية » . . . وكان خيراً لها لو قالت، بصدق وصراحة، ان القصد من الهدم كان تيسير الدفاع، بدلا من محاولة ذر الرماد في عيون الشعب بادعاء مقاصد تجميل وتحسين،

Digitized by Birzeit University Library

واصلاح، في سبيل التنظيم والصحة العمومية ... هذا تذبذب وموارية، لو سكتت عنه محكمة العدل العليا هذه، لكان ذلك منها نفياً للعدالة نفسها »

ولان قاضي القضاة البريطاني في فلسطين لم تعوزه الشجاعه الادبية، فسمى فعل حكومة فلسطين، على يد الجنود البريطان، باسمه، قالت جريدة التيمس (في عددها ليوم ٢٣ تموز، ١٩٣٨) ان القضاء خذل الادارة، وكان التعاون بين السلطتين اولى واحرى . وكانت المغبة، بعد زمن يسير، ان استقال قاضي القضاة الذي صدق الكرامة البريطانية . وما صدق احد في فلسطين لن وزير المستعمرات، وهو يومذاك المستر اورمسبي غور، كان غريباً عن اسرائيل فلم يكن له في تلك الاستقالة يد او قول

كذلك ابعاد الصادقين

الابعاد عن البلاد

وفي يوم ٤ تشرين الاول ١٩٣٨، وقع السير هرولد مكميكل، المندوب السامي لفلسطين امراً (بموجب النظام ١٥ من انظمة الطوارى، ١٩٣٦، المعدل بانظمة الدفاع ذات الرقم ١٩ سنة ١٩٣٨) : « ان يبقى الشخص الآتي ذكره خارج فلسطين » . ومن الهزو والسخرية هذه الرقة في الصيغة، مجانبة لمرارة الحقيقة المقصودة، وما هي الا النفي والابعاد عن البلاد . وكان الشخص المسمى بهذا الامر : « المس فرنسس ا . نيوتن »

وكنت عندئذ في انكلترة. وبغلت الامر في ٢٥ من شهره، على يد رجل من رجال سكوتلنديرد، فكان خلواً من كل توقيع سوى ختم مطاط : « الامضاء: هرولد مكميكل، المندوب السامي». ولم تكن الورقة تحمل الشعار البريطاني الذي لا يخلو منه الورق الرسمي، ولا ظهر هذا الشعار على الظرف الذي احتوى الورقة بل كان الظرف اعتيادياً بالمرة، فكتبت الى المندوب السامي أحتج على صدور هذا الحكم علي، غيابياً ومن دون الابانة عن اي داع له. وبعد أمد طويل كتب الي السكرتير العام يعلمني ان اصدار « أمر اخراج من صلاحية المندوب السامي ومطلق اختياره » وأردف بكتابه الامر ذاته موقعاً وعلى ورق « الله وحق » . وفي ٥ تموز ١٩٤٣ كتبت الى السكرتير العام، وكنت قد تلقيت اخباراً تستدعي عودتي الى بيتي على جبل الكرمل، أول ما يسمح بالسفر، فأجابتني وزارة المستعمرات في ٣٠ ايلول : ان لا مانع، لان المندوب السامي قد اعلمنا بسحب « أمر الابعاد ». وهذه المرة سمي الشيء باسمه

زعيم فلسطين

ومثل هذا الامر عينه بالبقاء خارج فلسطين، صدر عن المندوب السامي، وكان « الشخص

الآتي ذكره » مفتي القدس، صديقي « الحاج امين الحسيني ». ونعم الاسوة. وما زال سماحته لليوم مبعداً عن وطنه. وهو من ان وجد يوماً مؤمن لبريطانيا العظمى، او معتمد على صدقنا، فهو ذاك المؤمن المعتمد. وان ارتد، فلتزعزع ايمانه بما خص به الصهيونيون من التميز والتفضيل على بني قومه، ولما باء به عرب فلسطين من الخسران عن طريق انتدابنا وتطبيقه. صدق امامته الدينية، فتزعم حركة امته الوطنية. وحتى اللجنة الملكية برأت ساحته من التحريض على الثورة ضدنا. ولئن أخذ عليه انه لم يخمد الفتنة، فما كانت الا روح الوطنية المتأججة التي تأبى جمود الخمود. ولما أسيء فهم اقواله، وتأويل افعاله، وجد نفسه مضطرا الى مقاومة سياسية اتبعناها : وكانت حرية بالمقاومة. وما لبث ان عد عدواً «اهلكوه اينما ثقفتموه في ديار الحكم البريطاني» فما وجد الامن الا بين اعدائنا، من طليان والمان؛ وبئس الملجأ . . . ولكن . . من الملوم؟

وربما كان الشر خيراً. فمن قبل كانت الزعامة في فلسطين للشيخ الجليل كاظم باشا الحسيني، وقد تقدم ذكره رئيساً لاول وفد جاء لندن، وجئت في خدمته. وما يسعني ان اختم هذا الفصل من تدوين الحسرة، عبرة وذكرى، لما عاناه هذا الزعيم الوقور الغيور وكان ختاماً لجهاده. فان انس جلاله ووقاره وهو يقول : « يامس نيوتن، اعذرينا ولا تلومي . مضت سنون ونحن نخاطب الحكومة بالطرق المشروعة، فهذه الان الطريقة الوحيدة للاسماع والاقناع ». وكنت قد اشفقت على عرب القدس من قيامهم بمظاهرة في الغد اعتزموها، والحكومة تمنع المظاهرات، فقصدت الى بيت الرئيس ليلاً. وقامت المظاهرة السلمية، ووقع ما كان بالحسبان من ضحايا للقانون المسنون، وللوطنية المكبوتة. وفي يافا، بعد حين، اقيمت مظاهرة اخرى، حللها الوطن المظلوم، وحرمها شرع الظالم، وكان على رأسها هذا الزعيم الحسيني — موسى كاظم. ووقع الاصطدام بين المتظاهرين وقوات النظام. وفرقت بالسلاح الناري. وما وقى الشيخ الجليل الا صدور من حوله. تعرضت لذلك السلاح، تفدي الزعيم بالارواح. وانه الاسى الاشد ان يأسى القلب وفي صميمه الخوف ان يكون ما اصاب هذا الزعيم على يدنا مما ادنى اجله، فكان ختاماً لجهاده. وشهادة له، ولقومه، علينا نحن . . . اننا صيرنا الصديق عدواً . . وبئس المصير

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٣١

الانصاف المنكر

الانتداب تحت البحث – كشف النقاب عن وجه الانتداب – التناقض
بطلان – لجنة التقسيم – فلسطين اربعة – اقسام لا استقلال في فلسطين

الانتداب تحت البحث

علة العلل الانتداب الذي رفضه العرب لانه قيد الاستقلال بالاغلال. وقد زال، الا عن فلسطين، حيث حل واناخ بكلكله ورسخ رسوخ الجبال، وحيث ثقل ظله بالوبال بعد الوبال. فمن فتنة الى فتنة، فلجنة الى لجنة. وما كفى فلسطين ان فصلت عن سورية بعد شطرها الى شطرين، فجاءت لجنة ملكية، بعد ثورة شعبية، تشير بتقسيمها الى قسمين، بل الى ثلاثة، بل اربعة. وهذه هي الغاية فى تقطيع الاوصال. هذا هو مبحث هذا الفصل من هذا الكتاب. وسنخرج منه، وعلة العلل ذلك الانتداب، الباطل المحال

ففي يوم الهدنة – ١٩٣٦/١١/١١ – وصلت اللجنة، للتحقيق في الفتنة. وما اتمت تقريرها الضافي الذيول، بصفحاته الاربعمئة وخرائطه العشر، الا والفتنة المتجددة اشد، ولجنة جديدة وراء الباب. على انها اول لجنة يتاح لها ان تبحث عن الاسباب ولو انها متصلة بالانتداب. فجاء في عهدتها، مالم يجيء في عهدة لجنة سابقة. ولكنه كان دون ما ينبغي للقضاء على الداء باستئصال شأفته وازالة لعلته

ابيح لهذه اللجنة، الملكية في اللجان، ان تنظر في كيفية تطبيق الانتداب الفلسطيني، ذي الشقين، بالنظر الى الالتزامين، الواحد للعرب، والاخر لليهود. ولا ورود لكلمة هي «العرب» في صك الانتداب. ولكن اغفالهم لم ينف وجودهم. اثبتوه؛ فقالت هذه اللجنة: «ان

الاضطرابات التي انفجرت في ١٩ نيسان ١٩٣٦ كانت نتيجة نزاع بين الوطنيتين (القوميتين) العربية واليهودية». ثم قالت: «وهو نزاع بين حق وحق»

كشف النقاب عن وجه الانتداب

لاول مرة عولجت قضية فلسطين المشكلة المعقدة بنظرة عامة الى ما سبق احداثها واشكالها وتعقيدها. وما احدثها الا الانتداب الذي أشاد بتشييد صرح للقومية اليهودية، من دون ايما ذكر لما في فلسطين من عرب اعتبروا «غير يهود» لا اكثر. فمزية هذا التقرير انه فصل مظاهر القومية العربية، واستحكام نزعاتها في فلسطين، وبمثل وحي الحكمة السليمانية قال بقطع الطفل وقسمته بين المرأتين. وما عرف لمولود والدتان؛ ولكن الانتداب بدعة واختلاق، منذ كان. اوجزت هذه اللجنة خبر النهضة العربية، من جمعيات سرية في باريس، واسطنبول، والقاهرة، ودمشق، وبيروت، فتألف، وانضواء تحت لواء واحد عقد لشريف مكة والحرب العالمية الاولى في ابانها، «ورفض الاستقلال على يد الالمان والاتراك»، واعتماد على العهد البريطاني الذي قطع للشريف، في سنة ١٩١٥، فثورة في وجه دولة الخلافة، وجهاد الى جانبنا، نحن البريطان حتى هزم الاتراك في سنة ١٩١٨، ودخل الامير فيصل دمشق ورفع الراية العربية، وصدر البيان المشترك، باسم بريطانيا وفرنسا، مؤيداً العهد البريطاني الاسبق. ثم قالت مشيرة الى هذا البيان:

«كان العرب دائماً يعدون فلسطين من سورية. فجاءهم هذا البيان واعداً بكل ما كانوا يتوخونه. ومن ثمة، فشد ما اعتراهم من خيبة امل عندما علموا بان الدول المنتصرة لم تكتف بفصل فلسطين عن سورية، بل ارادت جعلها تحت طراز من الحكم يطبق السياسة التي احدثها تصريح بلفور، وهي السياسة التي اعتبرها الشريف وابنه فيصل نكثاً لعهد مكماهون. وحتى لو فسّر العرب ذلك العهد تفسيراً مخرجاً لفلسطين عن منطقة الاستقلال العربي (الذي تعهدت بريطانيا نفسها بالاعتراف به وبتأييده) ومحتفظاً بها لاستيلاء فرنسي، او بريطاني، او دولي، فلم يكن ليخطر لهم في بال ان ذلك الاستيلاء يكون منطوياً على اقامة وطن قومي يهودي فيها» ... «وما فلسطين الا جزء صغير جداً منها» (اي من الاقطار العربية) ... «وفي ١٩١٨ ... كان العالم العربي بأكمله قد تم تحريره من الاستبداد التركي. وكان المستقبل غير معين بعد، ولكن المركز العربي، عندئذ، كان بالواقع قوياً»[1] (de facto a strong one)

ولا يفوتن القارىء ان يقف وقفة الناقد البصير بعبارة «وما فلسطين الا جزء صغير». او

(١) اي لم ينقصه الا الاعتراف به. وفي القانون الدولي اذا اعترفت دولتان بحكومة ثورة او انقلاب، اصبحت حكومة شرعية قانونية

Digitized by Birzeit University Library

ليس القلب جزءاً صغيراً؟ افيحل فصله ؟

وعرضت اللجنة لسنة ١٩١٧ وللوعد البلفوري الذي صدر في آخرها ، بين عهد ١٩١٥ وعهد ١٩١٨، فقالت : ان حالة الحلفاء والدول المتحدة كانت حالة اشتداد الازمة « واعتقد ان الولاء اليهودي او نقيضه قد يكون ذا اثر فارق حاسم في قضية الحلفاء، وان الميل اليهودي لجهتهم قد يضمن تأييد اليهودية الاميركية » . وصرحت فقالت : « وعدنا الزعماء الصهونيون وعداً قطعياً انهم يبذلون خير جهودهم لتأليب الشعور والعون اليهوديين، في العالم كله، تأييداً لقضية الحلفاء، اذا هم (اي الحلفاء) وعدوا باسداء التسهيلات لاقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي » . اسندت اللجنة هذا القول الى قائله المستر لويد جورج، ثم قالت : « وقاموا بوعدهم »

وانكشف الغطاء، حيث مضت تقول :

« يظهر ان العرب لا يدركون — اولاً — ان مركز العام العربي الحالي جملة انما هو في معظمه، ما هو، بفضل ما قامت به الحلفاء، والدول المتحدة من عظيم التضحيات في الحرب — وثانياً — ان تصريح بلفور، بما اعان في سبيل انتصار الحلفاء، اعان على تحرير جميع الاقطار العربية من الحكم التركي »

فما معنى هذا الكلام ؟

معناه : ان لا وجه لشكوى العالم العربي، ان نكل المنتصرون عن عهدهم وانكروا دَينهم، من أجل الشعور والتأييد اليهوديين، أو أرادوا العرب في اقطارهم ان يسلموا فلسطين (الجزء الصغير جداً) الى شعب غريب عنها طيلة عديد القرون، لتصبح وطناً يهودياً كما ان انكلترة انكليزية

ولكن الشكوى شكوى عرب فلسطين أنفسهم خاصة، قبل ان تكون شكوى العرب كافة، وبعدها . فلسطين من الاقطار العربية قلبها، وبها شعبها، وهي فلسطينُه هو . فأي كرم، جودك بمال غيرك ؟

التناقض بطلاً

ولا بدع ان انتهى تحقيق هذه اللجنة الى ما انتهى اليه من الاشارة بتقسيم فلسطين، على ان يأتي بعدها من يشير كيف يمكن التقسيم؛ ثم يقال : ليس التقسيم بمقبول، فلنبحث عن حل آخر من الحلول . وعبثاً البحث، والانتداب، سبب الاسباب، قائم على التزامين متناقضين، يزعم امكان التوفيق بينهما، وليس الى ذلك الامكان من سبيل . ففضل هذه اللجنة، كما جاء في

كتاب « بريطانيا العظمى وفلسطين » (ص ٨٧) « انها قالت ان الوعدين متناقضان، لا يمكن التوفيق بينهما، وان الانتداب بشكله الحالي انتداب لا يمكن العمل بموجبه » . ومؤدى ذلك انه انتداب باطل من اساسه

لجنة التقسيم

وصلت تاسعة اللجان هذه في نيسان ١٩٣٨، وكانت عهدتها قد اعلنت في كتاب ابيض صدر في الاسبوع الاول من هذه السنة، الثالثة من سني ثورة فلسطين العربية . وكان المستر رمزي مكدونلد قد خلف المستر اورمسبي غور وزيراً للمستعمرات

اوفدت هذه اللجنة، لتخرج مشروع تقسيم . اما هل التقسيم، من حيث هو، شيء صالح ام غير صالح، وهل المشروع الموضوع ممكن او غير ممكن، فذلك كله خارج عن صلاحيتها ومن شأن حكومة جلالته وحدها . ولكن مجرد ايفاد لجنة لهذا الغرض كان بمثابة التسليم باستحالة الجمع بين اليهود والعرب في صعيد واحد، وبأن القول باحتمال التعاون والائتلاف بين القوميتين، حلم زائل، ووهم باطل

فلسطين اربعة اقسام

وجتى لجنة التقسيم اشكل عليها التقسيم، فخرجت بثلاثة مشاريع، وما اتفقت على واحد منها . ولكن الاكثرية من اعضائها الخمسة رجحت الثالث، الذي عرف بحرف « ج » وهذا قسم ذلك « الجزء الصغير جداً » الى اقسام اربعة، وجعل ثالثها ثلاثة اقسام

١ : الدولة العربية : معظم الداخلية ومن يافا الى غزة فما يليها من الساحل

٢ : الدولة اليهودية : الساحل، من شمالي يافا الى جنوبي حيفا، وميناؤها تل ابيب

٣ : البلاد الانتدابية: الشمالية (الجليل وجبل الكرمل وحيفا على سفحه) والجنوبية (النقب حتى حدود مصر)

٤ : القدس (وهي من البلاد الانتدابية ايضاً)

لا استقلال في فلسطين

علة العلل اخراج فلسطين عن نطاق الاستقلال العربي

ومبعث الفتنة النزاع بين « حق وحق » وشقاق بين قوميتين، عربية قائمة موجودة، ويهودية بائدة، عائدة الى الوجود من جديد؛ فلتقسم فلسطين

Digitized by Birzeit University Library

كذلك قال سليمان الحكيم لما ادعى الطفل امرأتان، عسى ان ترضى احداهما، فيثبت الطفل للاخرى. ولو ملك الطفل القول، لسفّه سليمان وحكمته

وهنا القول قول الحكومة البريطانية وحدها، اولا وآخراً

وهي سفّهت نفسها

ففي شهر تشرين الثاني ١٩٣٨، نشر تقرير لجنة التقسيم بين يدي كتاب ابيض رفضه بكليته، فلا دولة يهودية، ولا دولة عربية، اي « لا استقلال في فلسطين »

وبقيت البلة في الطين

الفصل ٣٢

السياسة الجديدة

الصلح أولى – رسالة هوغرث – تصريح هوغرث للسبعة – الحق المكتوم – المائدة المثلثة – السياسة الجديدة

الصلح أولى

اشتد النزاع وتمادى، وتكررت الفتن، وتعاقبت اللجان، وفضح التناقض، وظهر البطلان، فاقترح التقسيم. وما امكن التقسيم شطراً الى اثنين، انصافاً بين القوميتين المتنازعتين على « الجزء الصغير »، لانه البلاد المقدسة الواحدة للاديان الثلاثة، فجاء مشروعه بمثابة تجزئة وتقطيع وعلى جانب من التعقيد والاشكال. واعرض عنه العرب، ولم يلقه اليهود باقبال. فرفضته الحكومة البريطانية نفسها، وعادت تقول: الصلح اولى. فما قالت شيئاً جديداً. ولكنها الدولة المنتدبة، وما يعجزها ان تقول شيئاً، قل معناه او كثر، ولو كان مبتذلا او عقيما

وارادت ان تكسب قولها لونا جديداً، فدعت الى مؤتمر «مائدة مستديرة» يعقد في لندن. دعت مصر، والعربية السعودية، واليمن، وشرق الاردن، دولا عربية مستقلة مجاورة لفلسطين باعتبارها جديرة بالعناية بالجزء الصغير، باسم العالم العربي، اسوة بالوكالة اليهودية الناطقة بلسان العالم اليهودي. واعتور هذه الدعوة نقص ظاهر؛ اذ وجهت الى الوكالة اليهودية على اطلاقها، واحتفظ الداعي لنفسه ان لا يقبل المفتي رئيس اللجنة العربية العليا او غيره من اعضائها. وسماحته يومذاك لاجيء، خارج فلسطين، وبضعة من الاعضاء معتقلون في سيشل. فافرج عنهم، وابيح لهم ان يتصلوا بالرئيس، على ان يبقوا ممنوعين عن دخول فلسطين. بل كان من التعرض لحرية عرب فلسطين ان ضم الى وفد اللجنة العليا عربيان آخران بطلب خاص من رئيس الوزارة نفسه، وهو

Digitized by Birzeit University Library

يومئذ المستر رمزي مكدونلد . وبهذا التقييد يقابل ما تسنى للفريق اليهودي من ايفاد من شاء. ولو كان المانيا

وفي ٧ شباط ١٩٣٩، رفع الستار، في قصر سنت جيمس، فاذا المؤتمر مؤتمران، والمائدة مائدتان، والجمع بين النقضين محال، خارج عن الامكان في كل زمان ومكان. فالفريق العربي ابى الاعتراف باليهود فريقا ذا كيان، واصر على رفض الانتداب نفسه الذي بني على تصريح بلفور، وعلى التمسك بالعهد البريطاني المقطوع لشريف مكة. وكان السيد جمال الحسيني رأسا لهذا الفريق، والدكتور حاييم ويزمن رأس الفريق اليهودي المتشبث بتصريح بلفور وصك الانتداب المعلنين. وكان كتاب « يقظة العرب » قد نشر الرسائل المعروفة برسائل : مكماهون – الحسين : ورسالة هوغرث، فاصدرت الوزارة كتابا ابيض ضمنته تلك الرسائل التي تبودلت في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦، وآخر ادرجت فيه اقوال رسول الحكومة البريطانية، د. ج. هوغرث الى جلالة الملك حسين، في سنة ١٩١٨، واقوال الملك العربي، تعليقا، ورداً

رسالة هوغرث

وقد تقدم تلخيص الرسائل (الحسين – مكماهون) والبحث فيها. ففيما يلي اجمال الرسالة الشفوية التي بعثت بها الحكومة البريطانية الى الشريف، تشعره بما كان يدور في خلدها في امر فلسطين، على اثر اعلان تصريح بلفور. قال الرسول :

« ١ : ان دول الاتفاق قد صحت نيتها على ان تتاح للعنصر العربي فرصة كاملة ليعود من جديد امة في العالم. وانما يكون ذلك باتحاد العرب انفسهم. وستتبع بريطانيا وحلفاؤها سياسة منظوراً فيها الى ذلك التوحد مصيراً وغاية قصوى

٢ : اما فلسطين، فاننا مصممون ان لا يكون شعب تبعاً لآخر

٣ : بما ان الرأي العالمي اليهودي يجبذ عودة لليهود الى فلسطين، وبقدر ما يلزم ان يبقى هذا الرأي عاملاً دائماً، ثم بما ان حكومة جلالته تنظر بعطف الى تحقيق هذه الامنية، فحكومة جلالته مصممة، بقدر ما يتفق مع حرية السكان في حينه، اقتصادياً وسياسياً، ان لا يوضع من عقبة في سبيل تحقيق هذه النزعة

وفي الحديث الذي تلا تبليغ هذه الرسالة، قال شريف مكة « انه يرحب باليهود في جميع البلدان العربية » واوضح هوغرث « ان تصميم حكومة جلالته يؤمن سلامة السكان المحليين في حينه »

وقال هوغرث في تعليقه على الحديث، عندما رفعه الى المندوب السامي بالقاهرة « ان الشريف لم يبد قبولا بدولة يهودية في فلسطين، ولا كان من تعليماتي ان انبه الشريف الى ان قيام مثل هذه الدولة كان متوقعاً عند بريطانيا العظمى »

تصريح هوغرث المسعد

وفي شهر حزيران ١٩١٨، صرح الرسول الرسمي، هوغرث، لسبعة من العرب، اجتمع بهم في القاهرة :

« ان مشيئة حكومة جلالته ورغبتها هي ان تكون حكومة هذه الاقطار (اي البلدان المحتلة عندئذ ومنها فلسطين) حكومة قائمة على مبدإ رضى المحكوم، وهذه السياسة تؤيدها حكومة جلالته ولن تزال تؤيدها »

الحق المكتوم

هذه الاقوال الرسمية، ومن قبلها الرسائل الكتابية، صدرت في عهد وزارة رئيسها لويد جورج، ووزير خارجيتها ارثور بلفور، المسؤولان عن الوعد بالعطف على الوطن القومي، وعن الانتداب الذي اقيم على ذلك الوعد. فلماذا اقتضت حكمتها، وحكمة كل وزارة جاءت بعدها، ان لا تظهر هذه الوثائق للعيان، بل ان تبقى في طي الكتمان ؟

الأنها انطوت على حق ؟

والسؤال الاهم : افقامت الفتن في فلسطين، وأريقت الدماء، لو كانت حكومة فلسطين « حكومة قائمة على مبدإ رضى المحكوم » ؟

المائدة المثلثة

حبط المسعى، فما جمعت الفرقاء الثلاثة مائدة مستديرة، ولا غير مستديرة. وانتهى المؤتمر اللندني برفض مقترحات الحكومة. على ان الفريق العربي كان اقرب الى القبول بها لو اخذ بالتعديل الذي قال به اجتماع عقد بالقاهرة وشهده زعماء عرب وآخرون مسلمون من الهند، فضلاً عن رجالات فلسطين. وكان تعديلاً معقولاً، مؤداه : « المبادرة الى تعيين وزراء فلسطينيين في حكومة وطنية، والى جانبهم مستشارون بريطانيون، على ان يقوم مجلس وطني، بعد ثلاث سنوات بوضع دستور دولة فلسطينية مستقلة »

ولم يؤخذ بهذا التعديل. وفي ١٧ ايار ١٩٣٩، صدر الكتاب الابيض المشهور، مفصحاً عما كان من مباحثات مثلثة، وعدم التوصل الى مقترح مقبول لدى الفرقاء الثلاثة، ومنتهياً الى

Digitized by Birzeit University Library

سياسة وضعتها الحكومة البريطانية على اساس المقترحات التي بحثت مع الوفدين. وعلى هذه الصورة بات التناقض مثلثاً بين ثلاثة

السياسة الجديدة

لا غرو ان يقال ان هذا الكتاب الابيض اتى بسياسة جديدة، لا خير فيها سوى مسحة من الصراحة في التصريح عما في ضمير الدولة المنتدبة تجاه المسائل الثلاث : الحكم الدستوري، والمهاجرة اليهودية، وانتقال الاراضي الى اليهود

ومن الصراحة بعد التكتم ان قالت الحكومة : « انها متمسكة بزعمها ان فلسطين الواقعة غربي نهر الاردن أخرجت عن نطاق العهد المكماهوني بالاستقلال ؛ فلا سبيل الى تحويلها الى دولة عربية » وان قالت : « انه ليس من سياستها ان تصير فلسطين دولة يهودية ». وفصلت فقالت : « انه يمكن ان يقال ان واضعي صك الانتداب الذي أدمج فيه تصريح بلفور قد قصدوا ان تحول فلسطين الى دولة يهودية ضد مشيئة اهلها العرب ». وبعد هذا النفي الصريح للاستقلال العربي بفلسطين ، صرحت الحكومة البريطانية بقصدها الى قيام دولة مستقلة تعرف بدولة فلسطين ، يكون لليهود وللعرب اشتراك في حكومتها ، على ان يتم ذلك بعد فترة انتقال مداها عشر سنوات ، يبقى الحكم ، باثنائها ، في يد الحكومة البريطانية ، بشيء من زيادة نصيب اليهود ونصيب العرب فيه

ومن الصراحة ان صرحت الحكومة البريطانية في مسألة المهاجرة : « ان التوسل لتوسيع مطلق للوطن القومي اليهودي بمهاجرة معترض عليها بشدة من قبل شعب البلاد العربي ، معناه الحكم بالقوة . وذلك مخالف لروح البند ٢٢ من عهد جامعة الامم ، ولما التزمته الحكومة البريطانية نحو العرب في الانتداب الفلسطيني نفسه » .. « فبعدما تم ما قد تم من نمو الوطن القومي اليهودي بفضل ما اتيح من التسهيلات في مدى عشرين سنة ، قررت الحكومة ان لا يسمح له بتوسع اكثر عن طريق المهاجرة ، ما لم يكن العرب مستعدين للرضى بذلك » .. « فبادخال ٧٥٠٠٠ مهاجراً يهوديا في خلال الخمس السنوات الاولى (من فترة الانتقال) يكون اليهود قد أصبحوا ثلث السكان » . وبعد ذلك لن يسهل انشاء الوطن القومي اليهودي بالمهاجرة، من دون مشيئة السكان العرب

وفي مسألة الاراضي ، وقفت الحكومة عند حد النتيجة التي انتهت اليها تقارير المحققين ، وهي ان نمو الشعب العربي بفلسطين ، واطراد بيع الاراضي الى اليهود ، باتا حيث لا مجال بعد السماح المطلق بانتقال الاراضي الى اليهود الا في منطقة معينة، بخلاف منطقتين، يحظر في احداهما،

ويقيد في الاخرى باذن خاص من المندوب السامي . فقسمت فلسطين الى ثلاث مناطق عينت حدود كل منها . وصدر قانون على هذا الاساس

Digitized by Birzeit University Library

الفصل ٣٣

الحق اولى ان يتبع

الصهيونية السافرة – الصهيونية الهائلة – المشكلة الصهيونية – المشكلة اليهودية – المشكلة الدينة – قول الحق

الصهيونية السافرة

نفى تصريح بلفور كل وجود لعرب فلسطين، فأنكروه وأنكروا الانتداب الذي قام عليه، وأثبتوا وجودهم. وما زالت الصهيونية تتحجب وتتستر، حتى ظهر الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩، فآلت الوكالة اليهودية ان تمزقه وتحرقه، وقامت تطالب علناً، وعلى رؤوس الاشهاد، بحكومة يهودية، وبفتح باب الهجرة على مصراعيه، وبالغاء كل قيد على بيع الاراضي

وفي عدد ١١ ايار ١٩٤٥ من المجلة اليهودية « ذي جويش ستندرد » كتب صهيوني ينتقد الوكالة اليهودية فقال : « كل بيان توجهه وكالة يهودية حرية بهذا الاسم، الى الحكومات، يجب ان يكون بياناً معلياً لهذه الوكالة فوق حكومة فلسطين، ليظهر ان هذه الحكومة ليست الا أداة، وليُعلم ان الولاء إنما يجب للشعب اليهودي، لا لها، الا بقدر تعاونها مع اليهود في تنشئة الدولة اليهودية ضمن حدود فلسطين التاريخية ». هذه هي الصهيونية السافرة التي وقفت بباب مؤتمر سان فرنسسكو، تطالب من الدول الكبرى ان تبادر الى اعلان فلسطين دولة يهودية، وان تلغى القيود عن هجرة اليهود اليها، وعن تملك اراضيها، وان يمثل اليهود في الهيئات الدولية، أسوة بدول الجامعة العربية

الصهيونية الهائلة

هذه الصهيونية المعتدة بذاتها، حتى فلسطين الحالية كلها لا تكاد ترضيها او تكفيها. فمن

مشاريعها، مشروع لتحويل نهر الاردن الى ترع وأقنية للري، في واديه بكامله شرقاً وغرباً، وفي صحراء النقب، جنوباً، ولحفر قناة من البحر المتوسط الى البحر الميت تعوض هذا الاخير عن ماء الاردن شلالاً يولد من الكهرباء ما يكفي عديد الملايين، علاوةً على سكان فلسطين الحاليين. وقد تقدم الكشف عن غرض الصهيونية من الاستيلاء على مشروع الكهرباء، وعلى مشروع البحر الميت، ألا وهو التوسع الصناعي. وما يخفى على ذي بصر ان هذا التوسع يخرج بفلسطين عن كيانها الخروج الاكبر الذي لا حد له بمغزىً ديني او روحي او تاريخي، ولا بتخوم جغرافي او دولي، فتتسع لما لا حد له من السكان الصناع، العمال، التجار، لتقوم دولةٌ في هذا « الجزء الصغير » ليست بوطن قوميّ – كما شاء التعبير المبهم في تصريح بلفور – بل الدولة الداهية الدهياء المهدّدة لما يجاورها من الدول العربية. هذه هي الصهيونية الهائلة

فما قول المسيحية في مثل هذا العبث بنهر الاردن، وبحيرة الجليل، والبحر الميت؟ وماذا يكون مصير سائر الاماكن المقدسة، ان يكن هذا مصير نهر البلاد المقدسة وبحيرتها؟

المشكلة الصهيونية

هذه المشكلة المستعصية على الحل، نحن اوجدناها، ونحن بها الاشقياء المتعبون. فبدلا من الاهتداء بنجم القطب، الساطع نوره في « العهد الجديد » نظرنا الى الوراء، وعلى ابصارنا غشاوة، وفي قلوبنا مرض، ورحنا نسير دفة سفينتنا على مقتضى تصريح بلفور والانتداب القائم عليه، وكلاهما من صنعنا نحن، في وجه مقاومة العرب الحقة الصادقة. وما زالت السفينة ترتطم بالصخور، والسياسة الشرق الادنى عواصف زعازع، تكاد تنذر بحرب اخرى

ولما استعصت هذه المشكلة، لو ان الصهيونية رضيت وطناً قومياً في غير فلسطين. ولكنها ابت الا هذا الوطن المأهول، العزيز على قلوب اهله، حتى اذا جاريناها شوطاً، حسبناه حداً للوطن القومي اليهودي المنشود، وقد اشفقنا على انفسنا مما ارهقنا العرب، فأردنا حلا للمشكلة، قالت: « قولي، يا بريطانيا، للعرب، قولا واحداً: شئتم ام ابيتم، ان الدولة اليهودية لقائمة في فلسطين، وان تكرهوا العيش في ظلها، فاهجروها الى ما يطيب لكم من اقطار الحكم العربي». هذا هو الحل الصهيوني. وهو كقولنا لاهل انكلترة [1] من بلادنا البريطانية المثلثة الاقطار : «ارحلوا الى اسكتلندة، فهي بريطانية ايضاً، ودعوا انكلترة هذه لغيركم، كاليهود، مثلاً »

ولو تورعت الصهيونية لما تنكرت للحل الذي عرضته الحكومة البريطانية بالكتاب الابيض

(١) تطلق انكلترة بالفرنسية والعربية على الثلاث. انكلترة، وايلس، اسكتلندة. والمعنى « ارض الانكليز ». وكان قدماؤنا كابن بطوطة وابن خلدون يقولون « الانكتار » تصحيف انكلتار، اي ارض الأنكل. وجاء حرف الزاي عن مثله بالفرنسية علامة للتأنيث وللجمع

Digitized by Birzeit University Library

لسنة ١٩٣٩ . فقد كان حلا وسطا، ديمقراطيا. ولكنها رفضته، في حين كاد العرب يقبلون به، لانها ارادت تجاهل الديمقرطية، بل انكارها، الى ان يصبح اليهود هم الاكثرية السائدة

وقد آن لحكومتنا ان توجه القول الواحد الى الصهونيين: « انما كفلنا لكم « وطناً قوميا على حد تفسيره لكم في سنة ١٩٢٢ ، تفسيراً رضيتم به، في حينه. ولقد منحناكم ذلك الوطن، فبرئت ذمتنا. وليس في مقدورنا ان نرغم العرب على ان يفهموا « دولة يهودية » من ذلك « الوطن القومي » الروحي الذي اردناه لكم »

المشكلة اليهودية

كثيراً ما يسأل سائلون: « اين نذهب باليهود الذين لم يفسح لهم في فلسطين؟ ». ومتى تعهدت دولة عربية ان تتحمل هـذا العبء؟ او ما كان الجواب على هذا السؤال من شأن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وسائر الامم في ختام الحرب العالمية الاولى؟ واي عدل ذاك الذي يتطلب ان يضحي العرب فوق ما قد ضحوا في هذا السبيل؟ ولم لا يكون من الدول والامم، المنصورة بهذه العالمية الثانية، الا التبجح بانها قضت على الاضطهاد في اقطارها، لتصلح لليهود ولغيرهم على السواء.

المشكلة المريضة

وللمسألة وجه ثالث، انصرفت عنه انظار المسيحية في الغرب، وفي العالم الجديد، ولم تتحول عنه الكرامة النصرانية العربية في وطنها الاكرم. فقد عرف المسيحي العربي ما مصير المسيحية في مهدها على ايدي الصهيونيين السياسيين. وقد حق على العالم المسيحي بأسره ان ينظر بهلع الى مغبة تسليم البلاد المقدسة الى قوم ليسوا بمنكرين لمسيحية المسيح فحسب، بل لالوهيته، ولرسالته ونبوته، جميعا، في حين ان المسلمين يولون اسم سيدنا الكريم كل تشريف وتكريم. وهذا الانكار لسيدنا العظيم، ما زال دأب اللاهوتيين اليهود، قديما وحديثا. وقد اصر عليه من جديد، اثنان من علمائهم، هما الحاخام ستيفن ويز، في نيويورك، والدكتور جوزيف كلوزنر، من رجال الجامعة العبرية بالقدس الشريف

قول الحق

واولا واخراً، وقول الحق. الى العرب، نعود عند النظر الى مستقبل هذه البلاد الحبيبة. عشت بينهم طويلا، فتعلمت الاحترام والتقدير لسجاياهم الفطرية من إباء، وعزة، ووفاء، وحب الاوطان. وما اردت بهذا الكتاب الا ان اقدمهم للعالم كما عرفتهم

ولقد حان لنا ان نطلق الوهم الذي ما زال يصور لنا ان العربي قد يرخص وطنه، وتراث اجداده، حباً ببحبوحة في العيش، او بفائدة مادية، او جوداً وكرماً من تلقاء نفسه، رحمة بغيره. لقد حان لنا ان نقلع عن اغفال العرب، بمجرد التودد اليهم، والتمويه على مماحة نفوسهم. فهم اليوم، ابناء أمسهم العظيم، الذي شهد عزتهم، وأمجادهم، وآثاراً كباراً لما فطروا عليه من مواهب. ان تراثهم لعزيز على قلوبهم، فما يرضون به بديلا. وانه لتراث جدير بحرصهم عليه. وما من احد يعرف عرب فلسطين، يرضى ان يفرض عليهم تمدن غريب عن نزعاتهم وملكاتهم. وكما بين القطبين البعد بين الثقافتين، اليهودية والعربية. وواهم جاهل من قد يتصور ان دمشق، مثلا، بمساجدها، ومآذنها، واسواقها، ومتاجرها، وصناعاتها، ومنازلها ورحباتها، هي لقدم حضارتها، دون تل ابيب، الجديدة في المدن. وليست المسألة مسألة جديد وعتيق، بل هما عمرانان، احدهما شرقي والآخر غربي، ولكل وطنه

وعندما ننظر الى عرب فلسطين، ينبغي علينا ان نذكر ما قد عاناه العرب كافة، طيلة قرون متتالية، من الحرمان الحيوي، من جراء حكم اجنبي، غريب عنهم. فما يصح ان نزنهم بموازين الغرب، حتى كأننا نسينا كل ذكر للحكم التركي في ديارهم، وكيف وقفوا الى جانبنا في مناهضته والقضاء عليه، في سبيل نهضتهم المباركة، وانبعاثهم الجديد، امة عالمية بين الامم. وحسبنا من صلاحهم لما ندبوا انفسهم له من مكانة في عالم العصر، تألفهم دولا عربية مستقلة متجاورة في جامعة هي جامعتهم هم، يكفل لها دستورها تبادل كل ما هو ارقى والعمران مع ارقى الدول وأعمر البلدان

لقد خطا العرب خطوة جديرة باعجابنا وعطفنا وتأييدنا

فليكن نصيبنا من السير بالانسانية الى الامام ان نصدق العربي العون لاستعادة عظمته، بولايته عو لشؤونه، واستيلائه على مرافقه وموارده، واستقلاله في وطنه

Digitized by Birzeit University Library

فهرس

١ من وطن الى وطن : مولدي – تحت السقف الوالدي – بدء الحكمة – من نادي الاولاد الى البلاد ٩ – ١٣

٢ اسفار في الاقطار : يافا في تلك الايام – بيتي العربي الاول – منشأ المستشفى الانكليزي – الى القدس الشريف – رحلة بالخيام – المدينة الخبيثة تحت الارض – جرش وعمان – الجبل المتوحد ١٤ – ٢٢

٣ من زمن الى زمن : السفر في فلسطين عشية القرن العشرين – الخان اليهودي – من حيفا الى الناصرة – الى جبل طابور، فطبرية – مستشفى الارسالية الاسكتلندية – ميناء يافا – الصرة الحية وكعكة العرس ٢٣ – ٢٧

٤ العرب اصحاب الكتاب : اليد على المحراث – التجهيز – في يافا (١٨٩٥ – ١٩٠٣) – انويل والثبور – الحية والجمل – وبعد يافا، الناصرة ٢٨ – ٣٠

٥ النصرانية العربية : الى الناصرة : في ١٩٠٥ – مدينة الناصرة في يومها ذاك – مدارس القرى ٣١ – ٣٤

٦ البيت الدولة : البيت القروي – الفراش والآنية – السطوح – السلالم – الوتد في الموضع الأمين – المنزل – الكوز والكوار – النوم ٣٥ – ٣٨

٧ أوحي السماء أم حكمة الارض : الحياة المدرسية – حياة الحقول – الحصاد – البيدر – المذراة – يا كريم – يا رحيم – بعد البيدر ٣٩ – ٤٤

٨ البخور المحظور : النجاح الفاشل – الميعة – الأظفار – القنة – اللبان – حانوت العروبة ودار التبشير ٤٥ – ٤٧

٩ على التبشير السلام : من سعة الريف الى حوج المدينة – الحكم التركي – أهون الخطوب – المبشرة غير المبشر – التهذيب والتطبيب – الصلاة للمبشرين ٤٨ – ٥٢

١٠ بيتي على الجبل : داري في الكرمل – أفردوس ام دار للبيع – قصر الست – الله وحقي – عقد البيع – الحدود – الحساب والملكان السماويان ٥٣ – ٥٧

١١ داري في المدينة : داري في حيفا – جلد التمساح – الايمان في مار الياس – بعض من زار ٥٨ – ٦٠

١٢ مكان المحرقة : ابراهيم وايليا – عن سطح الدار – بهاء الكرمل – نار من السماء – النبع الذي لا ينضب – مصير هذا المكان ٦١ – ٦٧

١٣ ارض الموقعة : سهل مجدو – موج ابن عامر – امس واليوم – هرمجدون ٦٨ – ٧١

١٤ جد القمح : القمح البري – التينة المظلومة – أخت هارون ٧٢ – ٧٤

١٥ الحرب وراء الباب : الحرب وراء الباب – العمل الوقتي في لندن – عون المعين لسورية وفلسطين – أخوية فرسان القديس يوحنا المقدسية ٧٥ – ٧٨

١٦ بين الخارطة والراية : الملك فيصل والكولونيل لورنس – سكة الحجاز – سفرة الى مداين صالح – لو فطنوا – راية الاستسلام في دار السلام ٧٩ – ٨٣

١٧ حاكمك ظالمك : علم مرفوع وامل مقطوع – ما هي الصهيونية – الصهيونية حركة قومية – الصهيونيون في الميدان – الصليب والهلال – العهد الجديد ٨٤ – ٨٧

١٨ الحكم العسكري : لجنة التحقيق اولى بالتصديق – الاساس والجوهر – فتنة عيد الفصح – الجيش اليهودي – زعيم الجيش امام القضاء – العبرة – التحدي الاكبر – المشورة الصادقة – نهاية الحكم العسكري ٨٨ – ٩٥

١٩ حكم غريب في بابه : السياسة صهيونية – اوطن قومي ام حكم يهودي –

Digitized by Birzeit University Library

مظاهر القومية اليهودية – العلم اليهودي – النشيد الوطني اليهودي – اللغة العبرية – الجامعة العبرية – التحكم ٩٥ – ٩٨

٢٠ الخدمة الاجتماعية : المرأة قبل الحرب الاولى – مفتشة الشؤون الاجتماعية – زيارة السجون ٩٩ – ١٠٠

٢١ الانتداب الفلسطيني : قصة الانتداب الفلسطيني – الصلة التاريخية – المولود الاحول المهجين – العرب وهذا الانتداب ١٠١ – ١٠٧

٢٢ القضية الفلسطينية : الظلامة – المندوب الاول – وفد عربي الى لندن – العهد المقطوع لشريف مكة – منطقة الاستقلال العربي – افلسطين بمنطقة الاستقلال – الرد على زعم الحكومة البريطانية – المراوغة المفضوحة – الكتاب والانتداب – بين الكتابين ١٠٨ – ١١٦

٢٣ المحاباة المقصودة : بعد ربع قرن – زيارة بلفور – آثار تلك الزيارة – صوت بريطاني – اسمع تفرح، جرب تحزن – مشروع روتنبرغ – مشروعية المشروع – الشروع في المشروع – ليكن نور – ما وراء الاكمة – تكثير الاقلية ١١٧ – ١٢٥

٢٤ المسيحية المحجوبة : العمران والمعالم – نور ونور – مهد المسيحية الاكرم – الخطر على المسيحية ١٢٦ – ١٢٩

٢٥ الثروات المنهوبة : الثروات الدفينة – الامتياز الاكبر – قصة الامتياز – النفط والبحر الميت ١٣٠ – ١٣٤

٢٦ فتنة فلجنة : البساط السحري – يد الحكومة البريطانية في النول – الوكالة اليهودية – لكل فتنة لجنة، فحسب – مصير التقرير ١٣٥ – ١٤١

٢٧ الحق المصطنع : بيت المقدس – الحرم الشريف – البراق، المبكى – الحق المصطنع ١٤٢ – ١٤٥

٢٨ المؤامرة المفضوحة : الفضيحة – مشكلة الاراضي – عرب بلا ارض – بيع الاراضي – ليس الخبر كالعيان ١٤٦ – ١٥١

٢٩ تفسير الحق بالباطل : الكتاب الاسود – تفسير الحق بالباطل – المشروع الانشائي – لا عرب بلا ارض – ولا ارض لليهود – الجرة في ابريق – واين المشروع ١٥٢ – ١٥٦

٣٠ نصر الباطل بالقوة : الفتنة العائدة – آفات السلام – كيف حلت الفتنة من عقالها – الحكومة المخذولة – الطامة الكبرى – صوت مع العرب – تكذيب عجيب – النور الكشاف – الدفاع عن الجيش – الحكم على الحكومة – الابعاد عن البلاد – زعيم فلسطين ١٥٧ – ١٦٥

٣١ الإنصاف المنكر : الانتداب تحت البحث – كشف النقاب عن وجه الانتداب – التناقض بُطلان – لجنة التقسيم – فلسطين اربعة اقسام – لا استقلال في فلسطين ١٦٦ – ١٧٠

٣٢ السياسة الجديدة : الصلح أولى – رسالة هوغرث – تصريح هوغرث للسبعة – الحق المكتوم – المائدة المثلثة – السياسة الجديدة ١٧١ – ١٧٥

٣٣ الحق اولى ان يتبع : الصهيونية السافرة – الصهيونية الهائلة – المشكلة الصهيونية – المشكلة اليهودية – المشكلة الدينية – قول الحق ١٧٦ – ١٧٨

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢	٢٨	حكمة وسيادة الاسمية	حكمه وسيادته الاسمية
١٨	٢٨	اذا	اذ
٢٠	٦	اقدماي	قدماي
٢٩	٢٢	قرأه	قرأته
٣١	١٣	عتبة	عتيّة
٣٣	٢٥	الكنيسة	الكنيسة
٣٦	١٥	هذ	هذا
٣٧	١٠	دز	دزًا
٣٨	٧	الكوز	في الكوز
٣٩	١٣	المتر	المطر
٤٠	١٧	وربين	وربما
٤١	١	واستربن	واستربنَ
٤٣	٩	طباراً	طيّاراً
٤٣	١٧	نقطن	نقنطنّ
٤٦	١	للعسال	للسعال
٤٧	٥	اقتنا	اقتناء
٤٩	٢٤	بلاويا	بلايا
٥٢	٢٣	سجيتها.. تطبيقاً	سجيتها.. تطبيباً
٥٤	١	غت	غمّت
٥٤	٢	ركبتي	ركبتيّ
٥٤	١٥	برحلة	رحلةً

Digitized by Birzeit University Library